العدد (٥٩٧) جمادى الأول ١٤٣٦ هـ - مارس ٢٠١٥

أسست عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

Al-Waei Al-islami

العالم الإسلامي يودع خادم الحرمين الشريفين

- الإلحاد.. البضاعة المستوردة
- أمير البحار.. خير الدين بربروس
- الإدارة الحكومية عند الرواد المسلمين
- المحراب الإسلامي.. لوحة فنية

هدية العدد: بوستر «قواعد اللغة العربية»

مجانا مع العدد «براعم الإيمان»

مجلة الوعي الإسلامي
www.alwaei.gov.kw
info@alwaei.com

الافتتاحية

الإلحاد بين الشبهات والشهوات

إن شمس الهداية الإسلامية، وأنوار الشريعة المحمدية، بزغت على أهل الأرض، وهم في ظلام من الشرك دامس، وغيهب من الإلحاد طامس، فأضحت شمس الهداية تنور أرجاء الفضاء، وتنير الأرض والسماء، جاءت بالأدلة العقلية، والحجج النقلية، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، فالعقل جعله الله تعالى للدين أصلا، وللدنيا عمادا، فأوجب التكليف بكماله.. وما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، أو يرده عن ردى. ويظن كثير من الناس في هذا العصر أن الدين أمسى من المخلفات البالية، وأن الأجيال الصاعدة يجب أن تكسر قيوده، وتعدو حدوده، وتسير وحدها بلا قيود ولا حدود، دون مراعاة لخالق الأرض والسموات، وكأنهم ورثوا ذلك الإلحاد عن الجاهلية الأولى، ويعدونه من التقدم والذكاء. ومنشأ هذه الدعايات أنها جاءت من العدو وأهل الضلالات، فإنهم التمسوا في المسلمين عقولا ضعيفة، يغرها الطمع، وتقودها الشبه، فظفر منهم بأناس طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.. أناس يتكلمون لغتنا، ويستوطنون أوطاننا، وهم أضر على أمتنا. وإن الإلحاد ليس خرابا قلبيا، وليس ظلاما فكريا، بل دمار اجتماعي، يقضي على العفاف، ويطلق ألسنة الملحدين ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ (الأعراف:٨٢).

ثمة أسباب أدت إلى الإلحاد الذي انتشر اليوم، وقامت على فكرته الضالة سياسات ومدارس ومناهج ومذاهب مادية، تلقاه أبناء المسلمين، وتأثروا به، ونقلوه، وسعوا في نشره والدفاع عنه، مع أن واقع المسلمين، دينا ومنهجا ونظاما، مخالف تماما لما كانت عليه بعض الشعوب في حياتها الاجتماعية والسياسية، فالإسلام ليس ظاهرة اجتماعية جاءت ثمرة أفكار وإبداعات بشرية، بل هو حقيقة، ومنهج يتلخص في قاعدة جليلة، لم يعرف مثلها عند غيرهم: «إن كنت ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل»، وليس محض استنتاج وحدس وتخمين وخيال، والفضل ما شهد به الأعداء، وهذه شبهات العقلانيين وبعض المستشرقين والمشككين تتهاوى، وقد ظهر لكل منصف بطلان أقوالهم، وفساد نواياهم.

أيها الجاهل المنكب عمدا ... منهج الحق موغلا في اللحود
حاملا راية العداء لدين ... فضله الجم ذائع في الوجود
تحسب الدين أهله في غباء ... وعن النصر في زوايا الهجود

وإن أصحاب الشبهات والشهوات، لابد لهم من الرجوع والانقياد إذا ما سمعوا النذر، ورأوا الآيات: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ (إبراهيم:٨)، ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ (الزمر:٧).

ولا ترجع البركة إلى الأرض إلا إذا عاد الناس إلى ربهم، منيبين راشدين، متمسكين بالدين العظيم والمنهج القويم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ (فصلت:٤٠)، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ (فصلت:٥٣).

ستظهر لهم الدلالات والحجج، بدلائل خارجية وفي أنفسهم.

وإذا نظرت تريد معتبرا ... فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذي تمسي وتصبح في ... الدنيا وكل أموره عبر

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٧ | جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
مارس ٢٠١٥ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية – المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

١٦ السؤال مفتاح العلم

٤٦ تهديد اللسان العربي

٥٨ من الإعجاز اللغوي القرآني

٧٦ علموا أبناءكم الزراعة

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

٣	**الافتتاحية**/ الإلحاد بين الشبهات والشهوات	فيصل يوسف العلي
٦	**رثاء**/ العالم الإسلامي يودع خادم الحرمين الشريفين	التحرير
٨	**حوار**/ أستاذ الحضارة الإسلامية د. مجاهد الجندي	إسلام لطفي
١٢	**تراجم**/ بائع من إفريقيا.. حجته القوية غلبت المناظرين	محمد الهدوي
١٤	**دعوة**/ لئن شكرتم..	علاء الدين حسن
١٦	**تعليم**/ السؤال مفتاح العلم	خالد برادة
١٨	**ملف العدد**/ الإلحاد بضاعة مستوردة	السنوسي محمد
٢١	خرافة الإلحاد	التحرير
٢٢	كيف يفكر المسلمون؟	التحرير
٢٤	الإلحاد الخفي	عبدالله الشريف ومحمد عبدالعزيز
٢٨	حوار بيني وبين ملحد	الشيخ محمد الغزالي
٣١	كتاب يصف الداء والدواء	التحرير
٣٢	وجود الله بين الإيمان والإلحاد	د. يحيى رضا جاد
٣٦	**رثاء**/ عدنان النحوي رحمه الله في موكب النور	عبدالعزيز العسكر
٣٧	**دراسات**/ المسلمون في أوروبا الشرقية (٢-٢)	د. علاء الدين سيد أغا
٤٠	الأزمة المائية العربية	أحمد مصطفى
٤٦	تهديد اللسان العربي	د. خالد فهمي
٥٠	أمير البحار.. خير الدين بربروس	أحمد أمين
٥٣	**لغة وأدب**/ غربة	مياسة النخلاني
٥٤	تعلم اللغة العربية عند أبناء المهجر	محمد الدراوي
٥٧	لما رأيت الفجر	محمد عباس
٥٨	من الإعجاز اللغوي القرآني	د. مصطفى رجب
٦١	القلوب الثلاثة	الحسن ملواني
٦٢	إلى أين	محفوظ أمين
٦٤	القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٠)	عبدالله أيت الأعشير
٦٦	**مقدمة الكتب**/ الإصابة في تمييز الصحابة	التحرير
٧٠	**تنمية**/ الإدارة الحكومية عند الرواد المسلمين	د. أشرف صالح
٧٢	**أسرة**/ مثلثات أسرية	محمد شعطيط
٧٦	علموا أبناءكم الزراعة	د. آندي حجازي
٧٨	الأسرة ومقصد التدبير المؤسسي للمجتمع	د. محمد طونيو
٨٢	**عمران**/ المحراب الإسلامي.. لوحة فنية	خلف أبوزيد
٨٦	**طب وعلوم**/ الأمراض الوراثية.. والعلاج الجيني	د. محمد مصطفى
٨٨	**كنوز الذاكرة**/ الحقيقة الواحدة	التحرير
٩٠	**النوازل**/ حكم استعمال مياه المجاري بعد تنقيتها	د. محمود الكبش
٩٢	**ينابيع المعرفة**	تركي النصر
٩٤	**بريد القراء**	التحرير
٩٨	**مسك الختام**/ عبودية السعي وعبودية التوكل	د. خالد راتب

كلمة العدد

فتنة الإلحاد والجهر به

الإيمان بالله أصل دين الإسلام، ولا يكون صحيحا تاما إلا بتحقيق الإيمان بوجود الله سبحانه، وبربوبيته وألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وتنزيهه سبحانه عن كل نقص. ومما يستتبع هذا الإيمان اتباع النبي ﷺ، وتعظيم جانبه، والخضوع لشريعته، وقد كان هذا الأمر محل إجماع في بلاد المسلمين؛ لا ينكره إلا الكافرون، وفجأة نجمت فتنة الإلحاد، القائمة على الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وشريعته، ليس سرا واستخفاء، بل بكل جرأة ومجاهرة!

وهذه اللوثة الفكرية الداعية إلى الإلحاد مصادمة لعقيدة المسلمين، داعية إلى الهلاك الاجتماعي؛ إذا لم يؤخذ على أيدي دعاتها والقائمين على شرها، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال:٢٥). وفي سنن أبي داود عن عبدالله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك؛ ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله ﴿فَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٨١)، ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا».

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

العالم الإسلامي يودع خادم الحرمين الشريفين

التحرير

ودع العالم الإسلامي خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز - رحمه الله - ملك المملكة العربية السعودية، الذي وافته المنية فجر الجمعة ٣ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ الموافق ٢٣ يناير ٢٠١٥م.

وأعلن وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء الشيخ محمد عبدالله الصباح، الحداد في دولة الكويت لمدة ثلاثة أيام (يعطل فيها العمل في جميع الوزارات والدوائر الرسمية) على وفاة خادم الحرمين الشريفين.

وكانت للعاهل السعودي مواقف كثيرة تجاه الشعب الكويتي إبان الغزو العراقي لدولة الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م، ففضلا عن الموقف الخليجي والعالمي الموحد لتحرير الكويت من الاحتلال، كان للمملكة الدور الأكبر في استيعاب عشرات الآلاف من الكويتيين، حيث وفرت لهم كل الخدمات الإنسانية بالتساوي مع المواطن السعودي، من علاج وتعليم،

ووفرت المساكن العاجلة لهم، وكل ما تيسر لخدمتهم، بالإضافة إلى احتواء الحكومة الكويتية في مدينة الطائف، والتعاون في المساعي السياسية لمصلحة الكويت في العالم أجمع، والقيادة الداخلية لحرب تحرير الكويت.

وقد كانت للعاهل السعودي كلمات رائعة بحق الكويتيين عندما كان وليا للعهد، ووجه القيادات المدنية والعسكرية لمساعدة الشعب الكويتي بأعلى طاقة.

وقد حضر أمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الصباح الجنازة وبعث ببرقية تعزية لأخيه الملك سلمان بن عبدالعزيز والأمير مقرن بن عبدالعزيز، ضمنها خالص تعازيه وصادق مواساته بوفاة المغفور له بإذن الله تعالى أخيه خادم الحرمين الشريفين.

وقال أمير البلاد إن المملكة العربية السعودية الشقيقة فقدت أحد أبنائها البررة الذي كرس حياته وجهده لخدمتها والارتقاء بها إلى ما تستحقه من مكانة مرموقة بين دول العالم، كما فقدت الأمتان، العربية والإسلامية، قائدا عظيما، خدم قضاياهما وأسهم في معالجتها وفي توحيد صفوفهما وجمع كلمتهما، كما كانت له إسهاماته المشهودة على المستوى الدولي في الدعوة إلى الحوار وإشاعة الأمن والسلام بين دول العالم وشعوبه.

والفقيد الراحل كان أحد زعماء العالم البارزين الذين سعوا إلى تحقيق الأمن والسلام والاستقرار في المجتمع الدولي، وقدموا إلى البشرية خدمات جليلة من خلال أعمال الخير والإنسانية والعطاء المتدفق.

الشيخ صباح الأحمد يواسي خادم الحرمين الملك سلمان بن عبدالعزيز

ويظل مشروع الملك عبدالله لتوسعة الحرمين والمناسك من أعظم الأبنية وأكثرها تسهيلا لحجاج بيت الله الحرام في التاريخ، أضف إلى ذلك قطار المشاعر من جدة إلى مكة ومن جدة إلى المدينة المنورة.

هذا الجهد العظيم هو إحدى ثمرات الملك الراحل عبدالله بن عبدالعزيز، الذي أخذ على عاتقه هم المسلمين وتسهيل أمر أداء مناسكهم بكل يسر وسهولة.

وكان للفقيد الكثير من البصمات الدينية والعلمية والمعيشية والاجتماعية في المملكة التي شهدت تطورا علميا وحضاريا وثقافيا، كما تم الإعلان عن مشاريع اقتصادية ضخمة، منها: مدينة الملك عبدالله الاقتصادية، ومدينة الأمير عبدالعزيز بن مساعد ومدينة المعرفة، ومدينة جازان الاقتصادية، ومركز الملك عبدالله المالي.

«الوعي الإسلامي» آلمها المصاب الجلل، داعية الله أن يرحم الملك عبدالله بن عبدالعزيز، وأن يكون الملك سلمان بن عبدالعزيز خير خلف لخير سلف.

صورة لتوسعة الملك عبدالله للحرم المكي

أستاذ الحضارة الإسلامية د. مجاهد الجندي للوعي الإسلامي:

مراجعة التاريخ ضرورة لاستلهام قوة المسلمين

القاهرة - إسلام لطفي
دار الإعلام العربية

- التاريخ الإسلامي تعرض للظلم ولابد من إعادة كتابته مرة أخرى
- التحاور بإخلاص هو السبيل الوحيد لتلاقي الحضارتين العربية والغربية
- يجب ضبط خريطة الثقافة والإعلام لمعالجة الخلل الواقع في مجتمعاتنا حاليا

«التاريخ الإسلامي تعرض لظلم في تدوينه، ولابد من إتاحة الفرصة لكتابته مرة أخرى كما ينبغي».. هذا ما يؤكد عليه المؤرخ الإسلامي وأستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر د. مجاهد توفيق الجندي، والذي أوضح في حديثه لـ«الوعي الإسلامي» أن المؤرخ الذي يتمسك بمصداقيته قد يتعرض لضغوط شديدة للحيلولة دون تدوينه الحقيقة، وأوضح أن المستشرقين لعبوا دورا سلبيا في التأريخ بإظهار التفكك الإسلامي، وكثير من الشوائب التي تضر بتاريخ المسلمين.. إلى تفاصيل الحوار.

● التأريخ مهمة جليلة في حضارة الإسلام.. كيف ترى مكانته في الوقت الحالي؟

– المؤرخ الإسلامي اختلف حاله الآن عما كان عليه في العصور السابقة.قديما كان عليه أن يرتحل إلى الأماكن، ويتعرض للمخاطر والأهوال في ظل عدم وجود

مواصلات إلا السفن والجمال والخيول، أما الآن فاختلفت الظروف، وأصبحت الوسائل أكثر يسرا، فالانتقال للوقوف على الأحداث والوقائع يتم من خلال وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة، لكن وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهها المؤرخون القدامى نجد أنهم تركوا لنا رصيدا ضخما من التاريخ الإسلامي، ومعرفة البلدان، وطرق المعيشة، وحياة السكان وأمورهم الحياتية.

والمؤرخ اليوم لا ينبغي أن يقتصر على مجال تخصصه الدراسي فحسب، بل من المهم أيضا أن يكون على دراية كافية بعلوم أخرى، مثل علم الأجناس البشرية، والنفس، والاجتماع، والقانون، وغيرها.. غير أن أهم ما ينبغي أن يتحلى به المؤرخ هو الأمانة في نقله للحدث التاريخي، وللأسف الشديد هناك بعض المؤرخين يميلون إلى إرضاء السلطة، ولا يكتبون التاريخ الحقيقي للواقع كما ينبغي أن يكون.

● هل يعني ذلك أن التاريخ ظلم؟

– بالطبع، التاريخ ظلم بسبب بعض المؤرخين الذين يميلون ميلة واحدة مع السلطة، ويتركون الحقائق مقابل حفنة من المال، أو لأهواء شخصية، كما ظلم من الدول نفسها، لأنها لا تفرج عن الوثائق إلا بعد ما يقرب من ١٠٠ عام، أي بعد أن يكون صانعو هذه الأحداث قد فارقوا الحياة، والمؤرخ المتمسك بالمصداقية قد يتعرض للأذى أو الموت، نتيجة كتابته عن الذين أفسدوا في الأرض.

● وكيف نعالج الظلم الذي تعرض له التاريخ الإسلامي عبر العصور؟

– لابد من إعادة النظر في كتابة التاريخ مرة أخرى، حيث أصبحت الوثائق والأرشيفات سهلة النظر فيها، فمن الممكن الآن إعادة كتابة التاريخ بصورة أفضل. ولابد من اختيار المؤرخين الذين سيقومون بذلك، كما أنه لابد من مراجعة التاريخ الإسلامي من جديد، لأن الدين ليس صياما وصلاة فقط، لكن الدين المعاملة أيضا، ولابد أن نختار المؤرخين الذين يصدقون في أعمالهم، ولا ينبغي أن يكتب التاريخ غيرهم.

● كيف نستفيد من التاريخ الإسلامي في الوقت الحالي؟

– لابد من مراجعة التاريخ، والاستفادة من الأحداث التاريخية، وما فيه من جمال وعظمة وقوة المسلمين وعظمتهم في الفتوحات الإسلامية، والاستفادة منها في

واقعنا المعاصر، وهناك الكثير من العلامات البارزة في التاريخ الإسلامي، منها الحروب الصليبية وانتصار المسلمين، وفتوحات الأندلس وبلاد المغرب والمشرق وآسيا الوسطى، كلها أحداث في غاية الأهمية في تاريخ أمتنا المشرق، ولابد من التركيز عليها، لأن المستشرقين أعداء الإسلام كتبوا عن التفكك الإسلامي، وعن أشياء تضر بتاريخ أمتنا، فلابد من تنقية هذه الشوائب.

وهناك أحداث كثيرة ينبغي التوقف عندها، كمعركة «عين جالوت»، وكيف انتصر المسلمون فيها على التتار، وكيف أنه لو هزم المسلمون في هذه المعركة لضاع الإسلام وتغير التاريخ، بينما انتصارهم فيها جعل الأعداء يدخلون الإسلام، وأصبحوا ممن يدافعون عنه، أيضا هناك فتن حدثت في التاريخ الإسلامي، مثل الفتنة الكبرى، وقتل علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما.

● ما الأثر الذي تركه المسلمون على المجتمعات الغربية؟

– المسلمون علموا الغرب الحضارة بعد أن كانوا شعوبا متوحشة، والمسلمون عندما ذهبوا إلى الأندلس أقاموا حضارة الإسلام، وعلموا الغرب كل شيء في الحياة من النظافة والاستحمام وطهي الطعام وأشياء كثيرة، علموهم كيف يعيشون حياة سعيدة، كما فتح المسلمون مدارسهم وجامعاتهم للجميع، ودرس فيها أشراف وأبناء الملوك والأمراء، وتعلموا من حضارتنا الكثير.

● هل من سبيل لتلاقي الحضارتين الغربية والعربية؟

– بالفعل، هذا ممكن، ويكون ذلك عن طريق الحوار بإخلاص، عن طريق تفاهم الدول بعضها مع بعض، والحوار لن يأتي إلا إذا كان هناك تفاهم بين رؤساء الدول، ويجلس المثقفون والمتعلمون، ويأتون بالأشياء المشتركة، والأخرى الخلافية، فيتم التفاهم فيها.

● وهل نشهد حالة من حوار أم صدام حضارات؟

– نشهد حالة من الصدام بين الحضارات، لوجود من ينزعجون من الحوار والتفاهم، لأن تلاقي الحضارات ربما يؤثر على مصالحهم الخاصة.

● هل من محاولة لتصحيح قراءة الغرب لتاريخنا؟

– ليس هناك محاولات، والغرب يريد أن يبقي كل شيء كما هو عليه، ولا يريدون نهوض المسلمين، لأنهم يعتمدون على فكرة «فرق تسد».

● برأيك.. ما أثر التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية في واقع الأمة بعد غزو الثقافات الغربية لعالمنا؟

– الأثر للأسف قليل، خاصة بعد تدهور الأخلاق في الشارع، فهذه ليست أخلاق الإسلام، الناس تغربوا، والثقافة والإعلام لها دور كبير في تغريب الناس وإبعادهم عن التأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية، فيجب ضبط خريطة الثقافة والإعلام لمعالجة الخلل الواقع في مجتمعاتنا حاليا.

● ما أهم الفوارق الجوهرية بين صناع الحضارة الإسلامية، وبين من جاءوا بعدهم وأضاعوا بعض ملامحها؟

– المسلمون عندما ضعفوا ضيعوا أشياء كثيرة، منها المخطوطات التي تعد تراث وإرث الأمة الإسلامية من العلم، فكانت القراءة قبل فروض الإسلام، لكن المسلمون لم يعودوا يقرأون، بعد أن شغلهم التليفزيون عن القراءة، وكذلك الإنترنت، والغرب سرق تراثنا، ووضعه في خزائن لا تحرقها النار، ولو حرقت الدنيا من حولها، لكن ليس لدينا في مصر إلا باب واحد في وزارة الأوقاف المصرية معالج كيميائيا لا تحرقه النار، وضع على حجرة تسمى «النفائس»، يوجد بها وقفيات، منها وقفية علي بك الكبير مكتوبة بماء الذهب وخط النسخ.

● إذا تحدثنا عن رحلتك مع التاريخ الإسلامي.. ماذا تقول؟

– هي رحلة طويلة بدأت منذ دراستي في المعهد الأحمدي في طنطا محافظة الغربية، حيث درسنا مشايخنا وأساتذتنا السيرة النبوية وتاريخ العرب قبل الإسلام، وتدرجت في الدراسة حتى وصلت إلى كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر، والتحقت بقسم التاريخ الإسلامي، ودرست فيه على أيدي أساتذتي الكرام، أمثال الدكتور محمد الطيب النجار، الذي كان وكيلا للأزهر ورئيسا لجامعته حينذاك، والدكتور إبراهيم شعوط رحمه الله، والدكتور

عبدالفتاح شحاتة، والدكتور زكي غيث، ومحمود زيادة ويوسف علي يوسف، الذي كان رئيسا لقسم الحضارة، كل هؤلاء الأساتذة درسوني التاريخ الإسلامي، والدولة العباسية والأموية، والعرب قبل الإسلام، والسيرة النبوية بتوسع، ثم قرأت قراءاتي الواسعة في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، وتدرجت إلى أن التحقت بشعبة الحضارة، حيث درست الآثار الإسلامية، والعمارة والفنون الإسلامية.

● كمؤرخ.. كيف ترى ماضي وحاضر الأزهر؟

– أولا لابد من التنويه أن الأزهر الشريف قبلة المسلمين الثقافية، فهناك مقولة «للعالم الإسلامي قبلتان: قبلة الصلاة وهي الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، وقبلة الثقافة وهي الأزهر الشريف»، فهو من أقدم جامعات الدنيا، لأن المعز لدين الله الفاطمي عندما أرسل جوهر الصقلي الذي كان قائدا من قادتهم ليفتح مصر بعد أن كثر فيها الفقر والغلاء، بنى القاهرة عاصمة جديدة للفاطميين، وبنى الجامع الأزهر، وبدأت الدراسة فيه بخمسة وثلاثين فقيها، هم أول هيئة علمية فيه، وبنى لهم المعز لدين الله بيتا حول الأزهر، يعتبر أقدم إسكان جامعي في العالم أجمع.

وأرسل العزيز بالله الفاطمي بن المعز، الرسل والسفراء إلى الدول الإسلامية، ليخبرهم أنه فتح مسجدا في القاهرة للدراسة فيه مجانا على نفقته، وأوقف على الأزهر أوقافا كثيرة تدر دخلا وريعا، ينفق منها على الأزهر وطلابه، فجاء الناس من كل بلاد العالم الإسلامي للدراسة.

وكثير من علماء الأزهر جاءوا إلى مصر في العصر المملوكي من بلاد الشام خلال الهجمة الشرسة للمغول هناك، فجاء العلماء إلى القاهرة واحتضنهم الأزهر، وكلما جاءت هجمة من الشرق أو الغرب احتموا بالأزهر الشريف، وكان للمغاربة رواق كبير، وكذلك الأتراك والشام.

وكان ماضي الأزهر جيدا إلى عام ١٩٥٢م، ثم أصبح حاله حتى هذه اللحظة غير المأمول منه.

● وماذا عن تكريمك في اتحاد المؤرخين العرب؟

– جاء هذا نظرا لدراساتي المتميزة في وثائق الأزهر وغيرها، وخلال كتاباتي رأى اتحاد المؤرخين العرب أن يكرمني هذا العام، وحصلت على درع شوامخ المؤرخين العرب، وهذا الدرع لا يعطى لأي أحد، وإنما يعطى لأناس بذلوا مجهودات كبيرة وألفوا مؤلفات رصينة، تنفع الأمة الإسلامية، وتفيد المكتبة العربية والإسلامية، حيث يجتمع أقسام التاريخ في الوطن العربي كلهم على ترشيح شخصيات بعينها للحصول على هذا الدرع.

«الأوقاف» ودعت أحد رجالاتها الأوفياء

فقدت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية رجلا من رجالاتها الأوفياء، وواحدا من الشخصيات الوطنية المخلصة، التي كانت نموذجا للتفاني في العمل، وطيب العشرة، والصدق، وحلاوة اللسان. فقدت الوزارة مدير إدارة الشؤون الإدارية عبدالمحسن فيحان العتيبي (بوخالد) يوم الجمعة ١٦يناير ٢٠١٥م. وقد غيبه الموت بعد معاناة مع مرض لازمه قرابة السنوات الثلاث، كان فيها صابرا محتسبا، راضيا بقضاء الله وما قسم له من البلاء.

لقد أثارت فاجعة رحيلك أبا خالد غصة في الحلق، وانحسارا لمدد الرفقة الجميلة، وانطفاء لومضة نبل إنساني.

وإذا اجتمع في المرء النبل، وحب الخير، وكرامة النفس، والوقوف عند الحق.. فقد ترك الدنيا وهي أحسن مما وجدها، وفي هذا عزاء لنا، وأي عزاء.

إن في فراقك يا أبا خالد خسارة لنا جميعا، ولا يسعنا إلا أن نقول: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا على فراقك يا أبا خالد لمحزونون.. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. رحمك الله رحمة واسعة، وأسكنك فسيح جناته، وألهم أهلك الصبر والسلوان، وعوضنا الله فيك خيرا».

د. عادل الفلاح

وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بائع من إفريقيا.. حجته القوية غلبت المناظرين

محمد الهدوي
باحث في جامعة جواهر لال نهرو - الهند

لم يحظ هذا الفتى بنصيب وافر من التعليم إلا ما حصل عليه من المعلومات الضرورية في المدارس الابتدائية، ولم يستطع كذلك أن يستمتع برواق المدرسة ورحابها الواسعة التي يحمل فيها الطلبة من أبناء الميسورين حقائب كتبهم لكي يحضروا الفصول صباحا ومساء. ولكنه بسبب الفقر المحدق بأسرته اضطر أن ينهي دراسته ويسرع إلى العمل في باكر عمره. وكان في عهد صباه، يعود من المدرسة إلى المبنى الذي كان يسكن فيه ليأخذ قسطه من الطعام من مطعم قريب منه، مما شكل في حياته نظاما روتينيا. وأما غياب أمه الرؤوم، التي يحبذ كل صبي وجودها معه في تلك الفترة تهيئ له طعاما يحبه، وتداعبه، وتجالسه في أحزانه ومسراته، فقد خلف في نفسه وحشة قاتلة. ولا لوم على أب كان يعمل لكفاف أسرته، وينشغل بعالمه الأبوي المسؤول. صاحبنا، أحمد ديدات، الذي نتحدث عنه، كان طالبا متفوقا بين أقرانه، وذكيا، ولامعا على الرغم من المشاكل التي هو فيها. وفي السادسة عشرة من عمره، اكتسب لنفسه مهنة ليتقي بها وطأة الفقر المحيط بعائلته. فصار بائعا. وهو اليوم، بعد خمس وتسعين سنة منذ ولادته، ليس فقط واحدا من فرسان الدعوة الإسلامية، بل أخطر المدافعين عن الإسلام في الغرب، لسانا وقلما، وأسد المنابر إذا أطلق زمجرة دبت في أحشاء الباباوات على مستوى العالم قشعريرة مقلقة. وفوق كل ذلك، إنه داعية فريد من نوعه، أحكم نشاطاته الدعوية، وتنوع فيها بما يلائم عقلية القرن الحادي والعشرين.

ولد أحمد حسين قاسم ديدات عام ١٩١٨م في سورات بالهند. كان أبوه حسين قاسم ديدات عاملا بالخياطة في جنوب إفريقيا. لحق بأبيه عام ١٩٢٧م في السنة التاسعة من عمره، وعقب مغادرته الهند توفيت أمه رحمها الله. والتحق بالمدرسة، حيث يعمل والده، وواصل دراسته حتى الصف السادس، ثم توقف عن التعليم بسبب الفقر، الذي أعجزه عن دفع الرسوم المطلوبة. ورغم أن أباه اتصل بكثير من التجار المسلمين لمساعدته على مواصلة دراسة ابنه، فإنه لم يجد إليها سبيلا، فبحث عن سبل أخرى. واختبر ديدات حظه في كثير من الأعمال المهنية، فعمل في عدة محال تجارية، ثم ارتحل من مدينة «دربان»، التي تسكن فيها أسرته، إلى دكان رجل مسلم شريف يقع على مسافة خمسة وعشرين ميلا من تلك المدينة، فمكث هناك بائعا فيه، ثم رجع إلى دربان ليعمل في مصنع كسائق للشاحنات الكبيرة، ثم عمل ككاتب ضابط للصادرات والواردات، ثم مديرا للمصنع. وفي عام ١٩٤٩م سافر إلى باكستان وعمل فيها ثلاث سنوات في معمل للنسيج. وفي عام ١٩٣٧م تزوج بالسيدة حواء غنغت، وأنجبت منه بنتا وولدين. وفي عام ١٩٩٦م، عقب عودته من أستراليا، بعد مناظرة ناجحة مع أكابر الباباوات هناك، أصيب بجلطة تحت عنقه شلته تماما، فصار طريح الفراش لمدة تسع سنوات.

وكان في فترة مرضه يتلقى عناية كريمة من الدول العربية ورؤسائها، حيث نقل إلى مستشفى الرياض للعلاج بطريقة أفضل وليعتني به متخصصون.

انتقل رحمه الله إلى جوار ربه عام ٢٠٠٥م، عن عمر يبلغ السابعة والثمانين عاما وهو يستمع إلى القرآن الكريم، الذي كان يحبه حبا جما.

عناية إلهية في حياته رحمه الله

توالت في حياته عناية الله غير المتوقعة، على حد قوله. فهيأ له ظروفا وأسبابا، كان من أولها تعطشه للقراءة، فأصبحت الكتب خير جليس له في فترات وحشته، وأصبح قارئا نهما، لا يترك شيئا يقع في يده من كتب ومجلات وغيرها إلا ويقرأه بدقة متناهية، لدرجة أنه لم يبق كتاب في المكتبة لم يقرأه، إلى جانب ما وهبه الله من فهم ثاقب، وذكاء لامع، وطلاقة لسان، وتوفيق وسداد، وجهد ومثابرة.

ورغبته الجامحة في القراءة ذللت أمامه ظروفا صعبة، لأن الدفاع عن الإسلام كان جل همه، فبدأ يجادل كل من يتصدى له في المواضيع المختلفة، مما جعله يفوقهم في المعقولات والقدرة على المناظرة، بالإضافة إلى امتلاكه قدرات لغوية هائلة.

وثانيها حصوله على كتاب «إظهار الحق» للعلامة رحمة الله الهندي، وذلك عندما كان يبحث يوما في كومة من الصحف المكدسة في أحد المخازن للحصول على شيء للقراءة، ففوجئ بهذا الكتاب القديم جدا، الذي صدر عام ١٩١٥م في الهند، أخذه في يده ليقرأ العنوان المكتوب بالإنجليزية «Izharul Hakk»، ولكنه لم يستطع فهم معنى هذه الكلمة لأنها عربية، إلا أنه وجد تحتها معناها مترجما إلى الإنجليزية: Truth revealed. وكان هذا الكتاب قد ألفه رحمة الله ردا على النصارى في خمس مسائل من النسخ والتحريف، والتثليث، وحقية القرآن، والنبوة، حين كانت الإرسالية تعمل بشدة في الهند بين المسلمين.

وبعد أن مكن نفسه بالدلائل والحجج الدامغة بدأ يلقي محاضرات جذابة ومفيدة للمختصين والعوام في القاعات، على نفقته. ولم يمض وقت طويل حتى جذب هذا الفتى الخطيب انتباه الناس في المدينة.. معلوماته عن الكتب المقدسة، وإيمانه القوي بالقرآن والرسول ﷺ مدهشان للغاية.. ذات يوم، قدم عليه من جوهانسبرج بعض من كانوا يحضرون خطبه ومحاضراته في دربان، وطلبوا منه أن يلقي خطبة في مدينتهم في يوم الاحتفال بمولد النبي ﷺ. وبتردد رفض هذه الفكرة، فهو رجل من الطبقة العاملة، ولا يستطيع تحمل كلفة الرحلة، لكنهم تكفلوا بنفقة الرحلة كاملة، ذهابا وإيابا، فسافر لأول مرة بالطائرة ليلقي خطبة مثيرة للانتباه جدا في قاعة مدينة جوهانسبرج، غير أنها لم تكن خطبة فحسب، بل زرعت في نفسه ثقة كبيرة، وجعلته يفكر أكثر في مجال الدعوة، وتوسعة نطاقها، وفي كيفية التعامل معها وابتكار طرق جديدة، وفكر في أنه إذا كان قد حاضر في قاعة مدينة جوهانسبرج، فإن قاعة مدينة دربان أحرى أن يلقي المحاضرات فيها، فبدأ بقاعة مدينة دربان عام ١٩٥٨م، وجعل المسجد الجامع الكبير هناك مقرا لنشاطاته الدعوية. وبسبب نشاطه القوي هناك بدأ الناس يعتنقون الإسلام. ولم يخف أحمد ديدات أحدا في سبيل الحق، وكم كانت كلماته ممتلئة بالشجاعة حينما ناظر ثلاثة أساقفة في باكستان وتحداهم في عقر دارهم.

العصور برجالها

ديدات رحمه الله كان ممن أرى المسلمين منحى جديدا للدعوة، أوقف حياته على الإسلام والقرآن، وقر في قلبه أنه لا يتوجب عليه الإيمان بهما فقط، بل إعطاؤهما حقهما الذي يستحقانه، نشرا وتعليما، بين الناس من غير المسلمين، الذين لم تصل إليهم الدعوة الصحيحة، وإخبارهم بخطورة الأمر المتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة، وأصحاب الأوهام الخاطئة المستشرية عن الإسلام والقرآن منذ فترة طويلة. ولا شك في أنه تمتلئ عين كل مسلم حريص على الإسلام بالدمع حين يرى هذا الشيخ المتقدم في السن يناظر كبار القساوسة مدافعا عن إسلامه بكل عزم وقوة، لا ترى على وجهه مسحة من تردد وارتباك بينما ينتظر دوره، ولكنه، بلحيته البيضاء، وظرافته، وابتسامته الوديعة التي لا تفارق محياه، والقلنسوة البيضاء التي تستريح على رأسه المحلوق على الدوام مرتفعة قليلا إلى ناصيته، يجلس في مكانه مسلحا بالحجة الدامغة، وجعبته مملوءة بالسهام الصائبة، منصتا إلى كلمات خصمه حتى ينتهي ليصرعه.. يمكنكم أن تروا كل مرة يحاضر ويناظر فيها كيف يرفع القرآن عاليا ويقول: «هذا من عند الله»، لتبقى كلمة الله هي العليا.

لئن شكرتم..

علاء الدين حسن
كاتب دراسات إسلامية

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة: ١٥٢).

ويقول رسول الله ﷺ: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله» (صحيح الجامع).

وشكر الله عز وجل ليس كلمات تتردد، فلو كان الشكر هكذا؛ لكان الناس كلهم أو جلهم شاكرين لله عزوجل، ولما قال الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ: ١٣).

والشكر هو أن لا يستعين العبد بنعمة الله على معصيته.. الشكر: أن يتقي العبد ربه حق تقاته، وذلك بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

الشكر الذي ينبغي أن نعاهد الله عز وجل عليه، هو أن نسخر النعم التي يغدقها علينا لما يرضي الله سبحانه وتعالى، وألا نستعمل شيئا منها فيما يبغض الله عز وجل.

فإذا شكرنا الله عز وجل على نعمه؛ فلسوف تمتد سلسلة العطاء سخية تهمي كرما من سماء الله سبحانه وتعالى وفضله.

هذا هو ظننا بالله عز وجل، ولن يخيب الله ظن العبد به، وكيف يخيب الله ظن عبده به، وقد جاء في الحديث القدسي الجليل: «أنا عند ظن عبدي بي» (صحيح الجامع).

ومن كنوز الشكر: الدافع المتجدد في الطريق إلى الله.. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان: ٣).

ويؤكد الباحثون في علم النفس أن الشكر له قوة هائلة في علاج المشكلات؛ لأن قدرتك على مواجهة المشكلات تتعلق أصلا بمدى شكرك لله، وبمدى شكرك للناس.

فلن تستطيع أن تسير في الطريق، ولن تتوافر لديك الطاقة المتجددة، إلا بالشكر..

العبد الشاكر هو الذي ستكون عنده طاقة متجددة ليسعى في كل خير.. أما الجاحد فلا يقدر نعمة الله عليه، فيؤدي إلى ضياعه.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص، وأعمى، وأقرع، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن. فمسحه فذهب عنه، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل. فأعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

وأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟. قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا. فمسحه فذهب، وأعطي شعرا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطاه بقرة، وقال: يبارك لك فيها.

وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر الناس. فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطاه شاة...

فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرا أتبلغ به في سفري.

فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص، فقيرا، فأعطاك الله عزوجل. قال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له كما قال للأبرص، فرد عليه مثل ما رد عليه الأبرص، فقال: إن كنت كاذبا فصيّرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزوجل، (أي: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أو تطلب من مالي). فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» (متفق عليه).

وهكذا يكون الأعمى قد نجح في الامتحان؛ فشكر ربه، وتصدق مما رزقه الله؛ فزاد الله عليه النعمة، وباركها له، بينما بخل الأقرع والأبرص، ولم يشكرا

ربهما؛ فسلب الله منهما النعمة.

ومن نتائج الشكر: أنه يوصلك إلى درجة المحبة، ويحفظك من العذاب في الدنيا والآخرة.. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ (النساء:١٤٧).

فالله سبحانه وتعالى لن يعذبك، مادمت قد شكرت نعمته وآمنت به؛ بل سيعينك الله عزوجل على خطواتك التي تخطوها في طريقه.. وقد قدم الله تعالى الشكر على الإيمان، لأنك لن توفق للإيمان دون شكر.

ولقد كان الشكر خلقا ثابتا لأنبياء الله عليهم السلام. يقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ (النحل: ١٢٠- ١٢١).

ويقول عز وجل عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء:٣). ويقول الله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل:٤٠).

وكان رسول الله ﷺ كثير الشكر لربه، وقد علمنا أن نقول بعد كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (أبو داود بسند صحيح).

وجاء رجل إلى أبي حازم يسأله عن شكر العينين، فقال: إن رأيت بهما خيرا أعلنته، وإن رأيت بهما شرا سترته. قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيرا وعيته، وإن سمعت بهما شرا دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقا لله هو فيهما.

ولله در القائل:

إذا اجتمع الإسلام والقوت للفتى
وكان صحيحا جسمه وهو في أمن
فقد ملك الدنيا جميعا وحازها
وحق عليه الشكر لله ذي المن

والشكر والعبودية أمران متلازمان، فإن انفك الواحد عن الآخر غاب كل منهما، وانظروا إلى هذا التلازم كيف يتجلى في حديث رسول الله ﷺ عندما سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري عن سبب ما يتحمله من جهد في الليالي الطويلة التي يقضيها قائما مصليا ساجدا لله عز وجل، قالت: (أفلم يغفر الله لك ما تقدم وما تأخر)؟. أجابها قائلا: «أفلا أكون عبدا شكورا؟» (صحيح البخاري).

ومن كان قلبه فياضا بشعور العبودية لله سبحانه وتعالى، فاض قلبه نشوة بهذه النعم التي أرسلها الله سبحانه وتعالى إليه، نعم تتجلى فيها ألطاف الله عزوجل، تتجلى فيها محبة الله سبحانه وتعالى لعباده، تتجلى فيها رحمات الله سبحانه وتعالى لهم، تتجلى فيها استجابة الله سبحانه وتعالى لدعائهم ورجائهم، لكن الناس الذين غابت مشاعر العبودية لله عزوجل عن قلوبهم، هيهات أن يشعروا بهذا المعنى الذي يبعث الطمأنينة في النفس، وهم، وإن شكروا، فبكلمات تقليدية يغيب عنها الفؤاد، إنهم تائهون عن هوياتهم، غارقون في أهوائهم ورعوناتهم، فلربما استخدموا هذه النعمة التي يغدقها الله عزوجل فيما يسخط الله سبحانه وتعالى.

أما الإنسان، الذي وعى ذاته، وعرف عبوديته ومملوكيته لله، ثم رأى نعم الله عزوجل كيف تهمي من سمائه، ونظر فوجد كيف أن الأرض أصبحت مخضرة يانعة تبتهج لمنظرها الأبصار، فإن هذا الإنسان لابد أن تفصح عبوديته لله عن شدة الحب لمولاه وخالقه عزوجل، ممتثلا قول الله عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم:٧).

السؤال مفتاح العلم

خالد برادة
باحث دراسات إسلامية

يدرك الباحثون الذين بلغوا في البحث العلمي شأوا بليغا، أن العلم لا ينال إلا بالهمم العالية والعزائم المتوقدة، ولذلك هان تعب أجسادهم في سبيل بحوثهم، ليظفر الباحث النحرير منهم بما كان يؤرقه، فيغدو لحظة الظفر به مبتهجا سعيدا، ويكون له بذلك يوم عيد، وقد أدرك من يمم وجهه القاصد إلى محراب العلم والمعرفة أنه مطالب بكثرة الاستقصاء والتنقيب عن الوثائق العلمية، والحقائق الأكاديمية، وعدم الاكتفاء بما هو موجود، ذلك أن النهم هنا مطلوب، إلا أنه مذموم في كل ما عداه مما هو مرغوب، وأمامنا الآية الكريمة نبراسا لنا للضراعة إلى ربنا ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، فهذه الآية تقرر مبدأ إسلاميا أصيلا في ربط العلم بالله تعالى حتى تنكشف الحجب عن النفس وتتبدد الغيوم عن الفكر.

وقد يجد من خالط البحث دمه ولحمه، واستولى على لبه ومشاعره، أنه يلجأ إلى ركيزة أساسية ليكتمل هلال بحثه بدرا، هذه الركيزة هي الطابق الذي لا بد أن يبنى على قاعدة أصيلة، ألا وهي: قاعدة «السؤال مفتاح العلم»؛ وإذا سلمنا بهذه القاعدة التي لا غنى عنها لولوج بوابة العلم الفسيحة، فإنما نلفت النظر إلى نقطة في غاية الأهمية لقياس ميزان السؤال الذي ينير الفكر ويلهب الروح، ومفاد هذه النقطة المثارة: إن الباحث العلمي في حاجة إلى أن ينأى بنفسه عن السؤال البسيط، حتى لا يكون شأنه شأن العوام من الناس، فالباحث رجل ذو كفاءة علمية مقتدرة، وعلى إحاطة والمام بميدانه الذي ينهج سبيله، لذا كان لابد أن يطرح أسئلة إشكالية تأخذ طابعها الفلسفي، ليساعده ذلك على تثوير العلم، والمراد أن تتمخض عن ذلك السؤال الفلسفي أسئلة أخرى، قد تكون غائبة عن الباحث، ومن هنا يتجلى لنا الفرق الدقيق بين السؤال العلمي المساهم في تثوير العلم، وبين السؤال البسيط الذي سرعان ما ينتهي بجواب قد يكون بسيطا هو الآخر.

وقد يظن ظان أن الإسلام لا يشجع على السؤال أو يغض من قدره، ولنا أن نقول إن هذه آفة من يقرأ الآيات بظواهرها، دون أن يسبر غورها، ويحيط بأسباب نزولها، وذلك كما إذا قرأ المرء قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وبالرجوع إلى مصدر من مصادر التفسير أو أسباب النزول، فسرعان ما يزول عن الأذهان اللبس والغموض في فهم الآية.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن من طرق التدريس الناجحة، تقديم مجموعة من الأسئلة بين يدي الطلاب من لدن المدرس، لتفتح أمامهم الطريق الكاشف إلى المعرفة، ولتجذب أنظارهم نحو الموضوع المطروح للتلقي، وفي اعتبارنا أن تلك الأسئلة هي مقدمات لابد منها لتحقيق التحصيل العلمي المنشود، وكثيرا ما تأكد لي صحة هذا الرأي وأنا أقرأ في السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، مما زخرت به سيرته ﷺ من أحاديث مشرقة تفصح عن المنهج التربوي في إنارة العقول، وفتح مغاليق القلوب، كي تنفذ إلى القلب الفهم، دونك مثلا قوله ﷺ لأصحابه وللأمة جميعا: «أتدرون من المفلس؟» وأنت على خبر أن جواب الصحابة رضي الله عنهم – على جلالة قدرهم – كان على سجيته في تعريف «الإفلاس» على ظاهره، ولكن النبي ﷺ يريد أن ينفذ إلى دلالات كلمة «الإفلاس» ليقدم درسا أنعم به من دروس التربية النبوية التعليمية، عن طريق ضرب السؤال، والارتقاء بالأفهام من خلال الإجابة عليه بما لم يكن متوقعا، والأمثلة على ذلك تترى من الوحيين، ولذلك لابد من التمسك بالمنهج التربوي النابع من أصالة ديننا، فللسؤال أهميته البالغة في مناهج التعليم، وإذا كان سؤال المدرس لطلابه من الأهمية بمكان، فقد يكون سؤال أحد الطلاب لأستاذه في حصة الدرس محفزا لجميع الحاضرين، ابتداء بالمدرس، ومرورا بالطلاب، وانتهاء بصاحب السؤال نفسه، ومن شأن ذلك السؤال أن يحفز الجميع لتقديم عروض حول البنية الفكرية المثارة في التساؤل الذي أيقظ شريان البحث في النفوس، فيهبوا لجمع كل ما له صلة بالموضوع الذي حمله السؤال من المادة العلمية، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وقد تطرح أسئلة أخرى تولد من رحم السؤال الأم، فينكشف أمام الدارسين مدى أهمية الأسئلة العلمية الجادة، فتكون مشروع حياة الباحث؛ فيستفرغ فيها غاية جهده، ويمضي حياته مرتبطا بمشروعه العلمي الذي بزغ فجره من ذلك السؤال، الذي كان يوما ما مجرد سؤال.

وقد وجدنا في كثير من الكتب التي لا غنى عنها في بابها المعرفي، أن مؤلفيها يفصحون عن أن الذي حدا بهم إلى طرق موضوع الكتاب، ما دار في جنبات حجرة الدرس، وخاصة داخل أسوار الجامعة، من حوار ونقاش حول نقطة محددة في جانب من جوانب العلوم، سواء عندما كانوا طلابا شادين أو أساتذة باحثين، فانفرط عقد الحلقة الدراسية، ولكن ما سمعوه من الآراء الفكرية لم يتوار عنهم، وظل يعمل فيهم عمله، فوجدوا موضوع النقاش الذي أذكى الحصة الدراسية موضوعا بكرا صالحا للبحث، فاستفرغوا فيه غاية جهدهم، محاولين بذلك أن يسدوا ثغرة في صرح العلوم بما توصلوا إليه من نتائج، وما اهتدوا إليه من حقائق، وتراهم بعد ذلك يدفعون إخوانهم الباحثين إلى المزيد من كشف جوانبه، وإشباعه بحثا، ولم لا يكون مشروع حياة يرتبط به الباحث، فيكون آخر ما يفكر فيه قبل النوم، وأول ما يهتم به عند اليقظة، وعند الوصول إلى هذا المستوى نكون قد حققنا الإضافة العلمية لأهل التخصص.

وهكذا نكاد نجزم أن الإضافة العلمية لا تتأتى إلا للمساهمين بحظ وافر في طرح أسئلة تلامس خواطرهم، وتعتلج في نفوسهم، ومن ثم كان لهم شرف المساهمة في تثوير العلم في أطروحاتهم العلمية، إذ ثم تبنى تلك التساؤلات والإجابة عنها، وقد يكون من السؤال الفلسفي الواحد عدة أسئلة كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

ولقد أدرك من له دربة ومران في البحث الأكاديمي، ومن خلال الاطلاع على آفاق الفكر، وتعدد مجالات المعرفة، أن ما يعيق تقديم النظريات والطروحات الجيدة في العلم هو الحديث عن ماهية العلوم والتصدي لبيانها من دون الرجوع إلى المعاجم اللغوية والفلسفية، ومن كان هذا شأنه فإنه قد ساهم عن غير قصد في قتل العلم، لأنهم كما يقولون – ما يقتل العلم هو البديهيات – ولذلك لابد من استحضار قواعد البحث العلمي التي فتح أساتذتنا الجلة – أحسن الله إليهم – عيوننا عليها.

وإذا كان السؤال مفتاحا لولوج آفاق العلم ومجالاته؛ فإنه مما تجدر الإشارة إليه أن الاعتماد على منهج طرح السؤال لهو الطريق اللاحب إلى التنظير والتجديد، وهذا هو الإبداع الفكري، إلا أننا ننبه هنا إلى الضوابط التي يجب مراعاتها وعدم تجاوزها في الموضوع المدروس محل التساؤل، حتى لا تجمح بالمرء سفن الضلال، فيورد نفسه الهلاك، وذلك كإعلاء العقلانية المحضة، وسلوك منهج الفرق التي أباحت لنفسها التأويلات العقيمة في كثير من أمور العقيدة التي يجب التسليم بها، ومن هذا المنطلق يكون السائل عامة والباحث خاصة في مأمن من الانزلاق إلى مراتع الهوان، فيؤتي السؤال مقاصده وأهدافه المرجوة.

وإننا في حاجة إلى باحثين يدركون شرف مكانتهم التي ينالونها، ولذلك لابد أن يكونوا غيورين على أبحاثهم زاهدين في بهرج الدنيا بشهادات تنال في أيديهم، وقد تكون الوجهة إليها من خلال كتابة الموضوع العلمي.. بل لابد أن نكون جيلا يسير في الطريق الذي عبده لنا كبار رجال الفكر الإسلامي الذين زهدوا في الدنيا، وتنعموا في كنف البحث العلمي؛ وهكذا نريد أن نحذو حذوهم، سالكين منهجهم الأصيل، لننتسب إلى البحث العلمي النزيه، فنكون من ذوي الأقدام الراسخة فيه، ولنا مفتاح نلج من خلاله إلى أبواب العلم الفسيحة، هذا المفتاح هو السؤال الإشكالي، ونضرع إلى الله تعالى أن يجعلنا ممن يساهمون في تحقيق الإضافة العلمية لأهل التخصص، وفتح آفاق جديدة من الأسئلة العلمية التي من شأنها أن تشكل روافد جديدة للغوص في أعماق العلم النافع، والله ولي التوفيق.

الإلحاد بضاعة مستوردة

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

عجيب أمر هؤلاء الذين يدعون إلى الإلحاد، وإلى إنكار وجود الله سبحانه، وإلى أن يسير الناس في الحياة لا حظ لهم من إيمان يملأ عليهم أفئدتهم، ولا من عبادة تخشع لها جوارحهم وتنقاد! إنهم لا يعادون الإسلام فحسب، وهو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، على اختلاف في الشرائع والأحكام للأقوام والأمم التي توزعت على امتداد القرون المتطاولة، حتى ختم الإسلام بشريعة النبي محمد ﷺ..

إنهم لا يعادون هذا الإسلام فحسب، بل يعادون أيضا الأديان الباطلة، والمعتقدات الموغلة في الخرافات والترهات.. فإنها جميعا متفقة على ضرورة الإيمان، أي على أصل القضية!

إن «الناس من أقدم العصور حيارى، يجدون في أنفسهم إلهاما بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة، يستلهمونها ويستمدون منها العون، ويستقبلون منها الخير والشر، فيدعونها خوفا وطمعا، ويتملقونها بالقرابين والعبادات، ويجدون في الإيمان بهذه القوة – التي اختلفوا في تكييفها – سندا وملاذا من رهبة القوى المادية في الكون، وسلوى وعزاء عمّا هم فيه من قسوة الحياة وآلامها» (١).

وإذا كان الإيمان – في معناه العام – هو إحساس الإنسان وشعوره بضرورة وجود قوة أخرى أكثر كمالا واقتدارا منه – كانت هي البدء الذي به كان، وإليها خاتمة المطاف والمنتهى – فإن هذا الإحساس البشري الذي يعمر به قلب الإنسان ووجدانه هو فطرة الإنسان التي فطر عليها، والتي ركبت في طبعه، فصارت لازمة من لوازم حياته، المعنوية والروحية. وكما يبحث الإنسان عن الطعام والشراب والهواء للإبقاء على كيانه المادي، فهو يشعر بالحافز للبحث عن هذه القوة الخفية، والتقرب منها واسترضائها للإبقاء على كيانه الروحي والمادي معا (٢).

من تجاوز الكنيسة إلى تجاوز الدين

لقد ظل الإنسان الغربي في «عقوده المظلمة» – خاصة في أواسط القرن السادس عشر – يعاني صراعا مريرا مع الكنيسة،

محاولا الخروج من سيطرتها وربقتها، بعدما فرضت الكنيسة رؤيتها الخاصة للكتاب المقدس، ولسائر نشاطات الحياة حتى على الجوانب العلمية منها (٣)، إضافة إلى تحالف رجال الكنيسة مع الإقطاعيين، وهو ما أدى إلى أن يثور الإنسان الغربي ليس على سلطة الكنيسة فقط، بل على سلطة الدين ذاته!

ومن هنا، نشأت موجات متتابعة من الإلحاد، ومن الجرأة على الله، تسفه فكرة الإيمان، وتصمها بالعبودية والخنوع، وتعتبرها قيدا على حرية الإنسان وإرادته.

لكن - والحق يقال - قد يكون للإنسان الغربي بعض العذر فيما فعل، إذ كانت سيطرة الكنيسة وقيودها قد بلغت حدا مرهقا للإنسان، ومثلت عبئا على الإيمان ذاته!

لكن البعض من المفتونين بالغرب وثقافته وحضارته، راحوا ينقلون معركة الإنسان الغربي مع الكنيسة، وخروجه على دينها الذي يحرم العلم.. راحوا ينقلون ذلك إلى أرض المسلمين، ويسقطون تلك المعركة على الإسلام، دون أن يدركوا أن لا وجه أبدا للمقارنة بين الإسلام، وما انتهت إليه الكنيسة من دين، وأن هذا الصراع بين العلم والدين إنما هو ابن البيئة الغربية بشكل حصري!

وفي مواجهة موجات الإلحاد، أوائل القرن العشرين، حذر الأستاذ عبدالعزيز جاويش من خطورة تلك القضية، وأوضح أن الذين يصورون علاقة العلم والدين حربا قائمة دائمة لا يستقر لهما صلح، إنما هم تلاميذ آثار الغربيين، ممن يفتنون بكل جديد، ولو كبل عقولهم بأغلال التقليد، وحبسهم عن التدبر والتفكير.

وأكد جاويش أن هؤلاء لو كان لهم علم بأصول القرآن الكريم، ووقفوا على ما مكن للعقل والوجدان من قواعد الحرية الصادقة في سائر شعب الحياة، لما زلت لهم قدم في مزالق التقليد، ولفقهوا إجلال ذلك الكتاب الذي يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)، والذي يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣) (٤).

التحريف مدعاة للإلحاد

من الملاحظ - وكما سنرى من خلال سرد بعض التجارب الذاتية - أن التحريف الذي لحق ببعض الشرائع السماوية، وأصابها بالتناقض، وجعلها تضاد العقل وتستعصي على الفهم، فضلا عن لاعقلانية المذاهب الوضعية التي ذهبت بعيدا في منحدر الخرافات.. أن ذلك كان مدعاة للإلحاد، وسببا أساسيا في أن يرفض العقلاء تلك المزاعم التي تسمى «دينا»!

ولما كان الإسلام - الدين الخاتم - قد تكفل الله سبحانه بحفظ كتابه وينبوعه الصافي، الذي يشتمل على أصول العقائد وأمهات الفضائل وقواعد الشرائع، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر:٩).. فإننا نستطيع أن نقرر باطمئنان أن الإلحاد هو مشكلة من خارج بيئتنا الحضارية (٥). فبيئتنا الحضارية لم تعرف صداما مع العلم، ولا إجحافا بمكانة العقل، ولا تسلطا على مناهج البحث العلمي، ولم تدع إلى مقررات تصادم الفطرة السليمة والعقول المستقيمة.

إن خطورة العقائد المحرفة، تكمن في أنها تبعد الناس ليس عن اتباع هذه العقائد المحرفة فحسب، بل عن الاعتقاد الديني بوجه عام. ولذلك يقول مراد هوفمان في تقديمه لأحد كتب جيفري لانج: «عندما يزعم المؤلف بأن العقائد الدينية في العصر الحديث لا تفعل شيئا، سوى أنها تزيد من أزمة الإيمان والدين، فإنه يردد صدى ما قاله محمد أسد عام ١٩٣٤م، عندما تنبأ أن الشكوك التي أثارتها العقيدة النيقية (٦) وخاصة عن أفكار التجسيد والتثليث، لن تبعد أصحاب الفكر عن كنائسهم وحسب، بل عن الإيمان بالله تبعا لذلك» (٧).

ويسجل ألفونس «أتيين دينيه» - الذي أسلم وتسمى بـ«ناصر الدين» - شهادته عن اتساق العقيدة الإسلامية مع الفكر والعقل، فيقول: «إن العقيدة المحمدية (٨) لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير. وكما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات، وجميع درجات المدنيات» (٩).

ولما سئل البروفيسور «هارون مصطفى ليون» عما أعجبه في الإسلام، ذكر أن من مفاخر الإسلام، أنه مبني على العقل، لا يطالب معتنقيه أبدا بتجميد طاقاتهم الفكرية، مخالفا بذلك عقائد أخرى، تلزم تابعيها بالاعتقاد الأعمى لمذاهب وآراء معينة، دون تفكير فيها (١٠).

وقد وجه هوفمان نقدا حادا لما دخل من تحريف على المسيحية، جعلها لاعقلانية! فيقول: عندما يتوسط المسيحيون في خطأ محاولة الدفاع العقلاني عن مذهب «التثليث» يأخذون أولا بالتذرع ببعض الألاعيب اللغوية، وينتهي بهم الأمر إلى التراجع، زاعمين أنه بما أن «التثليث» هو سر من الأسرار، فإنه بذلك يستعصي على التفسير. ثم يؤكد هوفمان أن من الابتذال، القول بأن «الأسرار الدينية» تستعصي على التفسير، وهي كذلك بحكم تعريفها، ولكن ليس هناك ما يمنعنا إطلاقا من أن نقرر بداية ما إذا كانت المسألة تتعلق بسر من الأسرار بالفعل، أو أنها - كما في حالة «التثليث» - من نسج قلوب البشر وعقولهم. ويضيف: «لقد مضى ذلك الوقت الذي كان فيه للمسيحية أن تستفيد من فكرة «التثليث»، خاصة

عندما تنتشر بين شعوب تؤمن بالتسلسل الهرمي للآلهة، أما اليوم فإن «التثليث» لا يعدو أن يكون عبئا على المسيحية» (١١).

فمراد هوفمان يفرق بين ما يعتبر سرا من الأسرار، وبين ما هو من نسج عقول البشر. ويوضح أنه «الأسرار» قد يجوز عدم فهمها، ولكنه «التثليث» ليس أصلا من هذه الأسرار، وإنما هو من نسج الخيال.

ولكننا يجب أن نضيف هنا توضيحا لما ذكره السفير هوفمان، أن حتى ما يسمى «الأسرار» - أي ما يطلق عليها الإسلام «العقائد» - فإنها لا يجوز أن تتناقض مع العقل.. ولكن يجب أن نفرق في مسائل العقائد بين ما لا يستطيع العقل إدراك كنهه وحقيقته مثل: عذاب القبر، وغير ذلك من الأمور الغيبية وبين ما يحكم العقل باستحالته، مثل: التثليث ووراثة الخطيئة الأولى، فالنوع الأول يقف فيه العقل عند حدوده ويؤمن به، أما النوع الثاني فإن العقل يرفضه، ويأبى الاعتراف به، وعلى ذلك فهناك من عقائد الإسلام ما نؤمن به ولا ندرك كنهه، لكن ليس في الإسلام ما يحكم العقل باستحالته، أو ما يخالف الحقائق المنطقية.

تجارب ناطقة بالتوحيد

أمام هذا الأمر الداعي للعجب والدهشة - أي الإلحاد - فإنني أرى أن من الأوفق، ونحن نحاول أن نمد لمن أغراهم بريقه الزائف يد الهداية والإرشاد، عسى الله أن يمنحهم نورا ينقذون به أنفسهم من التردي في مهاوي ظلمات الجحود.. أرى أن نعرض لهم نماذج مضيئة من أبناء الحضارة الغربية، سبقوهم في طريق التعرف على الله، والتسليم بمنهجه، والسعادة في رحابه.

فلاشك أن عرض هذه النماذج يفيدنا في هذا المقام من ناحيتين:

الأولى: أن حياة أولئك الذين اهتدوا هي نفسها أوضح مناقشة للمزاعم التي ما فتئ هؤلاء يرفعونها في وجه دعاة الإيمان، ويلبسون بها على العامة، وعلى الشباب الذين لا تسعفهم معارفهم للصمود في وجهها.

أما الناحية الثانية، فهي أن هذه النماذج المضيئة تقول لهم بلسان الحال: لقد أغرانا الشيطان كما أغراكم، وتربص بنا كما تربص بكم، وقعد لنا في طريق الهداية كما قعد لكم، لكننا - بمعونة من الله وفضل - قد اجتزنا كل تلك العقبات، وآوينا إلى ركن شديد، ووجدنا في واحة الإيمان ما ظللنا نبحث عنه، وما شقينا لعقود بسبب الابتعاد عنه.

فمن محمد أسد الصحفي النمساوي الذي كان يهوديا، إلى رجاء جارودي الفرنسي الذي كان عضوا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي، إلى جيفري لانج الأميريكي الذي فضل الإلحاد على دين الكنيسة..

هذه النماذج - وغيرها كثير - ناطقة بضرورة الإيمان، وأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وناطقة أيضا بأن الإسلام هو الدين الجدير بأن يمنحه الإنسان ثقته، وأن يسلم له قياده، وأن يرسو بسفينة عقله على شطآنه.. فهو دين الله الخاتم، المحفوظ بحفظه من التحريف والتبديل إلى يوم الدين، ومن ثم، كان قادرا على مخاطبة أرقى العقول البشرية، على اختلاف الزمان والمكان.

وما الإلحاد إلا مشكلة من خارج بيئتنا الحضارية، فلنحذر من محاولات إرهاق العقول، وتشتيت الجهود عن مواجهة التحديات التي تحيط بنا من كل حدب وصوب!.

الهوامش

١- الرسالة الخالدة، الأستاذ عبدالرحمن عزام، ص: ١٨، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، ١٩٦٤م.

٢- في الإيمان والإسلام، الأستاذ أحمد حسين، ص: ١٣، دار القلم، بدون تاريخ، بتصرف يسير.

٣- حينما أثبت كوبرنيكس دوران الأرض حول الشمس، وحينما زاد جاليليو دوران الأرض حول نفسها؛ قرر المكتب المقدس في فبراير ١٦١٦م أن مذهب كوبرنيكس سخيف، وبمقارنته بما جاء في وصية المسيح يعد هرطقة. ولقد حرمت روما تعليم نظام المجموعة الشمسية إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر، مما أربك دراسة العلوم الطبيعية هناك. انظر: أثر القرآن في تحرير الفكر البشري، الشيخ عبد العزيز جاويش، ص: ٤١، هدية مجلة «الأزهر»، ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، بتصرف يسير.

٤- المصدر نفسه، ص: ١١١، ١١٤، باختصار وتصرف.

٥- لم يعرف تاريخنا «الإلحاد» كظاهرة، وإنما كحالات معدودة.

٦- أي العقيدة التي تقررت في مؤتمر «نيقية» سنة ٣٢٥م، والتي قررت بنوة عيسى وألوهيته.

٧- من تقديم د. مراد هوفمان لكتاب د. لانج، «حتى الملائكة تسأل»، ص: ١٢، ترجمة د. منذر العبسي، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠١ م.

٨- الصواب أن نقول «العقيدة الإسلامية»، لأن الغرب يقصد من نسبة العقيدة إلى محمد ﷺ، إظهار الإسلام وكأنه من اختراع محمد، وليس وحيا إلهيا.

٩- أوروبا والإسلام، د. عبد الحليم محمود، ص: ٩٩، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٢م.

١٠- في الدعوة إلى الإسلام، المستشار محمد عزت الطهطاوي، ص: ٢٥٦، دار التراث، ط١، ١٩٧٩م.

١١- يوميات ألماني مسلم، هوفمان، ص: ١٥٩، ١٦٠، ترجمة د. عباس رشدي العماري، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣م.

يناقش الألوهية والدين والأخلاق:
«خرافة الإلحاد»

التحرير

يعد كتاب «خرافة الإلحاد» أحد أبرز الكتب التي صدرت مؤخرا للدكتور عمرو شريف، أستاذ الجراحة العامة.

وهو كتاب مهم للغاية في مجال مناقشة قضية الإلحاد؛ لاستناده إلى الدليل العلمي، والمحاججة المنطقية، والاستدلالات العقلانية، متوغلا بعمق في جوهر قضية الإلحاد من خلال التوسط بين أكبر الفلاسفة والعلماء في مختلف المجالات المعرفية والعلمية.

يقع الكتاب - وفقا لما ورد في موقع دار ناشري - في ثلاثة أبواب، وأربعة عشر فصلا. يتناول في الفصل الأول «الإلحاد المعاصر»، مبتدئا من الميلاد إلى الفكر المعاصر والفلسفة المعاصرة في مجال الإلحاد، ويدرس متتالية الفكر المادي، الحضارة المادية، ثم الإلحاد.

أما الفصل الثاني فيبحث في طبيعة العلم، أي في العصر الحديث، المنهج الاختزالي وسلبياته، مجال العلم وحدوده، العلماء بين الحيادية والتحيز، حاجة العلم إلى الإله.

في حين جاء الفصل الثالث بعنوان: «صراع متوهم»؛ ليميز بين العلماء المتدينين والعلماء الملحدين، والفهم القاصر للدين والعلم، واصلا إلى جوهر الصراع الطبيعي، أي المذهب الطبيعي في مواجهة الدين، والتوافق بين الدين والعلم.

يناقش الفصل الرابع من جملة فصول الكتاب «الكون بين الإله والإلحاد»، فيؤرشف لقصة خلق الكون، والانفجار الكوني العظيم، ونظرة الفيزياء إلى الكون، وموقف الملاحدة المعاصرين من الكون، والبرهان الكوني (أو الدليل الكوسمولوجي)، وبرهان الضبط الدقيق. وختم الفصل بنشأة الكون في القرآن الكريم.

أما الفصل الخامس فيدرس فيه الحياة بين الإله والإلحاد، من خلال: ماهية الحياة، والسمات الوجودية للحياة، ونشأة الخلية الحية، وأكذوبة الحتمية الجينية، وأسرار البيولوجيا.

بينما الفصل السادس فيبحث في التطور الداروينى بين الإله والإلحاد، وذلك من خلال جملة من القضايا المتعلقة بالداروينية، مثل داروين ونظرية التطور، ونقد الداروينية، من خلال سجل الحفريات، وعجز آلية التطور الداروينى.

والفصل السابع معني بدراسة التصميم والتطور بين الإله والإلحاد، وذلك عن طريق البحث في ملامح التصميم في عالم الأحياء، نظرية المعلومات، التعقيد غير القابل للاختزال، والتصميم الذكي، والتطوير الإلهي.

والفصل الثامن يبحث في العقل بين الإله والإلحاد، فيدرس مسائل غاية في الأهمية، مثل: المخ والعقل، العقل واللغة، العقل وتذوق الجمال، العقل والمشاعر الروحية، المادية والعقل، العقل ونهاية الفلسفة المادية.

الفصل التاسع يبحث أيضا في مسائل مهمة جدا: الألوهية - الدين - الأخلاق.

ويلخص المؤلف قضية الكتاب كلها، بالقول: «تعتبر حياة الإنسان رحلة «عبر الزمان»، ويعتبر سفره للسياحة، أو الدراسة، أو العلاج «رحلات عبر المكان»، وتتفاوت هذه الرحلات في دوافعها ومردودها. وتظل الرحلة إلى الله تعالى مبتغى معظم البشر، فهي الغاية من الوجود الإنساني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ (الانشقاق:٦)، وهي رحلة الإنسان من المخلوق إلى الخالق، ومن الموجود إلى الموجد، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب، ومن عالم الملك إلى الملكوت والجبروت».

كيف يفكر المسلمون؟

التحرير

«من يتحدث باسم الإسلام؟».. كتاب قيم صدر عام ٢٠٠٧م بنسخته الإنجليزية، للمؤلفين: جون اسبوزيتو وداليا مجاهد. وبعدها بعامين تقريبا ظهرت ترجمته للدكتور عزت شعلان إلى العربية.. العنوان الفرعي للكتاب تساؤل أيضا يهم كل باحث في الدراسات الإسلامية، إذ يقول: كيف يفكر - حقا - مليار مسلم؟ اعتمد الكتاب في تحليلاته على نتائج أكبر استطلاع رأي عالمي آنذاك، أجراه مركز «جالوب» للدراسات الإسلامية، في ٣٥ دولة، بين عامي ٢٠٠١م و٢٠٠٧م، شمل عشرات الآلاف من المقابلات، وجها لوجه، مسحا كليا لعينة تمثل أكثر من ٩٠٪ من ١,٣ مليار مسلم في العالم. مما يجعل هذا العمل - على حد وصف اسبوزيتو - أكبر وأشمل دراسة للمسلمين المعاصرين أجريت حتى حينه. بل في التاريخ.

يقول المفكر فهمي هويدي، والذي قدم للترجمة العربية الصادرة عن دار الشروق - القاهرة: هذا الكتاب يعد مفاجأة وصدمة للغربيين، وتعريفا للعرب والمسلمين بما يعرفون. مصدر المفاجأة والصدمة فيه أنه يمثل سباحة ضد التيار، وخروجا على المألوف، وتمردا على الصورة النمطية التي فرضت على العقل الغربي، وصنفت العرب والمسلمين بحسابهم كائنات شاذة وغريبة مسكونة بالتعصب والتطرف، ومهجوسة في ذات الوقت بكراهية الغرب، ومتطلعة الى الانقضاض عليه وإفنائه.

ويؤكد الدكتور عزت شعلان في مقدمة الترجمة أن من أهم ما أظهره الاستفتاء أهمية الإسلام عند الأغلبية الساحقة من المسلمين، وموقعه المركزي في الهوية الدينية والتاريخية والقومية والثقافية. ويعتبر المسلمون أن الدين قوة بالغة في التغيير السياسي والاجتماعي. كما يرون - مثل الأميركيين - أن يكون الدين مصدرا للتشريع، ولكن أغلب المسلمين لا يريدون حكومة ثيوقراطية، أي حكومة دينية يتولاها رجال الدين، ولا يرغبون كذلك في حكومة علمانية لا علاقة لها بالدين، ولعلهم يتطلعون إلى نموذج ثالث، يجمع بين المبادئ الدينية، والقيم المعاصرة القائمة على العدالة الاجتماعية.

في الفصل الأول، وتحت عنوان «أهمية الإيمان»، يتساءل الكتاب عن الدور الذي يؤديه الدين حقا في حياة المسلمين؟ ويجيبان: تبعا لاستفتاءات «جالوب» في عام ٢٠٠١م، وبين عامي ٢٠٠٥م و٢٠٠٧م، وفي بلاد تكون نسبة كبيرة من السكان أو أغلبهم من المسلمين، تقول الأغلبية في بلاد عديدة (وكثير منها يبلغ مدى ٩٠٪): إن الدين جزء مهم من حياتهم اليومية. وتعتبر نسبة كبيرة أن امتلاك حياة دينية أو روحية ثرية جانب أساسي في الحياة، لا يستطيع الإنسان أن يحيا من دونه. وعند السؤال عن أشد ما يدعو إلى الإعجاب بالعالم الإسلامي، كانت الاستجابة الأولى عند نسب مئوية مهمة من السكان، في بلاد شديدة التنوع، مثل تركيا والعربية السعودية وإندونيسيا هي: «الالتزام الصادق بالإسلام عند الناس».

ويستطرد المؤلفان: يعتبر الكثيرون الدين مؤشرا أوليا على الهوية، ومصدرا للمعنى والإرشاد والعزاء والمجتمع، وعاملا أساسيا في تقدمهم. وترغب الأغلبية من الرجال والنساء جميعا، في كثير من البلاد التي تغلب عليها نسبة المسلمين، أن ترى المبادئ الإسلامية - وهي الشريعة - مصدرا للتشريع. وعند هؤلاء المستجيبين للاستفتاء كثير من الأمور المشتركة مع أغلب الأميركيين الذين يرغبون في رؤية الإنجيل مصدرا للتشريع. وتؤكد كلتا الجماعتين أهمية القيم العائلية، وتهتمان اهتماما عميقا بأمور الأخلاق الاجتماعية. والواقع أن

المستجيبين في العالم الإسلامي، وعددا كبيرا من الأميركيين يقولون: إن أقل ما يعجبون به في الحضارة الغربية هو الحرية المفرطة في المجتمع.

ويوضح الكتاب أن الإسلام عند أتباعه الملتزمين ليس مثلما قد يبدو أمام المراقبين من الخارج صفحة مقيدة من القواعد والعقوبات، إذ هو عند كثير من المسلمين خارطة عقلية روحية، تقدم إحساسا بالمعنى والإرشاد والهدف والأمل. وتقول الأغلبية الكبرى من المقيمين في البلاد التي يكون أغلبها من المسلمين: إن حياتهم ذات هدف مهم (٩٠٪ من المصريين، و٩١٪ من السعوديين).

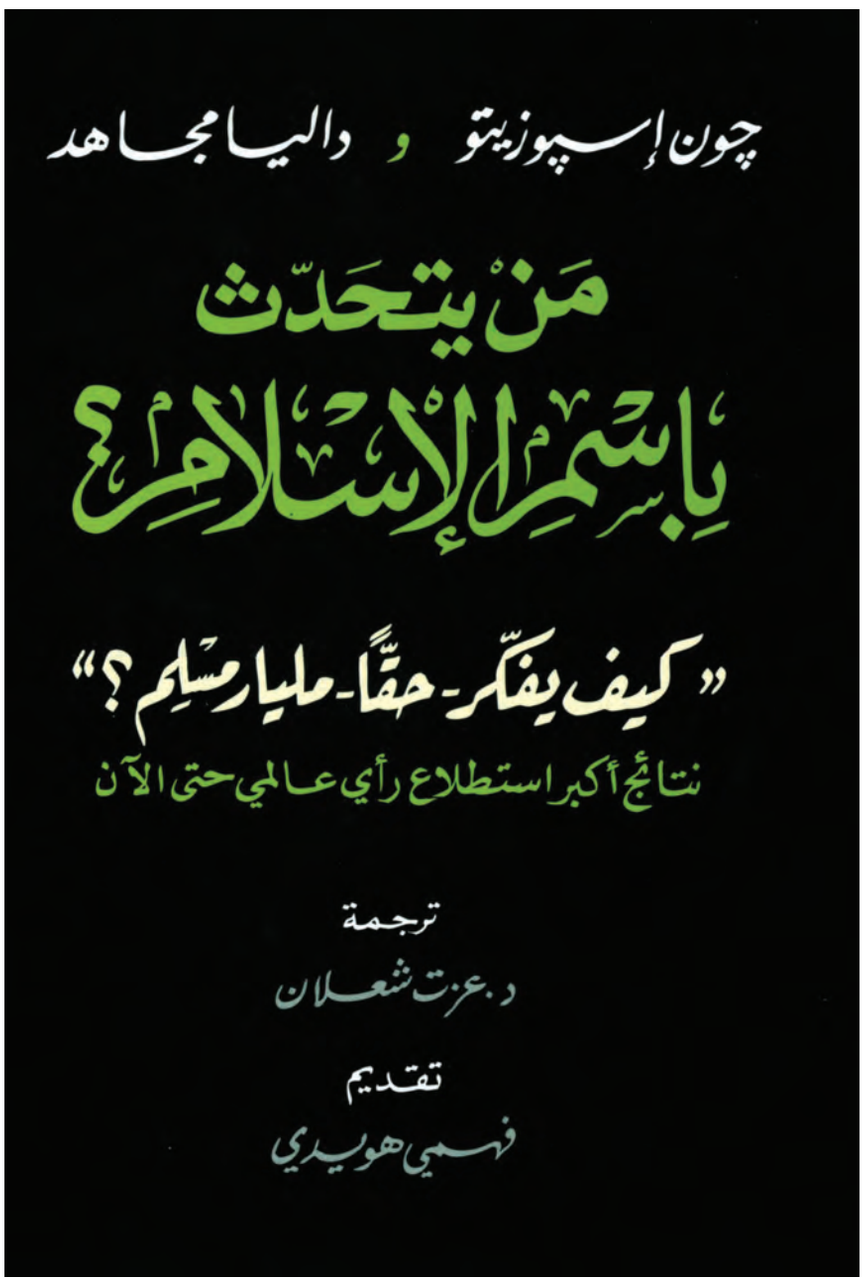

تقاليد وعادات

إن أهمية الدين يدعمها ما يقوله المسلمون عن تقاليدهم وعاداتهم، وهي مازالت كذلك تلعب دورا مركزيا في حياتهم. وعند سؤالهم: هل هناك تقاليد وعادات مهمة بالنسبة لكم أم لا؟ قالت الأغلبية في كثير من البلاد التي تغلب نسبة المسلمين على سكانها فيها: نعم، الأردن (٩٦٪)، والعربية السعودية (٩٥٪)، وتركيا (٩٠٪)، ومصر (٨٧٪). يتعارض هذا بصورة حادة مع أولئك الذين أجابوا بـ«نعم» للسؤال نفسه في الولايات المتحدة (٥٤٪)، والبلاد الأوروبية بصفة خاصة، مثل: المملكة المتحدة (٣٦٪)، وفرنسا (٢٠٪)، وبلجيكا (٢٣٪).

إله واحد

لم يكن المسلم الأول هو النبي محمد عليه السلام، ولكنه آدم، أول إنسان ونبي من الله. كما يؤكد الإسلام أن الله أرسل الرسل والأنبياء إلى جميع الأمم:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ (فاطر: ٢٤)، وهم جميعا قد علموا الرسالة الأساسية نفسها، وهي الإيمان بإله واحد متفرد، والمعتقد أن الأنبياء جميعا على هذا الاعتبار «مسلمون».

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ (آل عمران: ٨٤).

تعددت أسبابه.. والنهاية مأساوية..

الإلحاد الخفي

عبدالله الشريف ومحمد عبدالعزيز
دار الإعلام العربية - القاهرة

- د. أبو كريشة: حرمته ثابتة، وتقوية الوازع الديني يحصن الشباب من الوقوع في هذه الكبيرة
- د. شومان: ضعف العقيدة وتزايد المشكلات الاجتماعية والاقتصادية أدى إلى فقدان الأمل
- د. إنشاد: ليست ظاهرة.. لكن على الجميع التصدي لها بداية من الأسرة وحتى الحكومة
- د. ثريا: لا يمكن الجزم بالأسباب الحقيقية دون الخضوع لدراسة منهجية
- د. بحري: تسليط الإعلام على حالات الانتحار يغري البعض بالإقدام عليه للفت الأنظار

دق علماء الإسلام ومختصون في علمي النفس والاجتماع ناقوس الخطر بسبب تزايد حالات الانتحار في المجتمعات العربية، لا سيما في أوساط الشباب، واعتبروا أن هذه الحالات باتت تقترب من حد الظاهرة، واعتبروها شرخا في جدار المجتمع وعقيدة أفراده، وشددوا على ضرورة تنمية الوازع الديني، للتصدي لهذه الحالات، وكذا العمل على حل مسبباتها التي تتمحور غالبيتها حول الظروف الاقتصادية وانعكاساتها النفسية.

نبدأ مع د. طه أبوكريشة، عضو مجمع البحوث الإسلامية، وعضو هيئة كبار علماء الأزهر، الذي شدد على أن قتل الإنسان لنفسه حرام حرمة ثابتة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ففي القرآن الكريم يقول الله عزوجل في نهي صريح: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء:٢٩-٣٠). وفي السنة النبوية المطهرة نرى كذلك نهيا زاجرا عن قتل الإنسان نفسه، قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم، وعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع، فأخذ سكينا فحز بها يده، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة» (رواه البخاري ومسلم).

حصنوا أبناءكم

وأضاف أبوكريشة: إنه إذا أردنا أن نحد من هذه الحالات التي باتت تقترب من حد الظاهرة في مجتمعاتنا، فعلينا أن نحصن أبناءنا من النوازع والضغوط النفسية السلبية التي تؤدي إلى فعل هذا الأمر المحرم، وذلك بتقوية الوازع الديني والتوعية في مدارسنا ومساجدنا ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وفي الوقت نفسه فإن على علماء الاجتماع والنفس وعلماء الدين أن يبحثوا عن الأسباب التي تؤدي إلى هذا التجاوز الديني الخطير.

كما أشار إلى ضرورة تقديم اقتراحات ووسائل علاج عملية ومنطقية لهذه الظاهرة، معتبرا أن هذا الأمر واجب على الدولة في المقام الأول، فيجب عليها إيجاد فرص العمل لمن لا يجدون عملا، وتوفير العلاج اللازم للمرضى، سواء نفسيا أو جسديا حتى لا يستبد بهم اليأس والقنوط، ويقدموا على الانتحار.

وأوضح أن الابتعاد عن صحيح الدين من الأسباب المهمة لعدم الاكتراث بالإقدام على قتل النفس، فغياب الدين يترك آثاره في النفوس، ويحطم القلوب ويورث القنوط من رحمة الله، فيؤدي ذلك إلى مشاعر نفسية سيئة، تؤثر على عقول ضعاف الإيمان خاصة من فئة الشباب.

وتابع: يجب أن نقوي علاقة الإنسان بخالقه عز وجل، حتى يكون ذلك حصنا يلوذ به كل من يمر بضائقة حياتية، ومن المؤكد أننا إذا صنعنا ذلك فسيعيد الإنسان التفكير ألف مرة قبل أن يقوده الشيطان للتفكير في الوقوع في هذه الكبيرة التي تعد من أكبر الكبائر عند الله عز وجل.

فقدان الأمل

أما د. عباس شومان، وكيل الأزهر الشريف، فيرى أن تزايد حالات الانتحار، خاصة في المجتمعات العربية ليس بظاهرة، وأنه انتشر خلال القرون السابقة في المجتمعات غير الإسلامية، بينما انتقل إلى المجتمعات العربية والإسلامية مع الانفتاح الإعلامي، خلال العقود الأخيرة، مشيرا إلى أنه لا يملك إحصاءات تفيد بارتفاع معدلات الانتحار، لكنه أكد أن تركيز وسائل الإعلام على نشر

٨٠٠ ألف محاولة انتحار سنويا

كشف تقرير لمنظمة الصحة العالمية أن شخصا واحدا يقدم على الانتحار حول العالم كل ٤٠ ثانية، ليصل مجموع محاولات الانتحار سنويا إلى ٨٠٠ ألف.

وذكر التقرير أن الانتحار يحصد أرواح أشخاص أكثر من النزاعات العسكرية والكوارث الطبيعية.

وهذه هي المرة الأولى التي تصدر فيها المنظمة الدولية تقريرا كهذا، إذ قامت بتحليل بيانات أشخاص أقدموا على الانتحار من ١٧٢ دولة، لمدة عشر سنوات.

وحول هذه الظاهرة، قالت المنظمة: إن الانتحار مشكلة صحية ونفسية لا علاج لها، وأكدت عجز الهيئات الصحية العالمية عن مناقشتها، وإيجاد حل لها، مؤكدة ضرورة خفض الانتحار حول العالم بنسبة ١٠ في المائة بحلول عام ٢٠٢٠.

ومن أبرز ما ورد في التقرير ارتفاع نسبة الانتحار بين الذكور مقارنة بالإناث، كما أنها ترتفع في الدول الغنية أكثر من الدول الفقيرة.

وذكر التقرير أن استخدام المبيدات الحشرية هو الوسيلة الأبرز للانتحار، خصوصا في المناطق النائية، لذا تعهدت الحكومات بتطبيق خطط وطنية صارمة لمواجهة هذه الظاهرة، ووقف محاولات الانتحار.

أخبار حالات الانتحار بكثافة، أغرى بعض ضعاف الإيمان إلى الانسياق وراءها، والتخلص من نفسه عند أول ضائقة نفسية أو مادية أو عاطفية تصادفهم.

وأوضح شومان أن ضعف العقيدة وتزايد المشكلات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية أدى إلى فقدان الأمل، ودفع بالبعض إلى إيثار التخلص من مشكلاتهم بالانتحار، مشددا في هذا الصدد على ضرورة التوعية الصحيحة بمبادئ الإسلام التي تحرم قتل النفس.

وتابع: إن الإسلام وفقا للقاعدة الشرعية العامة الداعية إلى حفظ النفس، حرم الانتحار تحريما قطعيا، لأي سبب كان، وأنه ليس من حق الإنسان أن يزهق روحه كتعبير عن ضيق أو احتجاج أو غضب.. مؤكدا أن الانتحار من كبائر الذنوب، وقد بين النبي ﷺ أن المنتحر يعاقب بمثل ما قتل به نفسه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسم، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل، فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا».

وأضاف شومان أنه مثلما تقع مسؤولية على علماء الإسلام والدين عامة بتقوية الوازع الديني، وتوضيح حرمة الإقدام على قتل النفس، فإن علماء النفس والاجتماع أيضا يقع على عاتقهم دور محوري في دراسة المشكلات الاجتماعية والنفسية المؤدية إلى الانتحار، وكذا ضرورة الوصول إلى حلول عملية لهذه المشكلات، والتي قد تخفى عن علماء الدين.

كما طالب المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية بالقيام بدورها في التصدي لهذه المشكلة، وتربية النشء وتهيئتهم على الإقبال على إعمار القلب والأرض، رغم أي تحديات وعقبات قد تصادفهم.

ليست ظاهرة

على مستوى علم الاجتماع، ترى د. إنشاد عز الدين، أن الانتحار في المجتمعات العربية مازال في إطار الحالات الفردية، ولا يشكل ظاهرة عامة، موضحة أن قتل النفس موجود منذ الأزل، وله أسبابه وظروفه التي تختلف من شخص إلى آخر.

وأضافت: إن الظاهرة حتى يطلق عليها ظاهرة، لابد من توافر عدة مقاييس، أهمها توافر نسبة مئوية واضحة تقارن بالعدد الأصلي للسكان، إضافة إلى تنفيذ مقياس الشريحة الطبقية فيما يخص الأعمار المطبق عليهم نفس الحالة، ومقياس الزمن والفترة، وعلى سبيل المثال إذا وجدنا أنه بمعدل يومي أو أسبوعي ينتحر لدينا عدد معين واضح، يمثل نسبة واضحة من عدد السكان، هنا يمكن القول: إننا أمام ظاهرة لابد من دراستها.

وتابعت: المجتمعات العربية لديها التزامات دينية وعادات وتقاليد، لا تسمح بانتشار فكرة الانتحار، وهذه الالتزامات لا تقتصر على ديانة واحدة، لكنها مرفوضة من جميع الديانات.

واستشهدت بواقعة انتحار شاب على عمود لوحة إعلانات في أحد شوارع القاهرة، قائلة: «لا تحدث مثل هذه الحالات بصورة مستمرة، إنما هي حالات متباعدة زمنيا، ولا

إحصائية مصرية: ٢٣٥٥ حالة انتحار خلال العام الماضي

كشفت إحصائية صادرة عن المركز القومي المصري للسموم التابع لجامعة القاهرة عن تزايد أعداد الشباب المصريين المنتحرين، حيث سجل المركز وقوع ٢٣٥٥ حالة انتحار خلال العام الماضي، خاصة بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٢ و٢٣ عاما، طبقا للإحصاءات الرسمية، بسبب ضائقات مادية، أو حالات نفسية.

كما رصد د. ياسر ثابت في كتابه: «شهقة اليائسين» ظاهرة الانتحار في مصر والوطن العربي، وأكد أن الفئة العمرية الأكثر إقبالا على الانتحار في مصر هي ما بين ١٥ و٢٥ عاما، حيث تبلغ نسبتهم ٦٦,٦ في المئة من إجمالي عدد المنتحرين في كل الفئات. تأتي بعد ذلك نسبة المنتحرين من المرحلة العمرية ما بين ٢٥ و٤٠ عاما، حيث تمثل النسبة الأكبر لانتحار الرجال. ومعظم حالات انتحار الرجال في هذه المرحلة العمرية ترجع إلى الظروف الاقتصادية، وعدم القدرة على الإنفاق على الأسرة.

المرتبة الثالثة في إحصائية المنتحرين جاءت ممثلة في الفئة العمرية من ٧ إلى ١٥ عاما. وكانت البنات المنتحرات في هذه المرحلة ثلاثة أمثال الأولاد. وبلغت نسبة هؤلاء الأطفال المنتحرين ٥,٢١ في المئة من إجمالي المنتحرين في مصر.

أما عن طرق الانتحار، فتختلف بين النساء والرجال، إذ إن ٩٠ في المئة من النساء يستخدمن في انتحارهن الأقراص المنومة، أو سم الفئران، أو إلقاء أنفسهن من أماكن شاهقة، أو في النيل، بالإضافة إلى لجوئهن إلى حرق أنفسهن.

أما الرجال فينتحرون عادة بالشنق، أو قطع شرايين اليد، أو إطلاق النار على أنفسهم أو الحرق.

يمكن وصفها بأنها جماعية، وهذا لا يعني التقليل من خطورتها، أو التقاعس عن علاجها، بل يجب على الجميع بداية من الأسرة وحتى الحكومة التصدي لهذه الحالات، بحل الأسباب المؤدية إلى قتل النفس.

تفكك اجتماعي

بينما ترى د. ثريا عبدالجواد، أستاذ علم الاجتماع، أن العنف تزايد في بعض المجتمعات العربية، خلال السنوات الأخيرة، كما تزايدت الاضطرابات النفسية نتيجة تفاقم المشكلات الاقتصادية والأسرية، ولكن لا يمكن الجزم بأن هناك دراسات موثوقة أكدت زيادة معدلات الانتحار للحد الذي وصفه بالظاهرة، بل يمكن القول: إن هناك تزايدا في معدل حالات الانتحار الفردية.

وأضافت: إنه في كل حالات التطور والتحول الاجتماعي تصاب المجتمعات بنوع من التفكك الاجتماعي، يمكن أن ينجم عنه هذه الحالات، ومن هذا المنطلق لا يمكن الجزم بأن حالات الانتحار التي وقعت في بعض البلدان العربية خلال الفترة الأخيرة ناجمة عن ظروف سياسية فقط، أو اجتماعية فقط، لكن هناك أكثر من سبب يؤدي إلى ذلك، ولا يمكن الجزم بالأسباب الحقيقية، دون الخضوع لدراسة منهجية.

وحذرت من أن وسائل الإعلام هي من ضخمت حالات الانتحار، حتى صنعت منها ظاهرة عامة، ومحاولة استغلال ذلك لتحقيق مكاسب خاصة.

أما على مستوى علم النفس، فأكد د. هشام بحري، أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر، أن الانتحار يعتبر من حالات العنف الخطيرة التي تصيب المجتمعات، فعندما يغضب الإنسان من شخص قد يلجأ للاعتداء عليه بعد تفكير طويل، لكن في حالة المنتحر، فغضبه ينفث عنه في جسده ونفسه، فيقطع شرايين يده أو يلقي بنفسه من مرتفع، أو يحرق أو يشنق نفسه.

وشدد على ضرورة إعادة مفهوم قيمة الحياة لدى الإنسان، بالإضافة إلى قيمة الخوف من الله، وعدم التجرؤ على معصيته، مشيرا إلى أن الانتحار حتى الآن لا يمكن وصفه بالظاهرة في المجتمعات العربية، لكن ما يمكن الجزم به أن هناك زيادة في معدلاته نتيجة أسباب متباينة، ومنها التسليط الإعلامي على حالات الانتحار والتي تغري البعض بالإقدام عليه ربما بدافع لفت الأنظار.

وأوضح أن قرار الانتحار صعب جدا، ولا يمكن أن نقول: إن أعداد الإناث أو الذكور أكثر اتخاذا للقرار، لكن يمكن القول بأن الإناث أكثر عرضة للضغوط النفسية والاكتئاب والضيق، لأنهن يتعرضن لأكثر من جهة ضغط.

وأشار إلى أن فقدان الأمل في المستقبل، وانتشار العنف والاستهانة بالدم من الأسباب التي ضاعفت نسب الانتحار.

وطالب المجتمع بكل مؤسساته بالعمل على احتواء مصادر الضغط على الشباب والحد منها، بالإضافة إلى زرع ثقافة الذهاب إلى الطبيب النفسي عند التعرض لأزمة يصعب على الإنسان تجاوزها بمفرده.

حوار بيني وبين ملحد

الشيخ محمد الغزالي

دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسي، وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبته من إفك، وأدفع بالحجة الساطعة ما يورد من شبهات..

قال: إذا كان الله قد خلق العالم، فمن خلق الله؟ قلت له: كأنك بهذا السؤال، أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لابد لكل شيء من خالق!!

قال: لا تلفني في متاهات، أجب عن سؤالي؟ قلت له: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أي إن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلا، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذي خلق العالم ليس لوجوده أول؟ إنها قضية واحدة، فلم تصدق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلها ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذي تسير عليه..!

قال: إننا نعيش في هذا العالم ونحس وجوده، فلا نستطيع أن ننكره..!

قلت له: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا في طريق رهيب، فتساؤلنا ليس في وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها؟ أم يسيرها قائد بصير..!!

ومن ثم فإنني أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنت أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنا أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها. فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين.

قال: تعني أن الافتراض العقلي واحد بالنسبة إلى الفريقين..؟

قلت: إنني أسترسل معك، لأكتشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب، أما الافتراض العقلي فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إنني- أنا وأنت - ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندسا أقامه، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت في مواضعها، وتهيأت لساكنيها من تلقاء أنفسها...

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أنني وجدت قمرا صناعيا يدور في الفضاء، فقلت أنت: انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه. وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر.

إن الافتراض العقلي ليس سواء، إنه بالنسبة إلي الحق الذي لا محيص عنه، وبالنسبة إليك الباطل الذي لاشك فيه، وإن كان كفار عصرنا مهرة في شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة، في الوقت الذي يصفون أنفسهم بالذكاء والتقدم والعبقرية.

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلا نستطيع به

البحث والحكم، وبهذا العقل ننظر، ونستنتج، ونناقش، ونعتقد..

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبي، كما نرفض الدعاوى الفارغة.

وإذا كان الناس يهزأون بالرجعيين عبيد الماضي، ويتندرون بتحجرهم الفكري، فلا عليهم أن يهزأوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل، ويدوسون منطق العلم باسم العلم، وهم للأسف جمهرة الملاحدة.

لكننا - نحن المسلمين - نبني إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جولان الفكر الإنساني في نواحي الكون كله.

في صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم وجدت تنويها بوظيفة العقل، اتخذ ثلاث صور متتابعة في سلم الصعود.

هذه السورة هي سورة الزمر، وأول سورة تطالعك هي إعلاء شأن العلم، والغض من أقدار الجاهلين: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر:٩).

ثم تجيء الصورة الثانية، لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتة، أو عادة حاكمة، بل هو إنسان يزن ما يعرض عليه، ويتخير الأوثق والأزكى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ (الزمر:١٧- ١٨).

ثم يطرد ذكر أولي الألباب للمرة الثالثة، في ذات السياق، على أنهم أهل النظر في ملكوت الله، الذين يدرسون قصة الحياة في مجاليها المختلفة، لينتقلوا من المخلوق إلى الخالق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ (الزمر:٢١).

وظاهر من الصور الثلاث في تلك الصفحة من الوحي الخاتم أن الإيمان مبتوت الصلة بالتقليد الأعمى، أو النظر القاصر، أو الفكر البليد.

إنه يلحظ إبداع الخالق في الزروع والزهور والثمار، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة، توزعت على أوراق وأكمام، حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد ذلك كله، ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى زرعا جديد الجمال والمذاق، تهتز به الحقول والحدائق، من صنع ذلك كله؟

قال صاحبي - وكأنه سكران يهذي - الأرض صنعت ذلك!

قلت: الأرض أمرت السحاب أن يهمي، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن يختزن الكربون؟

قال: أقصد الطبيعة كلها في الأرض والسماء!

قلت: إن طبق الأرز في غذائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر في هذا الخلق؟ ومن المسؤول عن جعل التفاح حلوا، والفلفل حريفا؟ أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال: لا أعرف، ولا قيمة لهذه المعرفة!

قلت: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر، ومشيئة تصنف؟

فأين ترى العقل الذي أنشأ، والإرادة التي نوعت، في أكوام السباخ، أو في حزم الأشعة؟

قال: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء، ولا نعرف الأصل، ولا التفاصيل!

قلت له: أشرح لكم ما تقولون!

تقولون: إنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب في أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة، وكثرة التلاقي سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية في شكلها البدائي، ثم شرعت تتكاثر وتنمو، حتى بلغت ما نرى!

هذا هو الجهل الذي أسميتموه علما، ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به! أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائيا، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة في فرصة سنحت ولن تعود! وذلك كله فرار من الإيمان بالله الكبير!

قال- وهو ساخط - أفلو كان هناك إله كما نقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسي والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء، وضيقا يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالا يمرضون ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين... الخ.

قلت: لقد صدق فيكم ظني، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية، أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة! ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون، وفق ما يصيبهم من عسر ويسر ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج:١١).

قال: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا، أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة، ثم نصدر حكمنا الذي ترفضه.

قلت: آفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا، ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكي يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه، لابد أن يبتلى بما يصقل معدنه، ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح

المؤمنون في التغلب على العقبات التي ملأت طريقهم، وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء، فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة، ليقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (الزخرف:٦٨).

قال: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قلت: إن المرء يسهر الليالي في تحصيل العلم، ويتصبب جبينه عرقا، ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب، وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد في الحياة القصيرة التي نحياها على ظهر الأرض، فأي غرابة أن يكون ذلك هو المهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال: مستهزئا - أهذه فلسفتكم في تسويغ المآسي التي تخالط حياة الخلق، وتصبير الجماهير عليها؟

قلت: سأعلمك بتفصيل أوضح حقيقة ما تشكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا على حره، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد: «تكافل بين أجزاء الوجود، فلا معنى للشجاعة بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها، وترجح عليها.. وقد يطّرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة، كما يطرد في فضائلنا النفسية، ومطالبنا العقلية، إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري، ما لم نشعر قبله بلهفة الظمآن، ولا يطيب لنا منظر جميل، ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح».

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة، ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان مما لا يكترث به آخر، ولله في خلقه شؤون، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التي لا ريب فيها.. إلا أن هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد: «لا تحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة، قبل استيعاب وجود العدل في تصريف الإرادة الإلهية، إن البقعة السوداء في الصورة الجميلة وصمة قبيحة إذا حجبنا الصورة، ونظرنا إلى تلك البقعة بمعزل عنها، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لونا من ألوانها التي لا غنى عنها، أو التي تضيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها، ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يصيبنا، ثم نعود فنضحك ونغتبط بما كسبناه منه بعد فواته».

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي يتعرض لها الخلق.. أما القسم الثاني من الشرور التي نشكو منها يا صاحبي، فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مستنكرا: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى! فكيف تتهمنا؟

قلت: أنتم مسؤولون، فإن الله وضع للعالم نظاما جيدا، يكفل له سعادته، ويجعل قويه عونا لضعيفه، وغنيه برا بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء، واقتراف المظالم واعتداء الحدود، ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل:٩٧).

فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جل شأنه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾ (الشورى:٣٠).

إن الصدّيق رضي الله عنه جرد جيشا لقتال مانعي الزكاة، وبهذا المسلك الراشد أقر الحقوق، وكبح الأثرة، ونفذ الإسلام. فإذا تولى غيره فلم يتأس به في صنيعه، كان الواجب على النقاد أن يلوموه، لا أن يلوموا الأقدار التي ملأت الحياة بالبؤس.

قال: ماذا تعني؟

قلت: أعني أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجرأتم على الله، واتهمتم دينه وفعله!

ومن خسة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض!

وبدلا من أن يقوم بواجبه في تغيير الفوضى، وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين!

إنكم معشر الماديين مرضى، تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج..

وعدت إلى نفسي بعد هذا الحوار الجاد أسألها: إن الأمراض توشك أن تتحول إلى وباء، فهل لدينا من يأسو الجراح، ويشفي السقام؟ أم أن الأزمة في الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟

● **المقال منشور في «الوعي الاسلامي» العدد ٩٩، ربيع الأول ١٣٩٣هـ - الموافق أبريل ١٩٧٣م.**

«ميليشيا الإلحاد»

كتاب يصف الداء والدواء

التحرير

الإلحاد هو المذهب الفلسفي الذي يقوم على فكرة عدمية، أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى، فيدعي الملحدون بأن الكون وجد بلا خالق. وقد عرفت موجة الإلحاد الجديد بهذا الاسم سنة ٢٠٠٦م في مقالة لجيري وولف، الكاتب الشهير. ولعل من أبرز الكتب التي تناولت هذا المذهب في أحدث تجلياته كتاب «ميليشيا الإلحاد» لعبدالله بن صالح العجيري، الباحث في قضايا الفكر المعاصر. وهذا الكتاب من أفضل الكتب المعاصرة التي تناولت النوازل العقدية المعاصرة.

ومن يطالع هذا الكتاب، الذي أصدره العام الماضي مركز تكوين، وفقا للكاتب أسامة شحادة على موقع الراصد، يجد أنه محاولة لتعريف الدعاة والمشايخ وطلبة العلم والمربين والمفكرين، بأهم التطورات التي لحقت بالخطاب الإلحادي في الأدبيات الفكرية والعقدية الغربية، كما يقول العجيري في المقدمة، كاشفا عن تحول الإلحاد من قضية فردية إلى تشكيل ميليشيات إلحادية فكرية منظمة على إثر أحداث ٩/١١ في أميركا، على اعتبار أن هذا الحادث كان الدين هو الدافع خلفه، وأنه حان الوقت لمحاربة الدين منبع الشرور، وعدم الاكتفاء بتخطئة الدين كحال الإلحاد القديم!

ويوضح العجيري في مؤلفه المهم أن الإلحاد الجديد قد تميز بالحماسة في الدعوة له بعدما كان الإلحاد شأنا ذاتيا. ومن مظاهر هذه الحماسة للدعوة للإلحاد تأليف سيل من الكتب الإلحادية، وتصدرها قوائم الكتب الأكثر مبيعا. ولم تنج كتب الأطفال من هذه الموجة، حيث كتبت عدة مؤلفات إلحادية للأطفال والمراهقين، وأيضا امتدت هذه الموجة إلى البرامج الفضائية والإذاعية، وحتى برامج رسوم الأطفال طالتها هذه الموجة، وتوج ذلك بظهور عدة مؤسسات للملحدين، ترعى هذه الدعوة، وتعمل على الدعاية لها من خلال اللوحات الإعلانية على الطرقات أو المنتجات المختلفة من الملابس والأدوات. كما يتميز الإلحاد الجديد بعدائية الخطاب، حتى قال أحدهم: «ذهبت أيام الإلحاد المؤدب»، وذلك باستخدام أبشع الصفات والنعوت تجاه المقدسات. وكذلك يربط الملحدون الجدد كل المشاكل والشرور في العالم بمتدينين كانوا وراءها، ومن ثم الخروج بقانون «كل الشرور دينية»، لدرجة أنهم اعتبروا الاتحاد السوفييتي متدينا، ولذلك كان متخلفا ثم انهار!

كما أصبح الإلحاد الجديد موضة، وأصبح لرموزه معجبون وعشاق يتابعون أخبارهم ويعلقون صورهم ويطلبون توقيعاتهم، مما جعل الحالة تكاد تصل إلى التقديس أو علاقة المريد بشيخه!

لكن كيف يمكن علاج ومكافحة الإلحاد؟ يؤكد العجيري على ضرورة تحري الصدق والعدل والموضوعية في تناول الإلحاد؛ حتى لا يكون هذا مدخلا للطعن على الإسلام، مع عدم تسطيح الظاهرة الإلحادية، وذلك بعدم فهم شبهة الملحد والإجابة بجواب ناقص.

كما يجب تجديد الخطاب العقدي لعلاج الإلحاد، لأن الإلحاد المعاصر تطور عن الإلحاد القديم، وأصبح يعتمد على ركائز جديدة، لا يصلح معها العلاج القديم، ولابد من الاستفادة من العلوم العصرية لإبطال شبه الملاحدة، وتقديم رؤى نقدية هجومية للإلحاد، وعدم الاكتفاء بالدفاع، لأن الإسلام والإيمان هما الحق، والإلحاد هو الباطل. وأخيرا، يجب تأصيل المنهج الشرعي للتعامل مع الشبه، حتى لا يقع الضرر ويتأثر المسلم بالشبهات بدلا من نقضها، وترسيخ الحضور القرآني في قضايانا الفكرية، وهو ملمح مهم يعطي المسلم قوة عقدية في طرحه.

واقع المكتبة الإسلامية

أوضح المؤلف القصور الكبير والملحوظ في التعاطي مع ملف الإلحاد، على الرغم من أهميته! كما أشاد بمن لهم جهود وإسهامات في الوقوف ضد الإلحاد وأفكاره من المؤسسات والأفراد، فمن الشخصيات التي ذكرها: الشيخ جعفر شيخ إدريس، والشيخ محمد العوضي. ومن المنتديات على الإنترنت التي اهتمت بهذا الأمر «منتدى التوحيد». كما ذكر أيضا أن هناك بعض المراكز الناشئة والمختصة في هذا المجال كـ «مركز براهين».

دراسة تجديدية موجزة في علم الكلام

وجود الله بين الإيمان والإلحاد

د. يحيى رضا جاد
باحث أكاديمي

هذا مقال استخلصناه بالكامل من مجموع الكتب المذكورة للأستاذ الكبير د. مصطفى محمود، أسكنه الله الفردوس الأعلى من الجنة: رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص (٢١، ٢٢، ٢٣، ٨٠، ١٠٥، ١١٠، ١١١). ولغز الحياة، ص (٥٤). والغد المشتعل، ص (١٧٥). والإسلام: ما هو؟، ص (٤٠، ٤١، ١٠٢، ١٠٩، ١١٠، ١١١). وعظماء الدنيا وعظماء الآخرة، ص (٩٦)، وحوار مع صديقي الملحد، ص (٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣٦). وكلها طبعة دار أخبار اليوم - القاهرة.
ولنجلس الآن في رحاب د. مصطفى محمود رحمه الله.

هناك وحدة في خامة الوجود ومادته الأولية التي بني منها كل شيء.. وحدة في النسيج والقوانين والسنن.. فكل صنوف الحياة من نبات وحيوان وإنسان بنيت من تواليف الكربون مع الهيدروجين والأكسجين، ولهذا تتحول إلى فحم بالاحتراق.. وكل صنوف الحياة تقوم على الخلية الواحدة ومضاعفاتها، إذ هي الوحدة التكوينية الأولى في الجميع، تتنفس وتتكاثر وتولد وتموت بنفس الطريقة، بل هي ذاتها - بنفس المواصفات - في كل شيء حي، مع تغير طفيف، لتناسب مهمة كل نوع.. والخطة التشريحية في الجميع واحدة. فالقلب هو دائما نفس القلب بغرفه الأربع، في الحوت كما في الفأر، كما في القرد، كما في الوطواط كما في الإنسان.. والدورة الدموية والشرايين لها نظائرها في كل نوع.. والجهاز العصبي هو نفسه في الكل.. والجهاز العضلي بعضلاته، خطته واحدة في الكل.. والهيكل العظمي بعظامه، عظمة عظمة، كل عظمة لها نظيرتها، مع اختلافات طفيفة في الشكل والحجم والعدد، لتلائم وظيفة وحجم ووزن كل حيوان.. والجهاز التناسلي هو نفسه في الجميع.. والجهازان الهضمي والبولي كذلك.

إن جميع صنوف الموجودات مردودة إلى خطة واحدة، وخامة واحدة، أي إلى (فتلة حريرية واحدة)، غزل منها الكون في تفصيلات وتصميمات وطرز مختلفة.. والخلاف بين صنف وصنف، وبين مخلوق ومخلوق، هو خلاف في العلاقات الكمية والكيفية، في المعادلات والشفرات التكوينية، لكن الخامة واحدة، والخطة واحدة.. وهذا هو سر الشعور بالصلة بين (الإنسان) و(الحيوان)، وبين (الوحش) و(مروضه)، وبين (الأنف الذي يشم) و(الزهرة العطرة)، وبين (العين)

و(منظر الغروب البديع).

والنتيجة الطبيعية التي تقفز إلى الذهن أن خالق جميع هذه اللوحات واحد. إذ الوحدة بين الموجودات تعني وحدة خالقها.. إن كل شيء في هذا الوجود، من الذرة إلى المجرة، ينطق بالهندسة المحكمة والتدبير البديع، ويشهد بأن الله حاضر لا يغيب ولا ينام ولا يغفل ولا يسهو.. ومن ثم، لا يظلم مثقال ذرة.

أما القول بأن كل هذا الاتساق والانسجام والنظام قد حدث صدفة أو اتفاقا، أو حدث بذاته، فهو السذاجة بعينها. كالقول بأن انفجارا في مطبعة قد أدى إلى أن تصطف حروفها على هيئة قاموس محكم!

ناموس الوجود

إننا نعلم بالبداهة والفطرة - اللتين ولدنا بهما - أن (العدل والنظام) هما (ناموس الوجود)، وأن (المسؤولية) هي (القاعدة).

ومن البديهي تماما أن نتصور - بناء على ما سبق - أن الظالم الذي أفلت من العقاب في الدنيا، وأن القاتل الذي أفلت من القصاص في الأرض، كلاهما - وأشباههما - لابد من محاسبته ومعاقبته، لأن الوجود الذي نعيش فيه يفصح عن النظام والانضباط من أصغر ذرة إلى أكبر فلك، والعبث غير موجود - إلا في عقولنا وأحكامنا المنحرفة-.

إن فكرة العدل والنظام وضرورتهما تقودنا إلى ضرورة وجود عالم آخر، يتم فيه العدل والنظام والمحاسبة بشكل عام كامل تام، بلا حيف ولا ظلم ولا محاباة.. نحن نموت في سبيل تحقيق العدل، وفي النهاية لا يتحقق أبدا ذلك العدل - المطلق التام الكامل - ، وهذا يعني أنه سوف يتحقق بصورة ما لاشك فيها، لأنه حقيقة مطلقة فرضت نفسها

على عقولنا وضمائرنا.. وإلا ما ضحى أحد في سبيله.. وإذا كان الظمأ إلى الماء يدل على وجود الماء، فكذلك الظمأ إلى العدل - أي المطلق الكامل التام - يدل - قطعا وحتما - على وجود العدل.. ولا عدل - بشكل تام كامل - في الدنيا، فذلك دليل - ولابد - على وجود (آخرة) يحاسبنا فيها (إله عادل).. يحاسبنا فيها (العدل) - جل في علاه - بـ (العدل).. ولو كانت حياتنا عبثا ونهايتها لا شيء - كما يتصور الملحدون - فلماذا نتحرق شوقا إلى الحق والعدل؟! ولماذا نفتدي هذه القيم بالدم والحياة؟! إنه لولا تيقن نفوسنا جميعا من تحقق تلك الأمور في الآخرة على يد إله عادل، لما أقدمنا على ما فعلناه أبدا. إن الحياة دون يقين بوجود (إله عادل) هي عبث صرف، بلا معنى، وبلا سند، وبلا رصيد.. وهي عذاب بلا حكمة، وألم بلا عوض، ومغامرة بلا عائد، ومشروع بلا ضمان ولا تأمين.

علم تجريبي

قد يقول قائل: إن النظرة العلمية (التجريبية) لا تعترف بوجود الله، إذ ليس من العلم الإيمان بالغيب.. إن مجال العلم هو المحسوس.. أرنا الله جهرة: نعترف به.

فأقول: كذبت.. إن نصف العلم (التجريبي) الآن قد أصبح غيبا.. فنحن نؤمن بالجاذبية، ولكن أحدا لا يعرف كنهها.. حتى نيوتن نفسه - مكتشف الجاذبية - يقول في خطاب إلى صديقه بنتلي: «إنه لأمر غير مفهوم أن تجد مادة لا حياة فيها، ولا إحساس، تؤثر في مادة أخرى وتجذبها، مع أنه لا توجد بينهما أية علاقة»..

فها هي حقيقة علمية نسلم بها جميعا، وهي غيب في غيب.. والإلكترون، والموجات اللاسلكية، والذرة، والنيوترون: كلها أمور - وغيرها كثير - لم نر منها شيئا، ومع ذلك نؤمن بوجودها، اكتفاء بآثارها، ونقيم عليها علوما متخصصة، ونبني لها المعامل والمختبرات والأجهزة، وهي غيب في غيب بالنسبة لحواسنا.. أفي ذلك شك؟!

فأولى بنا أن نؤمن بالغيب وعالَمه، وعالِمه الله جل جلاله الذي نرى آثاره في كل لمحة عين، وكل خفقة قلب، وكل لحظة تأمل في الوجود.

سؤال فاسد

قد يقول قائل: أنتم تقولون: إن الله موجود، وعمدة براهينكم هو قانون السببية الذي ينص على أن لكل صنعة صانعا، وأن لكل خلق خالقا، وأن لكل موجود موجدا. النسيج يدل على النساج، والرسم على الرسام، والنقش على النقاش، والكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الإله القدير الذي خلقه.. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل: ومن خلق الخالق؟! ألا يقودنا نفس استدلالكم إلى هذا تبعا لقانون السببية؟!

فأقول: سؤالك فاسد، فأنت تسلم بأن الله خالق، ثم تقول: من خلقه؟! فتجعل منه خالقا ومخلوقا في نفس الأمر.. هذا منتهى التناقض!

والوجه الآخر لفساد السؤال: أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته.. وهذا خلل منطقي. إذ السببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان، أما الله الذي خلق الزمان والمكان فهو بالضرورة فوق الزمان والمكان، ولا يصح أن نتصوره مقيدا بالزمان أو المكان، ولا بقوانينهما..

وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التي تتحرك بزمبلك، وتتصور أن الإنسان الذي صنعها لابد أنه هو الآخر يتحرك بزمبلك.. فإذا قلنا لها: بل هو يتحرك من تلقاء نفسه (أي بإقدار الله له على ذلك)، قالت: مستحيل أن يتحرك شيء من تلقاء نفسه! إني أرى في عالمي كل شيء يتحرك بزمبلك!..

وأنت بالمثل: لا تتصور أن الله موجود بذاته دون موجد، لمجرد أنك ترى كل شيء حولك في حاجة إلى موجد.

بل إن لي أن أقول (في لمحة): إن سؤال «من خلق الخالق؟» سؤال فاسد، لأن الله لا يحتاج إلى دليل، بل إنه سبحانه هو الدليل الذي يستدل به على كل شيء؛ فهو الجوهر الذي ندرك به اختلاف الظواهر، وهو الحقيقة التي نكشف بها الباطل، وهو البرهان الذي ندرك به حكمة عالمنا الزائل.. إن العقل الذي يطلب برهانا على وجود الله هو عقل فقد التعقل، إذ النور هو الذي يكشف لنا الأشياء، ويدلنا عليها، ولا يمكن - بحال من الأحوال - أن تكون الأشياء هي دليلنا على النور، وإلا نكون قد قلبنا الأوضاع، لأن الله حقيقة فطرية لا تحتمل الجدل، بله التكذيب.. ولهذا كانت حقيقة مطلقة تقبلها العقول السوية التي لم تفسدها لفلفات السفسطة، والقلوب البكر التي لم تفقد عذريتها، والفطر السليمة التي لم تخدش نقاوتها.

الربوبية

قد يسأل سائل مستنكرا: أليس عجيبا ربكم ذلك الذي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، فيأخذ بناصية الدابة، ويوحي إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلا أحصاها عددا، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وإذا سقطت ذبابة في طعام فهو الذي أسقطها! وإذا امتنع المطر فهو الذي أمسكه، وإذا هطل فهو الذي أهطله.. إنكم لتشغلون إلهكم بالكثير التافه من الأمور!

فأقول: أيكون الرب في نظرك أجدر بالربوبية لو أنه (أعفى نفسه من هذه المسؤوليات)، و(أخذ إجازة) و(أدار ظهره للكون) الذي خلقه، وتركه يخبط خبط عشواء! هل الرب الجليل

في نظرك هو رب (عاطل) (مغمى عليه): لا يسمع ولا يرى ولا يستجيب، ولا يعتني بمخلوقاته؟!

ثم من أين لك بأن موضوعا ما تافها لا يستحق عناية الله ولا رعايته، وأن آخر مهم خطير الشأن؟! هل تظن نفسك (وصيا على الله) تحدد له اختصاصاته.. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ثم إن الذبابة التي تبدو تافهة في نظرك يمكن أن تغير التاريخ بسقوطها التافه ذلك. إنها يمكن أن تنقل الكوليرا إلى جيش بأكمله، فترجح طرفا على طرف في معركة تتغير بعدها موازين التاريخ كله.. إن أتفه المقدمات يمكن أن تؤدي إلى أخطر النتائج، كما أن أخطر المقدمات يمكن أن ينتهي إلى لا شيء.. وعالم الغيب وحده هو الذي يعلم قيمة كل شيء.

إن الإله الجدير بالألوهية حقا هو الإله الذي يحيط بكل شيء علما، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو الإله السميع المجيب المعتني بمخلوقاته.

شواهد

وقد يسأل سائل: لم لا يباشر الله جميع الشؤون بذاته، مادام بيده مقاليد كل شيء، ومادام يرجع إليه الأمر كله؟! لماذا لا يفعل بذاته دون وسائط؟!

فأقول: إن الأسباب سنة الله في خلقه.. حيث شاء الله بكرمه أن يتجلى باسمه الشافي على الطبيب ليعالج مرضاه، وباسمه العليم على المعلم ليوسع أفق تلاميذه، وباسمه البديع على الفنان ليمتع الناس، وباسمه الرزاق على التاجر ليوفر للناس احتياجاتهم، وباسمه القوي على حملة العرش تكريما لهم.. فتلك كلها - ومثلها كثير - (شواهد تكرم منه علينا) لا (شواهد حاجة إلينا).

ثم إنه سبحانه إذا أراد أن يعالج الجبل - مثلا - سلط عليه وسائط مادية - كالرياح والأمطار والسيول والإنسان - مثله لتشكيله ونحت الكهوف والسدود فيه (٨).

والأنبياء بحكم طبيعتهم البشرية، لا يحتملون أنوار الذات الإلهية، ولا يطيقون حضرتها - تذكر حال الجبل الذي أصبح دكا، وحال موسى الذي خر صعقا - فاستدعى التواصل بين الطبيعتين البشرية والإلهية اتخاذ البرازخ، فكان جبريل هو البرزخ والوسيط بين الله وجميع أنبيائه.

وكذلك محمد ﷺ، فهو بابنا إلى الفهم عن الله، لأنا بحكم طبيعتنا لسنا مؤهلين لتلقي وحي السماء.

وكذلك استدعى التواصل بين طبيعة الخالق وطبيعة المخلوقات اتخاذ البرازخ، فكانت الوسائط المادية - التي هي من جنس المخلوق مخلوقة مثله -، حتى يتحمل المخلوق معالجة الخالق له.

إن الوسائط والبرازخ من سننه في كونه - مثلما الأسباب -، لتفاوت مقامات (الألوهية) و(البشرية)، و(الخالقية) و(المخلوقية).

إقرار

وفي الختام أتساءل متعجبا غاية العجب: إذا كان الواحد منا مؤمنا بوجود الله، وبأنه أحد لا سواه، وبأنه هو الضار النافع لا غيره، فلماذا يمد اليد إلى غيره متزلفا متملقا منافقا؟!

ولماذا يكدس المال والعقار إن كان يعلم حقا أن الله هو المالك للأرض وما عليها، وهو الوارث للجميع؟! ولماذا يكذب والله سميع؟! ولماذا ينافق والله حسيب؟! ولماذا يسرق والله بصير؟! ولماذا يخون والله رقيب؟! ولماذا يتخفى والله شهيد؟!

إن الإقرار بوجود الله: (عمل) لا مجرد (تمتمة) و(حمحمة).. اللهم بلغت.. اللهم فاشهد!

عدنان النحوي رحمه الله في موكب النور

عبدالعزيز بن صالح العسكر
كاتب سعودي

كانت بلدة صفد في فلسطين نقطة انطلاق لشاعرنا، فعلى أرضها ولد، وفي قلعتها تربى، وبين بساتينها الوارفة نشأ من أسرة كريمة تنتسب إلى عالم جليل اشتهر بين الناس بصفته العلمية وعرف بالنحوي.

تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في صفد، وحصل على دبلوم دار المعلمين عام ١٩٤٨م من الكلية العربية في بيت المقدس، وبعد نكبة عام ١٩٤٨م هجر هو وأهله وأبناء بلده فاستقر به المقام في دمشق، فعمل في التدريس فيها خمس سنوات، ثم انتقل إلى القاهرة ودرس الهندسة في جامعة القاهرة وحصل على شهادتها سنة ١٩٦١م، ثم حصل على الماجستير، ثم الدكتوراه في مجال الاتصالات الكهربائية من أميركا عام ١٩٨٥م.

والناظر في تخصص الدكتور عدنان الدراسي يجده بعيدا كل البعد عن الأدب؛ وأنا أجزم أنه لا رابط بين الهندسة وبين الأدب، وبخاصة الشعر!

لكن الأمر عند شاعرنا، كما وصفه الدكتور محمد مصطفى هدارة رحمه الله في قوله في مقدمة ديوان: «الأرض المباركة» للنحوي، الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م: «وما من شك في أن عدنان نشأ مفطورا على الشعر، ولم يبعد عنه لحظة واحدة في كل أدوار حياته، حتى عندما اتجه إلى دراسة الهندسة، فالشعر عنده ليس معاناة احتراف، ولا محاولة لإثبات وجود في كل مناسبة تسنح، وليس مطية ذلولا يتسلى بركوبها في رحلة الحياة، وإنما هو نبض وجدانه، ومعاناة عاطفته، وفيض مشاعره، وذوب فكره. إنه يسري في جسده مسرى نفسه، فليس عنه غناء، وليس منه بد».

إن هم التفكير في الأمة والدعوة إلى العمل لمستقبلها وإنهاض الهمم لا يفارق شاعرنا برهة من الزمن؛ فهاهو على سرير المرض في لندن لإجراء عملية في القلب عام ١٤٠٢هـ، وعاد ابنه بلال إلى الرياض فنظم قصيدة منها قوله:

ذكرناك ما بين المروج ورفقة
من الأهل والأصحاب والخلصاء
وأنداء أنسام وحلو غرائس
وخفق ضلوع في صفي دعاء
ومن يصدق الرحمن ينح لمرتقى
عزيز وعقبى نعمة وجزاء
أألهو وفي لبنان هول مجازر
وصرخة أيتام ورجع نداء
ومكر (لريجان) و(بيغن)عاصف
ليحصد من أهل ومن ضعفاء

كان نعم الصديق. شاعر طبع له أكثر من عشرة دواوين شعرية، وأكثر من ثمانين كتابا في الأدب والنقد، وجمع رصيدا ضخما من التجارب في الحياة؛ فابتلي بالطرد من الوطن، وبفقد الولد، وعاش آلام أمته وأعداؤها ينهشون جسدها قطعة قطعة، وعمل في التدريس زمنا.. أديب وناقد بهذه القامة لا يمكن أن تفيه حقه وحق أدبه سطور قليلة كهذه.

بقي أن أشير إلى أن «موكب النور»، الذي أكملت به عنوان هذا المقال، مستعار من اسم أحد دواوين شاعرنا، ولقد وجدت أن أصدق عنوان لطريق شاعرنا الذي سلكه وسار فيه حاملا لرسالته هو موكب النور، وفي ذلك الموكب انطلق من «الأرض المباركة»، وقد واجه في طريقه «جراح على الدرب»، وكان يرى في الأحداث التي تمر بأمته ووطنه «حرقة ألم وإشراقة أمل»، وفيها «عبر وعبرات» .. وكان من نتيجة معاناته واستجابة للواجب الذي يحمله بصفته أديبا وشاعرا مسلما أن نظم أكثر من عشر ملاحم شعرية مطبوعة.

المسلمون في أوروبا الشرقية(٢-٢)

(خلا الجمهوريات السوفييتية)

د. علاء الدين سيد أغا
باحث أكاديمي سوداني

سبق أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا المقال بعض المقدمات المتعلقة بجغرافيا الجمهوريات السوفييتية وتاريخها، وفي هذا الجزء نتحدث عن علاقتها بالخلافة العثمانية وجزئيات أخرى.

الدولة العثمانية والشريعة الإسلامية

أسلمت الدولة العثمانية نفسها إلى الدول الأوروبية، وإلى روسيا على وجه الخصوص، منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك واضح من المعاهدات التي عقدتها مع بعض الدول الأوروبية، حيث تنازلت فيها الدولة العثمانية عن كثير من مظاهر قوتها التي كانت تتعامل من خلالها مع تلك الدول، ففي معاهدة سيتفاتورك، التي عقدتها الدولة العثمانية عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م مع النمسا، تنازلت بموجبها عن الجزية التي كانت تدفعها لها النمسا. وفي معاهدة كوجوك فينارجة، التي عقدتها الدولة العثمانية مع روسيا عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م من عهد السلطان عبدالحميد الأول ١٧٧٣ - ١٧٨٩م، سمحت الدولة بموجبها لممثلي روسيا في إسطنبول بتوفير الحماية للمسيحيين من رعايا السلطان، كما أتيح لروسيا تعيين قناصل لها في كل أنحاء الدولة العثمانية، ولم تعط الدولة مثل هذا الحق في تعيين ممثلين في ولاياتها (١).

وواضح من هذه المعاهدات المتتالية ما سيتمخض عنها بالنسبة إلى المسلمين القابعين في الدولة العثمانية في شرق أوروبا، لأن هذه المعاهدات لم تتناولهم، وإنما اهتمت بحماية المسيحيين وأحوالهم.

ولاحظ المؤرخون أن سبب ضعف الدولة العثمانية يعود أصلا إلى الابتعاد عن الشريعة الإسلامية. وقد بسط الحديث في ذلك المفكر العثماني قوجي بك KOCIBEY، وكان ضابطا في سراي السلطان، ويعد من خواص السلطان مراد الرابع. وكان قوجي قد كتب رسالة إصلاحية بخصوص تدبير أمور الدولة وإصلاحها، وتقدم بها عام ١٦٣١م، ثم شفعها برسالة أخرى قدمها إلى السلطان إبراهيم عام ١٦٤٠م. وأمثال هذه الإجراءات الإصلاحية (٢) كانت تتردد ما بين حين وآخر في الدولة العثمانية؛ نظرا للابتعاد الشديد عن الشريعة الإسلامية، لا، بل ظهر في ديسمبر عام ١٨٧٦ دستور غربي مقتبس كله من دساتير بلجيكا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة. ولما آل الأمر إلى ذلك، تنمرت روسيا وغيرها من الدول الأوروبية، واستعدت لابتلاع الدولة العثمانية وبتر أطرافها، لا، بل تركيا نفسها. وفيما بعد أجهز على تركيا المسلمة ابنها كمال أتاتورك.

وبينما كانت تدوي صرخة الإصلاح التي نادى بها المفكرون والمؤرخون الأتراك؛ لاستنقاذ ما بقي من ذلك المارد، تنادى كثيرون في الجامعة الإسلامية (٣) ووقف ضدها آخرون، متأثرين بأيديولوجيات تحارب الإسلام، وظهر فريق ثالث نادى بالتوفيق بين الإسلام والقوانين الغربية كنظام أمثل للإصلاح.

ولم يغفل تيار الإصلاح مسألة القوميات، وتعرض لها بالرفض والاستهجان.

ويعد - بحق - محمد عاكف من أوائل الذين استشعروا مسألة الأقليات والقوميات التي ستبرز بروزا واضحا في المحيط الثقافي والوطني والديني، ولأمر ما أطلق المؤرخون الأوروبيون على بلاد البلقان «مستودع البارود».

كانت البلاد البلقانية في أوائل القرن التاسع عشر ضمن الدولة العثمانية على اختلاف ساكنيها وألسنتهم وديانتهم، فهناك اليونان والبلغار والصرب والألبان والبوشناق والبوماق والأفلاق والأتراك! وبذلك تكونت جماعات وطوائف إسلامية عديدة، إضافة إلى الطوائف المسيحية.

وكانت هذه الجماعات تقل وتكثر باختلاف الأقاليم وتشتد في وسط البلاد البلقانية، تداخلا وتشابكا، وبالذات عند مقدونيا، حتى إن كلمة مقدونيا صارت تطلق وصفا على الأطعمة المشكلة في بعض اللغات الأوروبية، ثم جوزت للاستعمال السياسي للدلالة على التشابك والتعقيد الشديدين.

اليونان

كان اليونانيون أرثوذكسا، وظلت كنيستهم على ما هي عليه حتى بعد فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح، الذي أطلق لبطريركية الفنار كل الحقوق والامتيازات التي كانت لها زمان الدولة البيزنطية. واستثمرت كنيسة الفنار هذه الحقوق استثمارا واسعا جدا، فخدمت اللغة اليونانية والثقافة اليونانية ونشرتهما بين غير بني قومها أيضا. كل هذا ولم تحاول الدولة العثمانية أن تحد

منه أو على الأقل أن تباريه وتعمل قدره، بل إنها كثيرا ما أقدمت على تأييدها وحمايتها أيضا.

وبرز الولع بالأدب اليوناني، وأعلنت استقلالها في المؤتمر القومي في مدينة ميسولونجي سنة ١٨٢٢م، وشيئا فشيئا بدأ حال المسلمين يضعف ليحتسبوا «أقليات».

كان البلغار يتبعون كنيسة الفنار الأرثوذكسية، وقد تقدم أن هذه البطريركية كانت يونانية، ونشطت حركة إحياء المدارس في بلغاريا، كعدوى يونانية مشروطة باللغة اليونانية كلغة الدين أساسا (الإنجيل كتب باللغة اليونانية فيجب أن يتلى بلغته الأصلية)، وبذلك تقيدت الوظائف الدينية باللغة اليونانية في البلاد البلغارية. وكان التعليم في جميع المدارس البلغارية يوناني اللغة حتى سنة ١٨٣٥م، وفي تلك السنة نهض رجل اسمه تئوفيت ريلسكي، وأنشأ مدرسة في غبروة علم فيها باللغة البلغارية. وقام ريلسكي بتدوين القواعد النحوية والصرفية للغة البلغارية، وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البلغارية وهيأ أصح الأسس للتعليم والعبادة على السواء. وبهذا أصبحت اللغة البلغارية لغة العبادة ولغة التعليم في كل المدارس والكنائس، وساعدت روسيا بلغاريا في برنامجها المتقدم كل المساعدة.

وهنا فقط تدخلت الدولة العثمانية ومنحت البلغار حق إنشاء كنيسة بلغارية خاصة بهم (الإكسارخية) مستقلة عن الكنيسة اليونانية، وكان ذلك سنة ١٨٧٠م، وفق الفرمان السلطاني، وتدرج الأمر حتى أصبحت بلغاريا دولة مستقلة استقلالا سياسيا. وتعرضت الدولة العثمانية للحرب مع روسيا سنة ١٨٧٨م، وفيها انتصر الروس، ووقعت الدولة العثمانية معاهدة «آيا ستفانوس»، وشيئا فشيئا بدأ حال المسلمين يضعف ليحتسبوا «أقليات».

رومانيا

وبالأسباب والمقدمات نفسها التي مرت بها بلغاريا مع اليونان وهيأت استقلالها، بل أكثر من هذا، لأن الدول الأوروبية كانت تعتقد اعتقادا جازما بـ «أن رومانيا جزء من بلاد اليونان». وعلى هذا، ثار الرومانيون على سلطة كنيسة الفنار وعلى الدولة العثمانية (سلطة الباب العالي)، علما بأن هذا الزعم خطأ من أساسه، لأن رومانيا اسم حديث جدا لتلك البلاد، فقد ظهر سنة ١٨٦٦م، وكانت تعرف فيما مضى بولايتين، «الأفلاق» و«البغدان»، منفصلتين، ثم توحدتا وأزالتا الحدود بينهما.

ونالت رومانيا استقلالها بفضل روسيا، ونهضت اللغة الرومانية وصارت لغة الكتابة والحديث، وتعبد الناس في كنائسهم بها، ولبت الدولة العثمانية هذه المشيئة الرومانية.

يوغوسلافيا

تضم يوغوسلافيا بين جنبيها عدة شعوب تعرف بـ «الصرب الكروات والسلوفن البوشناق، الغجر، والطربش» (٤). وكان الصرب تابعين للدولة العثمانية ثم إلى إدارة الإمبراطورية النمساوية بعد معاهدة برلين (١٨٧٨م) وما بعدها.

وكان الصرب أرثوذكسا، والكروات كاثوليكا، والبوشناق مسلمين يتكلمون لغة سلافية هي «السلافية الجنوبية» اليوغوسلافية. ومما يذكر هنا – تنبيها – أن الصرب أقاموا إمارة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، تطورت إلى مملكة سنة ١٨٧٨م، ونالت اعتراف السلطة العثمانية. واشتغل الصرب باللغة الصربية، تأسيسا ودرسا، فجمعوا ألفاظها في معاجم، وقيدوا نحوها وصرفها حتى غدت لغة العبادة والعلم.

وكانت البوسنة والهرسك – آنذاك – قد دخلت تحت إدارة النمسا واحتلالها سنة ١٨٧٨م حتى ١٩٠٨م، وبعدها ألحقت رسميا بالإمبراطورية النمساوية (معاهدة برلين).

وبانتهاء الحرب وانتصار الحلفاء، زالت الإمبراطورية النمساوية، وقسمت ممتلكاتها من البلاد، فالتحق الصرب بالكروات والسلوفن بالبوسنة والهرسك والجبل الأسود ليكونوا دولة (الدولة الصربية الكرواتية السلوفينية). ونالت يوغوسلافيا استقلالها وغيرت اسمها. وشيئا فشيئا بدأ حال المسلمين يضعف ليحتسبوا «أقليات» ثم يطالهم نير الحكم الشيوعي بعد ذلك.

ومما يذكر طرافة أن الحرب العالمية الأولى كانت بسبب قتل الأرشيدوك فرديناند (ولي عهد النمسا) في مدينة بوسنة سراي على يد شاب صربي متشدد للفكرة القومية، فثارت النمسا وأعلنت الحرب، ثم تحولت حربا عالمية. وفي هذه الأيام تدور حرب ضروس في البوسنة والهرسك وقودها القوميات والعصبيات ضد المسلمين، وكانت الأمم المتحدة قد حظرت أن يصدر السلاح للبوسنة والهرسك، وآثرت الأمم المتحدة أن تتفرج لاهية عما يدور في البوسنة والهرسك لتشهد إبادة المسلمين وتصفيتهم دمويا (لأنه ربما عاد الفأر ليلعب في العب القديم)، فآثرت الأمم المتحدة العمل بالقول الألماني «أرفع يدك عن هذا الموضوع».

ألبانيا

والحال في ألبانيا كمثيلاتها المتقدم ذكرها، فقد تم الاعتناء باللغة، ثم الاعتناء بالدين، ثم بالقومية، ثم بالاستقلال شيئا فشيئا...

وهكذا الحال في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر (هنغاريا)، فقد خضعت هذه الدول، إضافة إلى يوغوسلافيا، للاتحاد السوفييتي لتدور في فلكه. ولما انهار الاتحاد السوفييتي عاد هو نفسه أقليات وقوميات متناحرة فقيرة.

ولا أريد أن أشرح حال الشيوعية في تلك الدول ولا في الاتحاد السوفييتي (٥)، لكن أوجز ما يقال إن الشيوعية استبدلت الإلحاد بالدين، والديكتاتورية والتسلط بالحريات. وطبيعي أن تنشأ مشاكل جمة في تلك الدول الشيوعية جميعها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وطبيعي أيضا أن يعاني المسلمون في هذه الظروف التحولية معاناة قاسية جدا، وقد شرحت هذه المعاناة من طرق شتى (٦).

ويلاحظ أن الدول محل البحث قد أولت اللغة والدين (المسيحي) اهتماما كبيرا قياسا بالدولة العثمانية التي كان يؤمل أن تتولى ريادة هذين المجالين بما يكفل للأقليات المسلمة حقا متساويا.

ويلاحظ أيضا أن الدول الغربية قد سلكت سلوكا عنيفا ضد الإسلام والمسلمين، وجنحت نحو الإبادة الثقافية والدينية، لا، بل الإبادة العرقية، والحق أن هذا السلوك له سابقة مشهورة معروفة في «الأندلس»، فقد أجلي عنها المسلمون، فهاهي أطلال ذكرى. وإسبانيا اليوم في عداد الدول المسيحية.

الهوامش

١- PHILIPS PRICE: AHISTORY OF TURKEY FROM EMPRIRE TO REPUPLIC: LONDON. ١٩٥٠.

٢- حركة الإصلاح العثماني، القاهرة، ١٩٧١م. وانظر أيضا: تاريخ أحمد جودت.

٣- الجامعة الإسلامية وأوروبا، رفيق العظم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٠٣م.

٤- مذكرة الشيخ سليمان أفندي رجبي، رئيس المشيخة الإسلامية في جمهورية مقدونيا، سكوبية، ص١.

٥- للاستزادة حول المسلمين وأحوالهم المأساوية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي سابقا راجع الرحلة: «المسلمون أمام تحدي العالم»، د. إحسان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.

٦- راجع حوله:
- مذكرة رئيس المجلس التشريعي الأعلى (يوغوسلافيا)، أور فراتي.
- مذكرة رئيس المشيخة الإسلامية، مقدونيا (يوغوسلافيا)، سليمان أفندي رجبي.
- المسلمون في يوغوسلافيا، لجنة مسلمي يوغوسلافيا، الندوة العالمية، الرياض، ١٤١٠هـ.
- أوراق الأمانة العامة لملتقى أوروبا الشرقية ١٩٩١م.

رصد الأسباب واقتراح الحلول:

الأزمة المائية العربية

أحمد مصطفى علي
باحث دراسات علمية

تناقص المياه أزمة عالمية شديدة التأزم في الوطن العربي؛ إذ تقع جميع الدول العربية تحت خط الفقر المائي (باستثناء السودان والعراق)، حيث يعرف خط الفقر المائي بالألف متر مكعب وما دونها. ويوضح مقدار هذا الخطر الذي يعيشه أكثر من ٧٥ في المئة من سكان الوطن العربي، إذ تقول في ذلك تقديرات «فالكينمارك» (معهد ستوكهولم الدولي للمياه) وخبراء آخرون: إنه يحتاج كل فرد في المتوسط إلى ١٠٠٠ متر مكعب من المياه على الأقل سنويا (أي مليون لتر ماء)، وهو ما يعادل خمسي حجم حمام السباحة الأولمبي لأغراض الشرب والنظافة وزراعة متطلبات غذائه، هذا في الوقت الذي يبلغ فيه إجمالي المياه العذبة على وجه الكرة الأرضية ٣ في المئة من حجم المياه.

وعلى الرغم من حدة الأزمة العربية، فإن تأثيرها يتضاعف مع أزمة الغذاء العالمي المقبلة، والعوز المائي الذي يجوب العالم، والذي سبق أن حذرت منه الأمم المتحدة وفق دراسات تشير إلى أن شخصين من كل ثلاثة أشخاص في كوكب الأرض سيعانيان من نقص المياه بحلول عام ٢٠٢٥م، خصوصا في مناطق الشرق الأوسط.

وتلك المشكلة العالمية للمياه خلقت نوعا جديدا من التجارة يتعلق بتصدير المياه والتي وصل حجمها إلى ٨٠٠ مليار متر من المياه في السنة، أي ما يعادل عشرة أمثال نهر بغزارة نهر النيل، وهو ما دعا المعاهد الأميركية للمياه إلى توقع تجاوز تجارة المياه مقدار ١,٧ تريليون متر مكعب سنويا في الوقت القريب مع تنامي تحرر السلع الغذائية من السيطرة، والاحتياج لأقل المياه تكلفة مقارنة بتكاليف تحلية مياه البحار والمحيطات.

ولكن يبقى أمامنا كثير من الخطوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية البالغة الأهمية لحماية المياه، وتأتي خطورة إمكانية تغافل هذه الخطوات مع الزيادة السكانية العربية، وتنامي احتياجات التصنيع والزراعة، فضلا عن الرفاهية وما تستهلكه من كميات مياه بالغة الضخامة، مثل ملاعب الجولف أو القرى السياحية. لذا، فالمسؤولية ليست للحكومات فحسب وإنما أيضا مسؤولية مشتركة مع الشعوب، إذ إن على الجماهير أن تتحمل العواقب، وتساهم بوعيها وسلوكها في الحد من الإسراف في استعمال المياه، خصوصا في الزراعة ثم الصناعة والمنازل وغير ذلك، فكل قطرة ماء هي حياة بالفعل.

ويمكننا هنا أن نتناول أهم المحاور التي يمكن الشروع فيها تجاه الأزمة المائية العربية.

أولا: تطوير السياسة المائية العربية

صار لزاما أن ننظر هنا إلى ضرورة وضع استراتيجية محكمة تراعي مختلف عناصر القضية المائية، ومن هذا: ضبط المياه – إدارة المياه – مصادر المياه، كالبحث عن مصادر جديدة واستغلالها مثل المياه الجوفية وتحلية ماء البحر وغير ذلك – كذلك ترشيد استهلاك المياه – التوعية بخطورة إهدار المياه – تشجيع الشركات ورجال الأعمال على الاستثمار في مجال المياه.

كما يبقى لهذه الاستراتيجية أن تراعي خلالها الحكومات العربية الجهود العلمية، وفي ذلك سرعة الأخذ بالتوصيات البحثية مأخذ الجد والتنفيذ من دون إبطاء، وفي مثل ذلك نتائج المنتدى العربي للبيئة (افد) ٢٠١٠م، الذي طالب بضرورة أن تحول الحكومات العربية من دورها كمزود للمياه إلى أدوار الإدارة والتخطيط، فضلا عن تنمية مصادر المياه وحمايتها من الاستخدام الجائر والتلوث، وتشجيع إعادة استخدامها، ولا يتسنى ذلك من دون معرفة دقيقة بما تمتلكه من مياه وأراض رطبة ومستنقعات وبحيرات وأحواض كشرط لنجاح إدارتها، وهذا يستلزم مراعاة دراسات تقييم التغييرات التي تحدث في أنظمة المياه العذبة نتيجة للنشاط الإنساني أو تغير المناخ، فضلا عن الحاجة إلى أبحاث حول تطوير أنواع المحاصيل لتحتمل الجفاف والملوحة، ومعالجة تحديات الأمن الغذائي في التكيف مع تغير المناخ (١).

ثانيا: المياه الزراعية

وفي المجال الزراعي يمكننا إجمال الحديث في عدة نقاط:

١ – استخدام طرق الري الحديثة، مثل الري بالتنقيط، أو استخدام تقنية الليزر في تسوية الأراضي الزراعية، والأخيرة لها مردود اقتصادي واضح على المحاصيل، خصوصا القصب والأرز. ومن النتائج الملموسة لتسوية الأرض بالليزر ما حدث في تجربة عملية في مصر على محصول القصب، وتحقيق زيادة نصيب الفرد المزارع بمقدار ٥,٤١ في المئة من الدخل القومي، وخفض استهلاك المياه من ١٢,٣ ألف متر مكعب للفدان إلى ٨,٤ آلاف متر مكعب للفدان، أي توفير أكثر من ٨١٥ مليون متر مكعب من المياه لمساحة قصب السكر فقط (٢).

٢ – تغيير التركيب المحصولي، بمعنى أن تقوم الدول العربية بزراعة المحاصيل الأكثر ربحا والأكثر طلبا لدى السكان، واستيراد المحاصيل الأكثر وفرا وزهيدة السعر.

٣ – تعديل التركيب المحصولي، وذلك عبر إمكانية توفير كميات ضخمة من المياه من خلال استبدال محصول البنجر بالقصب (٣)، مع خفض المساحات المنزرعة بالمحاصيل الشرهة للمياه، كالأرز، أو محاولة منعها أو إدخال أصناف جديدة من الأرز، فهناك سلالات أقل استهلاكا للمياه، ويتم تطويرها باستمرار في الدول المتقدمة، كاليابان، بتقنية تطوير سلالات الأرز.

٤ – إعادة استعمال مياه الصرف الزراعي فيما يلائمها، أو بعد مرورها على عملية إزالة للمبيدات العالقة.
٥ – التوسع في استعمال المياه الجوفية لغرض الزراعة.
٦ – تعظيم الاستفادة من مياه الأمطار حال وجودها في بعض الدول العربية.
٧ – ضرورة الدراسة الجيدة للأراضي التي يتم استصلاحها، مع الأخذ في الاعتبار فشل الكثير من أراضي الاستصلاح جراء زحف الرمال، أو نفاد بعض مخزون الآبار الجوفية أو ملوحتها، وهو الأمر الذي يطالب فيه البعض باستغلال الصحاري في الصناعة والمدن السكنية مقابل حماية وترك الأراضي الملائمة للزراعة في العديد من بلدان الوطن العربي، ومدى إمكانية مضاعفة التطوير والاستفادة منه.

ثالثا: المياه الصناعية والمنزلية

يزداد الصرف الصحي والصناعي الملوث بالمواد الكيميائية والمبيدات الزراعية، ويتجاوز ٤٣ في المئة من مياه الصرف بأنواعه من دون معالجة، وهو ما يرفع المخاطر الصحية للأطفال، فضلا عن ذلك لا يعاد استخدام أكثر من ٢٠ في المئة منها، وذلك وفق إحصاءات المنتدى العربي للبيئة والتنمية لعام ٢٠١٠م (٤).

هذا، ووفق تقارير البنك الدولي، فإن الأمراض التي تأتي من سوء الصرف الصحي تمثل ٤ في المئة من العبء العالمي للأمراض، كذلك الاقتراب من المناطق الصناعية والطرق السريعة، واستخدام مصادر طاقة سيئة وملوثة للبيئة يؤدي إلى مستويات مختلفة من أمراض الجهاز التنفسي وسرطان الرئة وأمراض القلب، وبالتالي فهي تكلف الدول مليارات الدولارات في شكل إنتاجية مهدرة، إضافة إلى خسائر التعويضات والعلاج. وعلى الرغم من أن التكلفة البشرية والمالية للتلوث باهظة للغاية، فإنها تقع في معظم الأحيان على الفئات الفقيرة، مما يجعل مكافحة التلوث، فضلا عن كونه مسألة اقتصادية وبيئية، مسألة عدالة اجتماعية أيضا (٥).

فخطر تلوث الماء جراء النشاط الصناعي مشكلة مزمنة، ولا يقتصر على المخلفات الصناعية، بل والتخلف في إنشاء مشاريع مجاريها المائية، وعدم مجاراتها لتوسع استهلاك المياه، واستسهال بعض منعدمي الضمير من أصحاب المصانع للتصرف غير الآمن في المياه الملوثة، أو عدم اتباع قوانين تنقيتها، أو إهمال متابعة أجهزة التنقية. لذلك، ينبغي في هذا الصدد، وللمخاطر السالفة التي كشفتها الدراسات، ما يلي:

١ – سن تشريعات ووضع عقوبات رادعة لإهدار المياه:

وفي ذلك سن تشريعات تجرم إهدار المياه.. أمثلة في ذلك: أرصفة الشوارع أو سرقة خطوط المياه، ووضع عقوبات رادعة لذلك، ووضع تشريعات تلزم أجهزة الداخلية والبيئة والمحليات القيام بدورها، وتحديد مختص لها لكل منطقة، يسأل عن وضع الإهدار المائي بها، أو التلوث الحادث فيها، ويشمل ذلك «إهدار المياه، سرقة المياه، إلقاء الحيوانات النافقة في الترع والأنهار، إلقاء مخلفات المباني والقمامة على جانبي النهر والترع والمصارف، صرف مبيدات وأسمدة في الترع والمصارف، إلقاء صرف صناعي في المجاري المائية أو الجوفية، عدم معالجة مياه الصرف الصناعي».

٢ – تشديد العقوبات المتخذة على تلويث مياه الأنهار والبحيرات بالماء الصناعي أو المنزلي، وكذلك اتخاذ عقوبات رادعة لمن يهمل صيانة وإصلاح الأجهزة القائمة بذلك.

٣ – مراقبة دورية لاستخدام المياه في المنشآت الصناعية، وسن عقوبات خاصة لمن يتكرر لديه هدر المياه.

٤ – إلزام المنشآت الصناعية بإعادة استخدام المياه متى أمكن ذلك (مثال لذلك المصانع الكبرى، والمصانع الصغرى، وورش غسل السيارات، ومحطات الوقود، والصناعات الأسمنتية والسمادية... وغيرها)، فلا تضرها إعادة استخدام المياه.

وفي ذلك الصدد، يمكن إلزام هذه الجهات بتطبيق نظم الكيمياء الخضراء، وهي كيماويات لا تضر بالإنسان، وبكفاءة تصل إلى عشرة أضعاف فعالية الكيمياء الحالية لتطهير المياه الملوثة وتنقيتها ومعالجتها. وهناك أيضا استخدام لأجهزة الليزر التي تضبط الجرعة المثالية للكيماويات، وتكشف عن مناطق التآكل في مواسير الإنتاج والمناطق ومساحتها لتوفير الوقت والجهد (٦).

رابعا: تدوير المياه

من الحقائق المعروفة علميا أنه يهدر ١٠ في المئة من المياه الصالحة للزراعة، لأنها ملوثة بدرجة كبيرة لا يمكن معها توصيلها إلى المزارعين (٧)، أما ما يهدر من باقي كميات المياه الزراعية، أي المياه التي تم الري بها واستهلكت لسوء أنظمة الري التقليدية، فهو أمر لا يمكن وصفه، فالزراعة تستهلك عادة أكثر من ٧٠ في المئة من نصيب المياه في كل دولة. أما الهدر للمياه المنزلية المستهلكة فذلك حسب تعداد سكان كل دولة، هذا بجانب الهدر الآخر للمياه المنصرفة من الأنشطة الصناعية أو الترفيهية.

لذا، بات من الضروري مع تصاعد الأزمة المائية التوسع في تدوير المياه المستعملة وفق آليات حديثة تسمح بإعادة استخدامها في أكثر من غرض، وإعادة استخدامها في الأغراض الملائمة مثل زراعة غابات الأخشاب الماهوجني التي تتم زراعتها بمعالجة مياه الصرف الصحي المنزلي.

ولتوضيح قيمتها الاقتصادية فإن سعر المتر الواحد لأخشاب الماهوجني يصل إلى أكثر من مئتي دولار أميركي، وبالتالي يحقق عائدا اقتصاديا بالغ الأهمية، وكذلك إمكانية استخدامها في تنظيف السيارات، أو أشجار الطرق، إلى غير ذلك من الأغراض الملائمة لتلك المياه المعالجة.

ويمكننا الإشارة إلى مدى الحرص على المياه في الدول الغربية، فأميركا، على سبيل المثال، تستخدم ذلك بشكل متميز، رغم أنها من الدول التي تملك وفرة مائية، بل إنها تعيد استخدام مياه الصرف المعالجة في غسل الشوارع وأشجار الطرق والغابات الخشبية،

بل إنها تبني وسائل أخرى شديدة الدقة فيما يعرف بمراحيض المزج الجاف المزودة بنظام فصل البول، وتقوم هذه التقنيات على إعادة استخدام البول في الزراعة، وتحويل المخلفات المتبقية إلى مزيج عضوي يمكن أن يخصب التربة، وتعمل هذه الوحدات بطريقة شبيهة بأكوام المزيج العضوي في الحدائق، فتقوم بتفكيك الفضلات البشرية بفعل الميكروبات الهوائية فتحولها إلى مادة غير سامة غنية بالمغذيات، ويمكن أن يستثمر المزارعون المادة العضوية الناتجة كسماد للمحاصيل، كما يمكن استخدام هذه التقنيات بصورة آمنة حتى في المناطق الحضرية المكتظة، كما يتضح ذلك من منشآت مشروع «جيبرز السكني» في ضواحي ستوكهولم وفي العديد من المشاريع الريادية (٨).

وتمكنت أميركا أيضا من خلال المهندسين المدنيين المختصين في هذه التقنية من فصل الإمدادات المائية عن نظم الصرف الصحي، وعبر هذه الوسيلة تمكنت من توفير كميات كبيرة من المياه العذبة التي تم تطبيقها على نطاق واسع. إضافة إلى ذلك، فإن إعادة تدوير المخلفات تحد من استخدام السماد المستمد من الوقود الأحفوري.

خامسا: تحلية مياه البحار والمحيطات

وليست الحلول تقف عند ما سبق، فهناك إمكانية لتحلية ماء البحر بأقل تكلفة، من خلال تبني برنامج جاد لإنتاج الطاقة النووية، وهو أمر حاسم في الاستفادة من هذه المياه بشكل مضاعف (٩).

كما يمكننا أيضا استخدام سبل أخرى متقدمة تزيل أيضا من الأذهان ما كان من تكلفة باهظة في تحلية المياه فيما سبق، مثل تقنيات التناضح العكسي لتحلية المياه بدلا من تقنيات البخار المكلفة، أو عبر تدوير المياه وتعدد استخدامها، فتكنولوجيا المياه يمكنها تخفيض الاستهلاك إلى أقل من النصف، مما يجعلنا قادرين على استصلاح أراض صحراوية جديدة وزيادة الرقعة المزروعة. كما يمكن كذلك زيادة الموارد المائية لأكثر من ٤٠ في المئة عبر إعادة استخدام مياه الصرف الزراعي والصناعي والصحي في الغابات الخشبية مما يوفر ٨ مليارات متر مكعب (١٠).

وحول هذه التقنية (التناضح العكسي) تحدثت الأبحاث العلمية الأميركية عام ٢٠٠٨م عن التوصل لمزايا تخفيض التكلفة بشكل بالغ مع تنامي استغلال عملية التحلية في توفير الطاقة الكهربائية، حيث تذكر مجلة العلوم الأميركية في تقرير علمي: «يبدو أن أدوات إزالة ملوحة المياه تحقق بعض التوازن باستثمارها لهذا المصدر الضخم من المياه المالحة، والتخفيض الكبير الحالي في تكاليف تقنية إزالة ملوحة المياه أكثر اقتصادا للطاقة، وذلك عبر استخدام تقنية التناضح العكسي؛ يعني أنه بإمكان العديد من المدن الساحلية أن تحصل حاليا على مصادر جديدة لمياه الشرب».

ففي نظام التناضح العكسي تجري المياه المالحة في أحد حيزين مفصولين بغشاء شبه منفذ (يمرر المياه العذبة)، حينئذ تطبق زيادة كبيرة في الضغط على الحيز الذي يحوي المياه المالحة، وفي خلال فترة من الزمن يجبر الضغط جزيئات المياه على المرور عبر الغشاء إلى حيز المياه العذبة. وقد حقق المهندسون بالفعل وفرا في التكاليف بإدخال تحسينات مختلفة، تشمل أغشية محسنة تتطلب ضغطا أقل وتستهلك طاقة أقل لترشيح المياه وتعديل النظام، وهذا ما يجعل البناء أكثر سهولة. وقد تم إنشاء مصانع كبيرة لإزالة ملوحة المياه تستخدم التقنية الجديدة الأرخص تكلفة في كل من سنغافورة وخليج تامبا في فلوريدا (١١).

ويعمل الباحثون حاليا على مزيد من التوفير عبر مرشحات التناضح العكسي المؤلفة من أنابيب كربونية نانوية، وهي الأكثر كفاءة للفصل، وبإمكانها أن تحقق تخفيضات إضافية في تكاليف إزالة ملوحة المياه بنسبة ٣٠ في المئة. وتشهد هذه التقنية التي تم توضيحها بنماذج أولية قلة استخدام تجاري، على الرغم من التحسينات في مردود الطاقة. ويعد سبب محدودية تطبيق تقنية التناضح العكسي أن استهلاكها للطاقة مازال كبيرا، وعليه؛ فإن من الأهمية بمكان استخدامها مصدرا لتوليد الطاقة الكهربائية بالمياه، بما يمكننا من تحمل تكلفتها، وبالتالي إمكان تطبيق هذه التقنية على نطاق واسع.

سادسا: الاستثمار في مجال المياه

من المدهش أن يتطلب عائد الاستثمار تفادي نقص المياه في المستقبل، وذلك للنفقات المالية الضخمة مستقبلا للحصول على المياه، فخبراء شركة بوز آلين هاميلتون قالوا: «إن العالم سيحتاج إلى استثمار نحو تريليون دولار سنويا لتوفير المياه اللازمة لجميع الاستخدامات حتى عام ٢٠٣٠م؛ وذلك لأجل تطبيق التقنيات المتاحة حاليا لحفظ المياه وصيانة البنية التحتية

واستبدالها وبناء نظم الصرف الصحي، وهو بالطبع رقم هائل بالتأكيد، بيد أنه قد لا يكون بهذه الضخامة، إذا ما نظر إليه في ظروف التقييم الحالية المعقولة، فالمبلغ المطلوب لا يشكل حاليا سوى ١,٥ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي السنوي العالمي، أو نحو ١٢٠ دولارا نصيب الفرد الواحد، ويبدو أن مثل هذا الإنفاق يمكن تحقيقه» (١٢).

سابعا: إنشاء هيئة عربية عليا من المستوى الثاني في المسؤولية ملحقة بأمانة جامعة الدول

يتبنى الباحث في هذه النقطة الرؤية البحثية للدكتور عادل عبد الرازق، حيث يكون دور الهيئة ليس تنفيذ الاستراتيجيات البحثية لحماية المياه وإيجادها فقط، بل وضع خطط طويلة الأمد لتنظيم واستغلال أحواض الأنهار العربية، والإشراف الدائم لمنع تحول أي آثار جانبية إلى عقبات تحول دون استغلال هذه الأحواض. يضاف إلى ذلك مرونتها وحيويتها في استخدام عوامل الإحلال والطرد للقوى الاجتماعية والاقتصادية في تلك المناطق، مع الإدراك الكامل لحاجات دولها وحتمية التعاون بينها. وقد تشكل هذه الهيئة نوعا من القوة المعنوية لدولها الأعضاء، خصوصا فيما يعني مصر والسودان.

ويفسر الدكتور عادل عبدالرازق، مهام هذه الهيئة في ما يلي:

إيجاد وسائل لإدارة الصراع، ويتطلب ذلك طريقتين (١٣) هما:

● صراعي، ويقوم على أن مفهوم الأمن القومي لا يتجزأ، أي إنه مفهوم يشمل استخدام الدول العربية لقواتها العسكرية لوقف استغلال الدول الأخرى المشاركة في أحواض الأنهار العربية، وبالتالي خرق اتفاقيات المشاركة الموقعة بين دولها، وهذا البديل أقل احتمالا في التنفيذ، وغير مرغوب فيه، ويصعب تطبيقه إلا في إطار التوازنات الدولية القائمة في العالم.

● تعاوني، ويقوم على مبدأ المنفعة المتبادلة مع دول الجوار الاستراتيجي، أو بين دول الحوض الواحد من منطلق الإيمان بوجود مصالح مشتركة أو متبادلة من دون مغالاة أو تجاوز، مع معرفة حقيقية لحاجات دول الحوض من الماء واستخدام أمثل لها.

وينطوي ما سبق على عنصرين مهمين (١٤):

● ضرورة تطوير استراتيجية عربية مشتركة تضع المصلحة العربية العليا موضع التنفيذ. فإذا لم يكن هناك اتحاد كامل للرؤية، فعلى الأقل وجود وحدة حركية في العمل لتنفيذ الحد الأدنى من الاتفاق تمنع الآخرين من سرقة المياه، وانتهاك المواثيق والأعراف الدولية بشأن أحواض الأنهار.

ثامنا: التوصيات الثقافية

وتتمثل تلك التوصيات في النقاط التالية:

أمور تتعدى نطاق الدولة، خصوصا على مستوى دول الجوار، ومن ذلك:

● مهرجانات ثقافية مشتركة مع دول الجوار المائي للأنهار العربية.

● دورات رياضية مشتركة مع الدول ذاتها.

● تنظيم رحلات مشتركة، وتبادل زيارات تعليمية وبحثية.

● برامج إعلامية مشتركة.

● مطبوعات عربية بلغات هذه الدول، للتقارب الثقافي معها، مع نشر الاتصال الإلكتروني.

فضلا عن العمل الداخلي لمواجهة التحديات الصارمة للحفاظ على المياه، ويقتضي عدة أمور أهمها:

● إعداد مخطط محكم يشارك فيه مجموع الفاعلين والمستهلكين للماء.

● توعية المواطنين بكيفية استعمال الماء على أحسن وجه، وتشجيع مشاركتهم.

● توعية شركات توزيع المياه والمستهلكين بأهمية الماء.

● تعليم الجهات والأفراد من خلال حملات إعلامية مقترحات مهمة لتوفير المياه.

● تفعيل دور الجمعيات الأهلية ومنظمات المجتمع المدني في التوعية بحماية المياه، والحد من تلوثها، وابتكار أساليب حديثة وتبنيها.

● وضع دروس تعليمية في جميع المراحل التعليمية.

تاسعا: تعزيز الجهود العلمية

ومن ذلك:

● الاستفادة بالجهود البحثية الغربية الأجنبية المبذولة في مجال المياه، وتطبيق الملائم للواقع، خصوصا مع انتشار المراكز البحثية العالمية ونتائجها المنشورة التي يجب الحرص على ترجمتها أولا بأول في مراكزنا العلمية العربية، والعناية بها، ودراستها، والإضافة إليها وتطويرها.

● تعزيز جهود مراكز بحوث المياه العربية والأقسام الجامعية المعنية، ودعمها ماديا، وكذلك بشريا بباحثين متميزين، وبآليات حديثة، وضم تخصصات متنوعة علمية حديثة عبر الاستفادة من الجهود الغربية في ذلك، مثل الاتصال والمياه وكيفية تطوير حملات توعية الاستهلاك لتلائم الجمهور المعاصر وآليات ثقافته الرقمية، وكذلك الأبحاث المعنية بتطوير تحلية المياه وتقليل تكلفتها المادية، وسبل ترشيد استهلاك المياه في المجالين الزراعي والصناعي والتي يدهشنا العالم كل عام بالجديد فيها.

● الاستفادة من المخترعات والتقنيات والخبرات الدولية في مجال المياه، وتطبيق التقنيات المتاحة والملائمة بشكل فوري.

● حث كبار المزارعين والمنتجين على السفر إلى مواقع الخبرة، ومعاونة صغار المزارعين في السفر على حساب دولتهم لتطوير آلياتهم الزراعية وإنماء المحاصيل وحماية الماء للتوسع الزراعي، وكذلك الأمر لباحثي الدول العربية لتعلم أحدث مجالات العلوم الزراعية واستغلال

المياه في نظم الري المتطورة.

عاشرا: تعزيز الجهود الدولية لحماية المياه

وفي هذه النقطة يمكن الحديث عن:

١- مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة في استوكهولم ١٩٧٢م

تتضمن خطة العمل الدولي لحماية الحياة ومواجهة مشكلات البيئة ١٠٩ توصيات للحكومات ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، مثل منظمة جامعة الدول العربية أيضا. وتأتي أهمية المؤتمر في اعتراف الدول بمسؤوليتها عن تأمين بيئة لائقة لأجيال الحاضر والمستقبل على السواء، كخطوة مهمة نحو التنمية المستديمة، وكذلك حق الأفراد في الاطلاع والحصول على المعلومات، والمشاركة في صنع القرارات حول النشاطات التي من المحتمل أن يكون لها تأثير بالغ في البيئة، والحق في العلاج والتعويضات لمن تأثرت صحتهم أو بيئتهم أو يمكن أن تتأثر بصورة خطيرة.

٢- برنامج الأمم المتحدة للبيئة unep ١٩٧٢م

كان من نتائج مؤتمر استوكهولم، إنشاء برنامج الأمم المتحدة للبيئة، لتكون مهمته الأساسية العناية بشؤون البيئة، ووظائفه في ذلك ما يلي:

- ترقية التعاون الدولي في مجال البيئة وتقديم التوصيات المناسبة لهذا الغرض.
- وضع الأنظمة الإرشادية العامة لتوجيه البرامج البيئية وتنسيقها في إطار نظام الأمم المتحدة.
- متابعة تنفيذ البرامج البيئية وجعل الوضع البيئي الدولي تحت البحث والمراجعة المستمرة.
- ترقية مساهمة الهيئات العلمية والمهنية المتصلة لاكتساب المعارف البيئية وتقويمها وتبادلها.
- جعل الأنظمة والتدابير البيئية والوطنية والدولية في الدول النامية تحت المراجعة المستمرة.

٣- إدارة البيئة والإسكان والتنمية المستدامة - المجلس الوزاري العربي للمياه - جامعة الدول العربية.

٤- برنامج الأمم المتحدة الإيفاد.

٥- برنامج الأمم المتحدة للبيئة UNEP (١٥).

٦- برنامج الأمم المتحدة للبيئة الصادر جراء مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة - استوكهولم ١٩٧٢م، ويتضمن نص ميثاق المؤتمر: تمويل برامج البيئة وتقديم المساعدة والتشجيع لأي جهة داخل الأمم المتحدة وخارجها للمشاركة في تنفيذ مهام برنامج حماية البيئة والمراجعة السنوية لما تم في هذا الخصوص وإقراره.

٧- برنامج المنظور البيئي ٢٠٠٠م، والذي يتضمن ضمن بنوده، تحقيق تحسينات مطردة في مستويات المعيشة في جميع البلدان، وتوافر مأوى مناسب لسبل محيط آمن نظيف يفضي إلى الصحة الوقائية ويخفف من حدة التردي البيئي.

٨- مؤتمر الأمم المتحدة الثاني للبيئة والتنمية «قمة الأرض» ريو دي جانيرو ١٩٩٢م، والمتضمن إقرار ميثاق الأرض استنادا لإعلان حقوق الإنسان، والمتضمن كذلك جدول أعمال القرن الحادي والعشرين، وخلاله وافقت ١٧٤ دولة على ٩٠ في المئة من إعلان النوايا، وكانت الـ ١٠ في المئة الأكثر حساسية هي مثار الاعتراض، لأنها المعنية بالتمويل، لذا يجب على دول الجنوب محاولة حث الرأي العام الدولي على تنفيذ مقترح فرنسا بمنح دول الشمال للجنوب ٧٥٠ مليار فرانك كل عام، علما بأن المعونة الحالية تبلغ ٥٥ مليارا، والمقترح يبنى على أساس رفع معونة حماية البيئة بنسبة ٠,٧ في المئة من إجمالي الناتج القومي الخاص بها (وكانت تعطى بالفعل من قبل نسبة ٠,٥ في المئة)، هذا ولم تبد الولايات المتحدة الأميركية أي حماسة لذلك (لأنها تعطى حاليا ٠,٢١ في المئة)، وكذلك بريطانيا (التي تعطي ٠,٢٧ في المئة)، والمفترض أن المساومة إذن قائمة، خصوصا أن هذه الحقوق جراء ما جنته بعض الدول الاستعمارية من تدمير دول الجنوب واستنزاف مواردها أو تعمد نقل التلوث الصناعي إليها.

الهوامش

١- ماري يعقوب، في تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية (افد) ٢٠١٠م: كارثة مائية تدق أبواب العرب قبل عام ٢٠١٥م، القاهرة: مجلة رسالة النور، العدد ٤٩٢، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٠م، ص٤١.

٢- خميس البكري، علماء الزراعة ينجحون في تصنيع المعدات الزراعية ذاتية الحركة في مصر، القاهرة: جريدة الأهرام، ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٥م، ص٢١.

٣- محمد عاطف كشك، نهر النيل - المخاطر الحالية والمستقبلية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٤٨.

٤- ماري يعقوب، في تقرير المنتدى العربي للبيئة والتنمية (افد) ٢٠١٠م: كارثة مائية تدق أبواب العرب قبل عام ٢٠١٥م، القاهرة: مجلة رسالة النور، العدد ٤٩٢، أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ٢٠١٠م، ص٤١.

٥- شايدا بادي، ومهدي إخلاجي، وأورانبيليج باتجارجال، وآخرون، ص٩٣.

٦- وجدي رياض، الكيمياء الخضراء.. تتصدر مؤتمرات المياه، القاهرة: جريدة الأهرام، ١٩ يونيو ٢٠٠٠م، ص٢٧.

٧- ناجي كامل، مرجع سابق.

٨- مجموعة من العلماء، تقرير «مواجهة أزمة المياه العذبة في العالم»، ترجمة الدكتور أحمد فرغلي عبدالنعيم، مجلة العلوم الأميركية، ٢٠٠٨م.

٩- د. محمود منصور، مواردنا المائية.. مخاطر وتحديات، القاهرة: دار الهلال للطبع والنشر، مايو ٢٠١١م، ص٧٤.

١٠- د. مجدي أبوريان، تقنية المياه، القاهرة: جريدة الأهرام، ٤ مارس ٢٠٠٠م، ص١٠.

١١- مواجهة أزمة المياه، تقرير مجلة العلوم الأميركية، مرجع سابق.

١٢- المرجع السابق.

١٣- عادل عبدالرازق، بؤر التوتر والنزاع حول المياه في حوض النيل والعالم العربي والاستراتيجية المصرية للسياسة المائية في حوض النيل، دراسة تحليلية وقانونية في إطار العلاقات السياسية الدولية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م، ص٤٢.

١٤- المرجع السابق، ص٤٣.

١٥- ممدوح حامد عطية، إنهم يقتلون البيئة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٥١ - ٦٠.

التحديات والجهات واستراتيجية المواجهة:

تهديد اللسان العربي

أ. د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

يمثل الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية في ١٨ ديسمبر من كل عام، مناسبة جيدة لمعاودة تأمل ما أسهمت به في مسيرة الإنسانية المعرفية والإبداعية والحضارية. لقد مثل حضور العربية المبهر في بعض الحقب التاريخية صمام أمان للتراث الإنساني بكل ما تعنيه العبارة هذه، ومن دون أي غلو يمكن أن تحمل عليه.

ومنذ فترة والمهددات التي تطيف باللسان العربي موفورة، تتبدى العلامات عليها، ويتنامى ظهور عدد من أبعادها، وتتنوع جهات إطلاق نيرانها.

إن الاحتفال مسألة مهمة جدا من الوجهة النفسية، ولكنها مهمة جدا حين تتخذ منحى إيجابيا يسهم في معالجة قضية التهديد التي يمتد الشعور بها منذ زمان بعيد من عمر العصر الحديث.

إن مراجعة التاريخ العربي المعاصر تشهد حضورا للشعوب بالتهديد اللغوي يمتد على الخريطة الثقافية العربية المعاصرة جميعا ويمتد زمنيا كذلك.

فالعقاد مثلا وانطلاقا من الهوية الواقية فتش عن ملامح اللغة الشاعرة، ثم جاء مالك ابن نبي ليعلن بصرامة ووضوح أن بقايا الاستعمار ماثلة في عجمة اللسان العربي، ثم جاء فهمي هويدي معلنا البيان المنذر المرعب: عروبة الخليج في خطر.

هذه ثلاثة أصوات فقط تتوزع على الخريطة، مشرقا ومغربا، وتمتد زمنيا لتغطي قرنا منصرما ومطلع قرن نعاني معيشته، وهي تعلن جميعا أنه لم يعد هناك وقت للاحتفال المعزول عن مخاوف التهديد.

وهذه المقالة تسعى إلى أن ترفع الصوت بنمط جديد من الاحتفال من منظور إيجابي يستهدف التنبيه السريع على التحديات التي تواجه اللسان العربي، وتدعو لحياطة هذا اللسان الشريف النبيل بما من شأنه أن يحفظ كرامته ويقيم اعتباره لما فيه تعافيه وصحته.

■ تحديات الوضع الراهن

بسبب من تغيرات حضارية واقتصادية وسكانية، أطلت مجموعة من علامات تهديد اللسان العربي. إن كثيرا من التحديات المتنوعة تضعنا في قلب الشعور بالأزمة وأعراضها. وقد استفاض هذا الشعور بالتهديد، وانتقل من الأروقة البحثية والعلمية إلى الفضاء الصحفي، وهو ما يعني تمدد الوعي بالحالة المعرفية الخاصة بتهديدات اللسان العربي. يقول فهمي هويدي في مقالته: «عروبة الخليج من واجبات الوقت» (جريدة «الشرق الأوسط»، ١٣ ديسمبر ٢٠٠٦م، عدد ١٠٢٤٢): «ثمة أسباب متعددة للهزيمة اللغوية التي مرت بها الأمة العربية، لعل أهمها حالة الهزيمة الحضارية والسياسية المخيمة التي جعلت المغلوب يسعى إلى تقليد الغالب وتمثله، ونحن نشاهد تجليات ذلك التقليد في مختلف نواحي السلوك الاجتماعي، الأمر الذي لا يستغرب منه أن ينسحب التقليد على لغة التعامل بين الناس. غير أن وطأة الهزيمة بدت أشد، وثمنها غدا باهظا في المجتمعات الخليجية التي تعاني الجذب السكاني، وتعتمد بنحو كبير على العمالة الوافدة التي جاءت بلغاتها المتعددة».

إن هذه الفقرة من هذه المقالة تستهدف تعيين العلامات التي تعكس التهديد الذي يحيط باللسان العربي، ذلك أن تعيين هذه العلامات هو المقدمة

الضرورية للمثاقفة حول استراتيجيات المواجهة لهذه المهددات.

■ التحدي الحضاري

يمثل التحدي الحضاري أهم العلامات التي تهدد اللسان العربي. والمقصود به: هو العجز العربي المروع في ميادين إنتاج المعرفة!

لقد تراجع المجتمع العربي تراجعا يرادف الموت، أو التوقف منذ قرون طويلة عن إنتاج العلم، وهو الأمر الذي انسحب بالضرورة على إمداداته المنعدمة للمعجم العلمي العالمي.

هذا الشعور الحاكم مستفيض في كتاب اللسانيين العرب الكبار المعاصرين. يقول سعد مصلوح في مقدمة ترجمته لكتاب إدوين غينتسلر في نظرية الترجمة: اتجاهات معاصرة: «(المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٧م بيروت، ص١٨) اللغة العربية لا يمكن أن تعد من اللغات المحدودة الانتشار، لا من جهة عدد الناطقين بها، ولا من جهة نفوذها الديني والثقافي في بلاد الإسلام. وقل مثل ذلك في وضع الثقافة العربية الإسلامية ودورها في تاريخ التطور الحضاري للفكر البشري، حضورا وتأثيرا. ومع ذلك، فإننا حين نشخص واقعة نجد - بلا ريب - أن لغة العرب وثقافتهم تكادان تكونان كلتاهما قابلتين للانضواء تحت القسيم الثاني الذي يتصف بمحدودية الانتشار وضعف التأثير».

إن هذا الذي قرره هذا اللسان العظيم، وإن كان جاءه بفحص سهمة العرب في نشاط الترجمة فهو صحيح جدا بفحص سهمة العرب المعاصرين في نشاط إنتاج العلم والمعرفة، ومن ثم تجديد اللسان وتجديد المعجم.

إن التراجع الحضاري للأمة العربية في أعلى تجلياته وأظهرها ينسحب بصورة مؤكدة على التراجع اللغوي للعربية، استعمالا ومعجما.

■ التحدي النفسي

يمثل التحدي النفسي واحدا من أهم التحديات التي تشكل واقع التهديدات التي تتعرض لها اللغة العربية في الوقت الراهن، ويمكن تلخيصه في أن العرب يعيشون حالة غرام مريض بالغرب!

لقد حاول كثير من المفكرين العرب المعاصرين المنتمين إلى الهوية اللغوية أن يشخصوا هذا التحدي النفسي، فكشفوا عما سموه الاستعداد للاستعمار، على حد تعبير علال الفاسي، ثم سمي القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، وهو المفهوم الذي استقر في بنية الفكر العربي المعاصر وظهر في تسمية واضحة تفسيرية في ما سبق نقله من فهمي هويدي باسم الهزيمة! وكل ذلك موصول بالقانون الذي أبدعه ابن خلدون قديما عندما قرر أن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

إن هذا التحدي النفسي يبدو أثرا ونتيجة من آثار التحدي الحضاري ونتائجه على المستوى النفسي والعقلي للشخصية العربية المعاصرة في الغالب.

■ التحدي السياسي

لقد استيقظت حركات التحرر الوطني في العالم العربي على آثار الفعل المجرم للاستعمار اللغوي في الشعوب العربية، فقادها الضمير الوطني، ومطالب تحرير الشخصية العربية إلى إعادة تقرير الارتباط باللسان العربي بما هو واحد من محددات الهوية العربية، التي خضعت قهرا لمحاولات استلاب لغوي بشع. ظهر هذا التقرير في دساتير الدول العربية جميعا بعد تحريرها، وتراكم الإعلان عن الارتباط باللغة العربية بما هي مقوم من مقومات الإنسان العربي والدولة العربية معا. لقد كان واضحا أن ضبط اللسان وإصلاح معجمه نشاطان سياسيان، على حد تعبير كلود حجاج في «إنسان الكلام» (ص٢٦٥).

ومع مرور الوقت، والتغيير الذي أحدثه الاستعمار العالمي على مستوى الاستراتيجيات، ظهرت آثار للتحدي السياسي تهدد اللسان العربي، ولعل أظهر هذه الآثار يتمثل في ما يلي:

أولا - تحدي معاندة الأقليات اللغوية: من مثل: النوبية والقبطية في مصر، والأمازيغية في دول المغرب، وغيرها.

ثانيا - تحدي تشجيع التعلم باللغات الأجنبية والحفاوة بمتعلميها في الأجهزة العليا في الأنظمة الحاكمة.

ثالثا - تراجع رعاية مطالب تحسين اللغة العربية في الدساتير العربية.

رابعا - تنامي الآثار السلبية التي أثارت الفصحى.

خامسا - انعدام الدعمين القانوني والتشريعي لتقدم اللغة العربية مع انعدام التخطيط لمستقبلها.

■ التحدي الاجتماعي

كان للتغير الاجتماعي الذي أصاب المجتمعات العربية، على تفاوت بينها، أثره في تنامي علامات تهديد العربية، ذلك أن التغيير السكاني (الديموغرافي) الذي أصاب منطقة الخليج تعيينا، وزيادة أعداد العمالة الأجنبية غير العربية فيها، أثر تأثيرا ظاهرا على تراجع العربية الفصيحة.

وهو خطر حقيقي دعا كثيرين أن يشعروا بحرج الوضع اللغوي العربي في هذه المنطقة تعيينا.

وكان للتفاوت المرعب في مستويات الدخول، وتغير أنماط الحياة اليومية، وشيوع النمط الاستهلاكي والسلوكي المنقول من الغرب، أثرها في تزايد الشعور بعلامات التهديد أيضا.

وكان لنمط الخدمات المقدمة إلى المواطن العربي في كثير من مجالات الحياة العامة، وانتشار وسائل الاتصال الحديثة المستوردة، أثرهما كذلك في تنامي علامات تهديد اللسان العربي. إن التغريب والبعد عن العادات والأعراف المنتمية إلى الثقافة العربية التي شكلها الدين كانا علامتين ظاهرتين في سياق قراءة التهديد، لاسيما أن تاريخ الدين هو بمعنى ما تاريخ للغة، على حد تعبير موريس اولندر في «لغات الفردوس» (في١٨٧).

■ التحدي الاقتصادي

إن تراجع معدلات الإنفاق الحكومي على التعليم، بوجه عام، وتراجع معدلات الإنفاق الحكومي على تعليم اللغة العربية وبرامج ترقيتها، يعد ملمحا ظاهرا جدا في سياق قراءة التحديات التي تواجه اللسان العربي.

ذلك في الوقت الذي تشهد اللغات الأجنبية، لا سيما اللغة الإنجليزية، زيادة حقيقية في معدلات الإنفاق والتمويل لمشاريع تعليم اللغة الإنجليزية ودعمها حكوميا.

ويؤازر هذا الثقافي للدعم المالي في الإنفاق والتمويل على تعليم اللغة الأجنبية مجموعة من العوامل المعينة من مثل:

أولا - الدعم القانوني والتشريعي الذي يعين على نشر اللغة الأجنبية داخل الحدود وخارجها.

ثانيا - تنامي ظهور برامج علمية بحثية تبشر بقدرات الإنجليزية مثلا في حركة العلم العالمي: لدرجة وصلت بعدد من اللسانيين المعاصرين إلى أن يحذروا من وجود لسانيين استعماريين من أمثال دافيد كريستال، على حد تعبير لويس جان كالفيه في «حرب اللغات والسياسات اللغوية» (ص٢٨٦).

إن هذه التحديات كاشفة بشكل مبدئي عن خريطة التحديات التي تصور علامات التهديد الذي يواجه اللسان العربي في الوقت الراهن، وعدم التنبه إليها مؤذن بالسير في طريق الإبادة اللغوية للعربية والتحديد اللغوي الأجنبي في فراغات ما تخلفه هذه الإبادة.

٣ - جهات تهديد اللسان العربي

لعل أخطر ما في أمر جهات تهديد اللسان العربي أنها صارت مؤسسات ضخمة، تتحرك عن وعي من جانبها، وغفلة من جانب أبناء اللسان العربي. وتتمثل هذه الجهات المهددة في:

أولا - النشاط الاستعماري (الغربي) على مستويات دعم اللغات الأجنبية في الداخل العربي، تمويلا وإنفاقا وتشريعا.

ثانيا - الروح التغريبية المدعومة من جماعات التغريبيين بين الداخل، وهي جماعات موزعة على كثير من المؤسسات الأكاديمية والإدارية والإعلامية.

ثالثا - غياب الإرادة السياسية للأنظمة الحاكمة في الغالب.

٤ - آثار التهديد

لقد خلف ازدياد التحديات وتعاون جهات التهديد عددا من الآثار السلبية التي انعكست على وضع اللغة العربية في الوقت الراهن، وهي التي يمكن إجمالها في ما يلي:

أولا - إضعاف اللغة العربية.

ثانيا - إضعاف الثقافة العربية.

ثالثا - إضعاف المقيم.

رابعا - إخفاء العرب.

إن هذه الآثار ربما تقود إلى ما يسميه الدكتور عقيل سعيد محفوظ بـ «الحلول»، وهو الأمر الذي تترتب عليه إزاحة اللسان وإزاحة ثقافة هذا اللسان، على ما جاء في كتابه «الأكراد واللغة والسياسة: دراسة في البنى اللغوية وسياسات الهوية» (ص١٠٩ وما بعدها).

٥ - استراتيجيات المواجهة

إن فحص المهددات والتحديات، التي تواجه اللسان العربي في

الوقت الراهن، يفرض مجموعة من سياسات المواجهة يمكن إجمالها في السياسات التالية:

أولا – إعادة تصدير حقيقة ربط اللسان بالدين

لقد كان مستقرا في الوعي العالمي في الأمة أن تفهم العربية من الديانة على حد التعبير المحكم الذي أطلقه الثعالبي في مقدمة كتابه «فقه اللغة وسر العربية». وهي سبيل ناجعة على طريق مواجهة التهديدات التي تواجه اللسان العربي، وهي سبيل تحفها مجموعة من العلائق الدينية والإيمانية تتعلق بالكتاب العزيز الذي هو عربي. والنبي الكريم الذي هو عربي أيضا، وهو ما ينبغي أن يشيع ويترسخ في البرامج التعليمية والإعلامية والبحثية معا.

ثانيا – إعادة تصدير حقيقة الربط بين اللسان والقومية

إن دراسات القومية دأبت، على اختلاف مناهجها ونظرياتها، على النظر إلى اللسان بما هو مقوم أساسي في بناء الشخصية القومية. ومن المدهش أن الباحثين في حقل القومية، على اختلاف نزعاتهم وتوجهاتهم الفكرية، يجمعون على هذا الذي نقرره. وهو ما يلزم إعادة إحيائه في برامج تربية المواطنين العرب من الوجهة القومية.

ثالثا – دعم الأبعاد العاطفية على طريق الارتباط باللسان العربي

إن إعادة بناء صرح عاطفي ووجداني نحو اللغة العربية تعد مقدمة أساسية في اتجاه مقاومة علامات التهديد التي تحيط بها.

ذلك أن الدعم الواصل للغة من وجدان أبنائها يمثل سلاحا ناجعا على المستوى النفسي والاجتماعي ويعد تمهيدا وتهيئة لإجراءات استعادة المكانة.

رابعا – إحداث تحول سياسي في الإرادات الحاكمة

إن التحول في الإرادة السياسية نحو مشاريع تطوير اللسان العربي، من شأنه تحقيق سرعة ملموسة في البرامج والتنفيذ العملي نحو تقوية حضورها في الحياة.

وترتبط بهذا المبدأ مجموعة من الإجراءات لا يمكن تحقيقها من دون تدخل مباشر من الدولة، تتلخص تحت ما يعرف بالتخطيط اللغوي.

والتخطيط اللغوي جهد حكومي في الأساس، على ما يقرر لويس جان كالفيه في كتابه «حرب اللغات والسياسات اللغوية» (ص٢٢، ترجمة: د. حسن حمزة، ومراجعة: سلام بزي حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ٢٠٠٨م): «تبدو السياسة اللغوية... مرتبطة بالدولة، وليس هذا خيارا نظريا، وإنما هو تقرير للواقع». وتتمثل خطوات ما بعد التحويل الإيجابي في الإرادات السياسية للأنظمة الحاكمة في البلدان العربية في ثلاث خطوات أساسية: وهي: (ص:٢٢٠):

١ – مرحلة التفكير في المشكلة اللغوية.

٢ – مرحلة التقرير واتخاذ القرارات.

٣ – مرحلة التطبيق، أو وضع القرارات موضع التنفيذ.

خامسا – تعزيز إنتاج المعرفة باللسان العربي

إن التحدي الحضاري، الذي يفرض تهديدا حقيقيا للسان العربي، يفرض مواجهته بتعزيز إنتاج المعرفة باللسان العربي عن طريق إجراءات منضبطة تتعلق بما يلي:

أ ـ إصدار حزمة من التشريعات الدستورية والقانونية الصريحة التي تدعم التعافي اللغوي للعربية.

ب ـ إصدار حزمة من القرارات والقوائم في الجامعات ومراكز البحوث القومية بشأن كتابة الرسائل العلمية والبحوث باللغة العربية، بما أنها اللسان الوطني للأمة.

ج. دعم المجامع اللغوية في حقول التعريب تعيينا.

د ـ التوسع في إنشاء معاهد مختصة في اللسانيات والتخطيط اللغوي على وجه التعيين.

إن التهديد الذي يواجه اللسان العربي شديد، وشدته واردة من تنوع أشكاله، وتنوع جهات صدوره بما يجعل مشكلة العربية مشكلة معقدة مركبة متجاوزة.

وهذا التنوع يفرض تنوعا حقيقيا في استراتيجيات المواجهة لتتوزع على الأذرع العلمية والاجتماعية والسياسية والإعلامية والتعليمية معا.

إن قضية مواجهة التهديدات التي تحيط بالعربية هي في الحقيقة قضية إحياء بالمعنى المادي أو البيولوجي أولا لأبناء الأمة العربية، ثم هي في الحقيقة إحياء بالمعنى العقلي والنفسي والحضاري لها مرة ثانية.

أمير البحار.. خير الدين بربروس

أحمد أمين
كاتب وباحث في التاريخ الإسلامي

يحفل تاريخنا الإسلامي بسير العظماء والقادة الذين تركوا بصمتهم واضحة على ما قدموه إلى الإسلام والمسلمين. لكن كثيرا من هؤلاء العظماء أصبحوا شخصيات حبيسة بطون الكتب؛ حيث ضن المؤرخون بذكرهم أو تناول سيرتهم العطرة، حتى استغل الغرب ذلك فقام بتشويه صور الكثير من شخصياتنا التاريخية، ولطخ تاريخها الناصع البياض.

فأردنا أن نزيح بعض الغبار عن سيرتهم وكفاحهم؛ لتستلهم الأجيال القادمة بطولاتهم وصولاتهم، ولتكون نبراسا لنا في طريق المجد والصعود نحو قيادة العالم مرة أخرى كما قاده هؤلاء المجاهدون.

من هذه الشخصيات أمير البحار المجاهد خير الدين بربروس ، أبرع من ركب البحر، وقاد السفن، وخاض المعارك الحربية البحرية، وفتح للمسلمين بلادا عديدة، وحرر كثيرا من البلاد المحتلة، ووجه ضرباته القوية المؤلمة إلى أعداء الإسلام، فكسر شوكتهم، وهزم جيوشهم، وذاع صيته في أوروبا كلها، وأطلق عليه الأوروبيون لقب: بربروس ، وهو يعني: ذو اللحية الحمراء.

وبلغ من شدة خوفهم وهلعهم منه أنهم كانوا يدعون في صلواتهم:

بربروس بربروس
أنت صاحب كل شر
ما كان من ألم أو عمل
مؤذ وجهنمي مدمر
إلا والسبب فيه
هذا القرصان الذي
لا نظير له في العالم (١)

ومن أجل تشويه صورته قام الغرب بإنتاج سلسلة أفلام ضخمة حملت اسم: قراصنة الكاريبي، وصور فيها المجاهد خير الدين بصورة وحشية ودموية، ووصفه بالخسة والنذالة؛ محاولا أن ينال من ذلك القائد العظيم الذي أذل قادتهم، وهزم جيوشهم، حتى إن كارلوس الخامس ملك إسبانيا كان يصرخ في قواده قائلا:

«لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك، فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروس» (٢).

الاسم والمولد والنشأة

هو خضر بن يعقوب، الملقب بخير الدين، ولد عام ١٤٧٢م في جزيرة لسبوس اليونانية، لأب من الانكشارية (٣) ترك في أبنائه حب الجهاد، وأم أندلسية كان لها الفضل الكبير في اهتمام خير الدين وأخيه عروج بمسلمي الأندلس فيما بعد (٤).

كان لبربروس ثلاثة أشقاء، هم: عروج، وإلياس، وإسحاق، شاركوه في جهاده البحري، وخاضوا معه المعارك، وقد استشهدوا جميعا في معارك حربية، بينما توفي هو في ٤ يوليو ١٥٤٦م في مدينة إسطنبول.

بداية الحركة الجهادية

عمل هو وإخوته في بداية حياتهم في التجارة البحرية، وعندما وجدوا فرسان القديس يوحنا (جزيرة رودس) عاثوا فسادا في سواحل المدن الإسلامية، وأن الإسبان احتلوا بعض المدن الإسلامية في المغرب العربي، اندفعوا إلى جهاد هؤلاء المعتدين بحريا.

كون خير الدين أسطوله البحري الصغير بمساعدة أخيه عروج، وبدأ رحلته الجهادية مهاجما بعض السفن الأوروبية الحربية، وأسر من فيها، ومبادلتهم بأسرى مسلمين.

وقد استعان خير الدين بالبحارة الأندلسيين الفارين من بطش محاكم التفتيش، واستفاد من مهارتهم العالية في صناعة السفن وقيادتها، وكانوا يشكلون جزءا كبيرا من طاقمه البحري.

وتوجه عروج وخير الدين نحو جزيرة جربة في تونس سنة ١٥٠٤م، واتفقا مع أميرها أبي عبدالله محمد بن الحسن الحفصي (٥) على أن يمنحهما ميناء حلق الوادي؛ ليجعلا منه قاعدة لهما مقابل أن يدفعا له خمس الغنائم التي يغنمانها، فوافق الحفصي، وعقد معهما الاتفاق.

وبدأت هجمات الأخوين تزداد قوة وشراسة، وتدفق عليهما المجاهدون من كل صوب وحدب، وبدأ أسطولهما الحربي في النمو، وهاجما به الأساطيل الأوروبية، واستطاعا – رغم قلة عدتهما وعتادهما – إلحاق أضرار جسيمة بتلك الأساطيل، وهزيمتهم في العديد من المواقع، وأسر جنود منهم، ونصب أكمنة، ومحاصرتهم، ومنع وصول الإمدادات إلى القوات الغازية لشمال إفريقيا، مما جعل الأخوين مصدر خطر على أوروبا في

ذلك الحين.

التحالف مع العثمانيين

بدأ عود أسطوله يشتد، فهاجم شواطئ جنوة والبندقية، وإسبانيا وإيطاليا، وأصبح وجوده مثيرا لفزع الدول الأوروبية. واستطاع الأخوان استعادة مدينة بجاية من الإسبان، وحماية الجزائر من هجماتهم، واتخاذها مقرا لهم.

وفي عام ١٥١٨ استشهد عروج، وتولى القيادة من بعده خير الدين، وأرسل إليه السلطان العثماني سليم الأول أسطولا بحريا، وعددا كبيرا من المدافع، و٢٠٠٠ جندي للعمل تحت إمرته، ومنحه رتبة بكلر بك، والتي تعني: القائد الأعلى للقوات الإسلامية في إقليمه، وأصبحت مدينة الجزائر تابعة للخلافة العثمانية، كأول مدينة في الشمال الإفريقي (٦).

وكان انضمام بربروس إلى العثمانيين بمنزلة طعنة رهيبة لقوى الاستعمار الأوروبي، وأصبح خير الدين حجر عثرة في طريق طموحهم الاستعماري، لذلك قام ملك صقلية هيكو دي مينكادا في سنة ١٥١٩م بحملة ضد خير الدين لكنها باءت بالفشل؛ لصلابة خير الدين وقوته وتصديه الباسل لتلك الحملة (٧).

وقد وجه خير الدين أسطوله نحو تونس وتلمسان وحررهما، وتمكن أيضا من طرد الإسبان نهائيا من قلعة البينيون، والتي كانوا قد احتلوها قبالة مدينة الجزائر، وكان ذلك عام ١٥٣٠م (٨)، حيث حاصر القلعة لمدة عشرين يوما، وقصفها بالمدافع حتى هدم أسوارها، واقتحمها مع جنده، وأسر قائد القلعة وكبار ضباطه.

ثم طلب منه السلطان سليمان القانوني فتح تونس، التي كان يحكمها مولاي حسن، آخر سلاطين بني حفص، وكان متعاونا مع الإمبراطور الأوروبي شارلكان (كارلوس الخامس)، وكان الشعب التونسي ناقما على ذلك الوضع، فتوجه خير الدين بأسطوله وفتح تونس (٩)، وسط ترحيب كبير من سكانها. وحكمها باسم العثمانيين، وعينه السلطان سليمان القانوني قائدا عاما للأساطيل العثمانية.

بعد توالي انتصارات بربروس، وفرض سيطرته على المتوسط والكاريبي، تداعى الأوروبيون للقضاء عليه، فتكون تحالف على رأسه البابا بفرسانه وإسبانيا وفرنسا والبندقية والبرتغال، وتم تجهيز أكثر من ٦٠٠ سفينة حربية؛ بغرض إنهاء سيطرة بربروس على المتوسط والقضاء على دولته.

وكانت المعركة في خليج بروزة، ٤ من جمادى الأولى ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م؛ حيث التقت أساطيل التحالف الأوروبي بأساطيل خير الدين، المكونة من ١٢٢ سفينة، ودارت معركة حسمت لخير الدين، الذي فاجأ السفن الأوروبية بهجوم غير متوقع، فتفرقت سفنهم، وفقدت تشكيلاتها العسكرية، فوقعت فيهم الهزيمة، ووقع أكثر من ٢٠٠٠ جندي في الأسر، وغنم ما يربو على ٣٦ سفينة حربية، وفرض خير الدين سيطرته وهيمنته كاملتين على البحر المتوسط (١٠).

نجدة مسلمي الأندلس

انتشرت هجمات خير الدين لتطول مدنا أوروبية ساحلية، إلا أن أعظم ما قام به كان إنقاذ كثير من مسلمي الأندلس من بطش محاكم التفتيش؛ حيث كان صريخ الموريسكيين يتوالى كل يوم طالبا النجدة والغوث مما تفعله بهم محاكم التفتيش.

فكان يتم الاتفاق سرا مع المسلمين أن يكونوا موجودين ليلا في أماكن محددة من شواطئ بلنسية؛ لتنقلهم سفن بربروس إلى مدينة الجزائر.

وقد ذكرت مصادر تاريخية أنه نقل أكثر من ٧٠ ألف مسلم، حملهم في ٧ رحلات بأسطول بحري مكون من أكثر من ٣٠ سفينة.

ولم يكتف بذلك، بل هاجم سفن الأسطول الإسباني، وأسر جنودا منه؛ ليقايضهم بمسلمين أندلسيين (١١).

وأصعب الرحلات التي تعرضت للمخاطر كانت عام ١٥٢٩م، حين أرسل بعض المسلمين الموريسكيين رسالة إلى خير الدين ليقلهم إلى الجزائر، فأرسل خير الدين نائبيه ريس صالح وإيدين ريس، واستطاعا جمع أكثر من ٦٠٠ موريسكي، لكن قبل مغادرة الميناء هجم عدد كبير من السفن الإسبانية، وتمت مطاردة رجال خير الدين حتى مياه الجزائر الشرقية (البليار)، لكن فجأة انقلبت سفن المجاهدين من الدفاع إلى الهجوم، ودمرت عددا كبيرا من السفن الإسبانية، وغنمت بعضها، وعادت إلى مدينة الجزائر سالمة، حاملة معها الموريسكيين، وبعض أسرى الإسبان (١٢).

غزو فرنسا

أثناء الحرب الدائرة بين ملك فرنسا فرنسوا الأول والإمبراطور كارلوس (شارل الخامس) حول دوقية ميلان (شمال إيطاليا)، استنجد فرنسوا بالسلطان سليمان القانوني وطلب مساعدته، فأرسل السلطان سليمان حملة كبيرة على رأسها أمير البحار خير الدين، فغادر إسطنبول في ٢٣ من صفر ٩٥٠هـ ٢٨ من مايو ١٥٤٣م. وفي طريقه إلى فرنسا استولى خير الدين على مدينتي مسينة التابعة لصقلية، وريجيو الإيطالية من دون مقاومة، ثم استولى على ميناء أوستيا الإيطالي، حتى وصل إلى ميناء مارسيليا الفرنسي، ورفعت السفن الفرنسية الأعلام العثمانية احتفالا بقدوم خير الدين ورجاله، ونجح خير الدين في استعادة ميناء نيس الفرنسي من حاكمه الإسباني، وتسليمه إلى الملك الفرنسي (١٣).

ميناء طولون

كان لمساعدة العثمانيين للفرنسيين أثر كبير، فقام الفرنسيون بالتنازل عن ميناء طولون، وتسليمه إلى السلطان العثماني، وتحول الميناء إلى مركز للقوات البحرية الإسلامية، ومن خلاله قام العثمانيون باعتراض الأساطيل الإسبانية التي كانت تهدد المغرب العربي.

وخلال إدارة المسلمين للميناء أخلت الحكومة الفرنسية الثغر كله للمسلمين؛ ليتحول إلى مدينة إسلامية، وارتفع الأذان في جنبات المدينة (١٤).

صفاته وأخلاقه

كان خير الدين يمتاز بالقوة والدهاء والإقدام والشجاعة، وكان سخيا كريما محبا للفقراء والمساكين، كثير العطف عليهم، قوي الإيمان بالله، ذا صلابة في الجهاد وقناة لا تلين، إلى جانب تصميم وعزم لا يتطرق إليهما أي ضعف، ونظرة صائبة خاطفة، لا تكاد تخطئ التقدير ولا التدبير، وجرأة واندفاع لا يباليان بالصعوبات، ولا يحسبان حسابا للعقبات، ودقة في السياسة، وتدبير الملك، وعبقرية ترافقه ساعة الحرب وساعة السلم.

وصفه المؤرخ التونسي ابن المضياف: «خير الدين هذا من رجال الدنيا، بل والآخرة، فهو كما قال بعض الأدباء: خير الدين والدنيا» (١٥).

قاد خير الدين حروب الإيمان، وحقق فوزا عظيما، واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات، والاستعداد الدائم للتضحية، والصدق، والشجاعة بكل أشكالها. ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له: «يجب ألا تنسى أن الإسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويك إلياس وعروج، وإن تماديت فيما أنت عليه وركبت رأسك فإن عاقبتك ستكون كعاقبة أخويك».

فأجاب خير الدين: «سترى غدا، وإن غدا ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وأن مراكبك ستغرق، وأن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة» (١٦).

وعندما حاصر شارلكان (كارلوس الخامس) ملك إسبانيا الجزائر خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ (محمد:٧)، وتقدم إلى الميدان ومعه رجاله، وقال لهم: «إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق؛ لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام».

فصاحوا كلهم: «الله أكبر»، وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم (١٧).

وفاة بربروس

كانت حملة خير الدين بربروس على ميناء طولون هي آخر حملة، فلم تطل به الحياة بعد عودته إلى إسطنبول؛ حيث توفي في ٩٥٣هـ - ١٥٤٧م، تاركا خلفه تاريخا عظيما سطره هو وإخوته بدمائهم الزكية التي سالت من أجل الدفاع عن راية التوحيد وحماية بلاد المسلمين.

الهوامش

(١) مجلة تاريخ وحضارة المغرب في كلية الآداب في الجزائر ١٩٦٩م، العدد ٦.
(٢) مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة د. محمد دراج، ص١٤٨.
(٣) الانكشارية: مقاتلون كانت تتم تربيتهم منذ الصغر على الجهاد والقتال في مدارس خاصة أعدها العثمانيون، تشبه المدارس الحربية حاليا.
(٤) انظر: أحمد توفيق مدني، حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص١٥.
(٥) انظر: المصدر السابق، ص١٥٨.
(٦) تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد، ص٢٣١.
(٧) انظر: حرب الثلاثمئة، ص٢٠٦.
(٨) الدولة العثمانية لعلي الصلابي، ص٢١٤.
(٩) انظر: الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد، ص٢٣٢.
(١٠) انظر: مذكرات خير الدين بربروس ، ترجمة د. محمد دراج، ص١٨٨-١٩٠.
(١١) دولة الإسلام في الأندلس نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ص٣٨٦.
(١٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(١٣) انظر: خير الدين بربروس والجهاد في البحر لبسام العسيلي، ص١٦٥-١٦٦.
(١٤) المصدر السابق نفسه.
(١٥) حرب الثلاثمئة بين إسبانيا والجزائر، ص٢٠٣.
(١٦) خير الدين بربروس ، ص١٧٠-١٧١.
(١٧) السابق.

غربة

مياسة النخلاني
قاصة يمنية

«أنا بخير يا أبي.. لا تقلق» قالها بصوت مخنوق، وهو يغلق هاتفه بعد مكالمة مقتضبة مع والده، اتصل على والده في تلك الساعة المتأخرة من الليل ليخبره أمرا ما، لكن سريعا تراجع عن قراره بالإخبار، واكتفى بالسؤال عن حاله وحال الجميع، وضع الهاتف جانبا وعاد لسريره، محاولا النوم لكن دون جدوى، وأخيرا ترك فراشه وتوجه نحو النافذة، فتحها على مصراعيها تاركا المجال لنسيم الليل البارد أن يغسل الهموم المتراكمة في صدره.

مرت ثلاثة أعوام منذ انتقل للعيش في منفاه الاختياري، لا تغيب عن باله اللحظة التي حلق فيها فوق السحاب، مغادرا بلده وأهله لأول مرة، عايش وقتها مزيجا متناقضا من المشاعر، شعر بالضيق يكتم أنفاسه، خاصة في اللحظة التي ودع فيها والديه وأختيه، لكن سريعا تبدل الضيق إلى شعور خفي بالسعادة، وسرحان وإبحار طويل بين طيات المستقبل الرائع الذي ينتظره على بعد آلاف الأميال عن وطنه وبيته.. تخيل الغد وهو يفتح له ذراعيه ويعوضه بغزارة عن ماضيه، تخيل نفسه وهو يرتقي سلم المجد، ويرتقي بأعلى قممه، نظرة الفخر والاعتزاز في عيني والديه ومن حوله.

بقدر ما أخافته فكرة الرحيل والاغتراب عن وطنه وأهله حينها، لكن سريعا أبعد المخاوف عن قلبه، وفكر بشيء واحد، تحقيق ذاته وطموحه، أن يصنع من نفسه شيئا ذا قيمة في هذا الوجود.

بعد تخبط وإحباط بعد الجامعة أصبح حلمه الوحيد أن يسافر بعيدا، أن يحقق ذاته ولو خلف البحار، بغض النظر عن الثمن الذي سيكون مضطرا لدفعه، المهم أن يخرج من عنق الزجاجة التي وجد نفسها محشورا فيها، خريج جامعي بتقدير ممتاز وعاطل عن العمل.

وما إن تحققت مساعيه أخيرا، وحصل على فرصة عمل في بلد آخر، حتى سافر دون أن يكلف نفسه حتى الالتفات إلى الوراء، ودع الجميع وفتح ذراعيه لاحتضان ذاته وأحلامه، كانت الوحدة والغربة قاتلة في بداية الأمر، لكنه تغلب عليها بالمزيد من العمل والانشغال، والتوقف عن التفكير بأي شيء آخر، سوى إثبات نفسه في عالمه الجديد وعمله.

احتاج وقتا لا بأس به للتكيف مع الواقع الجديد، وبدأ عمله الجديد بروح متقدة، مقررا الارتقاء إلى أعلى المستويات، محققا إنجازا حقيقيا، يسعد به قلب والديه، ويرضي فؤاده الشغوف بالعمل والإنجاز، لكن سريعا بدأت الأمور تأخذ منحى مختلفا، مع مديره الجديد أخذت الآمال تتقلص، يوما بعد يوم، بل وتتلاشى، عجز عن تقبل أسلوبه المتعالي في التعامل، ومحاولاته الجاهدة لقتل الطموح في أعماقه لتحويله إلى آلة لا تجيد سوى إنجاز ما يطلب منها فقط دون تفكير أو تدبر، حاول في البداية مجاراته، لكنه عجز عن رؤية طموحه يغتال أمام ناظريه لأجل حفنة من المال، أو حتى بعض الميزات الظاهرية، والتي لا علاقة لها بجوهره، وما أراد أن يكون عليه يوما ما.

ليجد نفسه بعد أعوام قليلة محشورا في زاوية أضيق، وحفرة أعمق وأظلم، فالاستمرار يعني وأد روحه المتيمة بصعود المعالي. وقرار الانسحاب والعودة يعني أن يخيب ظن عائلته ووالده الذي أنهكه المرض، وأصبح عاجزا عن العمل، معتمدا بشكل كامل عليه، وأن يجد نفسه مجددا في أول الطريق، للبحث عن الذات، وفتح أبواب المستقبل المجهول.

ترك وطنه وهو يبني أبراجا شامخة من الأحلام، وسريعا رآها تنهد أمام عينيه يوما بعد يوم، في ظل غربة قاسية لا يجد فيها من يسانده، أو يخفف عنه، سوى وحدة مؤرقة، وبدل رفع سقف أحلامه يجد نفسه مضطرا للملمة أشلاء طموح بدأ يندثر في أعماقه، لولا أن يلحق نفسه، ويعود إلى بداية الطريق، بحثا عن منفذ آخر، لا يكون الثمن فيه روحه وطموحه.

بدا له بعد تفكير عميق أن العودة إلى بداية الطريق، والتخبط والتلمس والبحث خيار صعب، لكن الاستمرار فيما هو فيه والابتعاد أكثر عن ذاته بل وقتلها من أجل إسعاد من حوله على حسابها أصعب وأمر...

أغلق النافذة، وحدق مليا في حقيبته التي تنام بهدوء على أرضية الغرفة، علقت على شفتيه ابتسامة باهتة، وعاد لفراشه لينام قليلا، فغدا أمامه سفر طويل... طويل جدا.

اتخذ قراره الذي لا رجعة فيه، سيعود لموطنه ولنقطة الصفر، ليبدأ من جديد، سيتحمل العواقب، وسيتحمل نظرات الخيبة في عيني والده، ودموع الحسرة على خدي والدته، ونظرات الحنق من أخته، سيتحمل مرارة البحث عن عمل جديد، هناك أو في أي مكان آخر، لكنه لن يتحمل أبدا فشله المبطن وضياع عمره وأحلامه، فأن يبدأ ليصل لما يريد، خير ألف مرة من أن يستمر في طريق لن يوصله لأي مكان، سوى مزيد من الفشل.

تعلم اللغة العربية عند أبناء المهجر

محمد علي الدراوي
باحث تربوي

لا يدرك الكثيرون أهمية اللغة في حياة الشعوب، ولا يدركون أن حفظ اللغة وضمان استمراريتها يكون بقدر محافظتنا عليها كأفراد ناطقين بها. إن عدم إدراك هذا الأمر كان سببا في انقراض كثير من اللغات واللهجات في العالم. وبانقراض تلك اللغات انقرضت وتلاشت معرفتنا بشعوبها وأقوامها وثقافاتها.

إن كل شعب من الشعوب يتمسك بلغاته الأصلية، ويحرص على استمراريتها، ويعتبرها اللغات الرسمية التي لا يمكن التنازل عن التخاطب بها، حتى وإن كانوا على دراية بلغات أخرى.

إن علاقة الإنسان باللغة علاقة قوية ووطيدة، فلا يمكن تصور الإنسان بدون لغة، إذ إن هذه الأخيرة قد رافقته منذ أن وجد على ظهر هذه البسيطة، ولأنها هي التي تترجم ما في مكنون نفسه، وتعبر عن مراده ومقصوده، وتحول واقعه إلى كلمات، ولأنه كذلك، هي التي تؤسس لمفهوم «الأنا»، كما قال إميل بنفنيست (١)، وهي من تؤكد وجوده، وتبرز ذاته أمام الآخر، فقد ربط معها علاقة روحية خاصة، لهذا فأينما وجد الإنسان وجدت اللغة، وأينما انعدمت اللغة فقد الإنسان.

لكن واقع الجالية العربية في أوروبا لا يعكس ذلك تماما، إذ إننا قلما نجد أحدا من أبناء العرب في أوروبا يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة وتعبيرا. بل إنها أصبحت لغة مهجورة عندهم، فهم لا يتواصلون بها حتى فيما بينهم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم وعيهم بأهمية اللغة، ودورها في الحفاظ على هويتهم، وعلاقتها القوية بدينهم الإسلامي.

فلماذا يا ترى لا يهتم أبناء جاليتنا في المهجر بلغتهم الأم؟ وما هي أهم العقبات التي تواجههم في تعلم اللغة العربية في بلاد المهجر؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لابد بداية من الإشارة إلى التحول الذي عرفه قطاع تدريس اللغة العربية للجالية العربية المقيمة بالخارج، إذ إنه انتقل من تعليم تحكمه فكرة «حتمية الرجوع» إلى البلاد الأصل، والتي سادت في السبعينيات، إلى تعليم يرتكز على فرضية البقاء التي أصبحت واقعا، خاصة مع ارتفاع وتيرة الهجرة في إطار التجمع العائلي. ويهدف إلى الاندماج في المجتمع المستقبل، مع الحفاظ على الهوية (٢).

وفي ظل هذا التحول، تغيرت وجهة المهتمين بتعليم اللغة العربية من أداة تخدم فكرة الرجوع إلى وسائل البحث عن سبل توطيد الاندماج والتوازن النفسي والثقافي للمهاجرين، خصوصا في صفوف الشباب.

ورغم الجهود التي تقوم بها الجهات المكلفة بالجالية والجمعيات بديار المهجر، فإن تدريس اللغة العربية يبقى جد محدود، ويواجه مجموعة من المشاكل، وقفت عليها شخصيا، انطلاقا من الدراسة الميدانية التي أنجزتها بفرنسا (باريس ونواحيها تحديدا) صيف ٢٠٠٨م، والتي اعتمدت فيها على ثلاثة أنواع من استمارات (٣)، وحوارات مع أساتذة ومؤطرين.

وقد قمت بدراسة ميدانية في إطار بحث الماستر لأهم التحديات التي تواجه تدريس اللغة العربية في المهجر، وتناولتها من ثلاث زوايا مختلفة:

- التحديات من وجهة نظر الأبناء.
- التحديات من وجهة نظر الآباء.
- التحديات من وجهة نظر الجمعيات.

وسأقتصر، بحول الله وقوته، في هذه المداخلة على المعوقات والتحديات التي تواجه الأبناء فقط.

معوقات تعلم اللغة العربية في فرنسا بالنسبة للأبناء.

في إشارة مهمة، وجب الوقوف عندها كثيرا وبنوع من المسؤولية، فإن نسبة ١٠٠٪ من أبناء الجالية في فرنسا، والذين شملتهم الدراسة، أكدوا اهتماهم بتعلم اللغة العربية. إذ تعتبر نسبة كبيرة منهم اللغة العربية لغتهم الأصل (٦٣,٧٪)، في حين يعتبرها البعض الآخر لغة الدين (٣٠,٣٪)، بينما قلة لم تتجاوز ٦٪ فقط اعتبروها اللغة الثانية.

إلا أن مستواهم في تحصيل اللغة العربية (الجدول الأول) ونسبة تمكنهم من الكتابة والقراءة (الجدول الثاني)، يعكس غير ذلك:

مستوى الطلبة في اللغة العربية			
لا يعتبر	ضعيف	متوسط	حسن
٢٥,٨٪	٣٥,٥٪	٢٢,٦٪	١٦,١٪

نسبة تمكنهم من الكتابة والقراءة			
لا شيء	الكتابة فقط	القراءة فقط	الكتابة والقراءة
٥٠,١٪	١٣٪	١٦٪	١٢,٩٪

هذه الإحصائيات التي بين أيدينا، تؤكد جليا أن هذه الرغبة الشديدة في تعلم اللغة العربية؛ باعتبارها مكونا أساسيا من مكونات الهوية الإسلامية والثقافة الأصلية – لا شك – أنها تصطدم بمجموعة من العراقيل تجعل أكثر من ٦٢٪ من الأبناء لا يتقنون اللغة العربية. فما هي يا ترى الأسباب الكامنة وراء هذا؟

كشفت النتائج الميدانية، النتائج التالية:

الصعوبات التي تعترض الأبناء	نسبتها
عدم اهتمام الآباء بتعليم أبنائهم اللغة العربية	٠٪
تعلم اللغة العربية لا يفيد في شيء	٠٪
صعوبة تعلم اللغة العربية	٥٤,٦٪
حصص اللغة العربية مبرمجة في وقت استراحتنا	١٥,١٪
عدد الساعات المخصصة لتعلم اللغة العربية غير كاف	٢٧,٣٪
هل تتحدث اللغة العربية داخل المنزل؟	نعم: ٤٨٪ لا: ٥٢٪
هل تتحدث اللغة العربية مع أصدقائك خارج المنزل؟	نعم: ١٩٪ لا: ٨١٪

انطلاقا من تحليل النتائج السابقة، يتبين أن ٥٥٪ من التلاميذ يجدون صعوبة في تعلم اللغة العربية، وهذا في حقيقة الأمر راجع إلى جملة أمور أهمها:

● عدم وجود رغبة كافية لدى الطالب، مما يشكل عائقا نفسيا أمامه لتعلم هذه اللغة.

● طرق التدريس التي تعتمدها المؤسسات المهتمة بتعليم اللغة العربية، خاصة المساجد، والتي تعتبر تقليدية تعتمد التلقين المباشر، مما يجعل عملية اكتساب اللغة مسألة صعبة ومعقدة عند الطالب.

● اعتماد المناهج التعليمية المستوردة من البلاد العربية، والتي لا تتلاءم والمستوى المعرفي للطالب في أوروبا من جهة، ولا تراعي الواقع الذي يعيش فيه من جهة أخرى.

● ملاحظة مهمة وأساسية: وهي أن أبناء الجيل الثاني والثالث جلهم لا يتقنون اللغة العربية، وعند البحث في الأسباب نجد بأن المدارس والمساجد التي تعنى بتعليم اللغة العربية لم تكن آنذاك بالشكل الذي هي عليه حاليا، ففي الضواحي الباريسية مثلا، لم يكن فيها في الثمانينيات والتسعينيات ما عدا المسجد الأكبر بباريس. في حين نجد اليوم عددا كبيرا من هذه المؤسسات، ولله الحمد، وهذا سيكون له وقع إيجابي على الجيل الرابع ومن سيليه.

مشكل آخر يطرح بحدة، وهو ما أكدته نسبة ٢٧٪، ويكمن في أن عدد الساعات المخصصة لتدريس اللغة العربية غير كافية بالنسبة لهم. إذ إن عدد الساعات في التعليم العمومي لا يتجاوز الساعتين أسبوعيا (وهي مدة غير كافية بطبيعة الحال)، أما في الجمعيات فهو في غالب الأحيان لا يتعدى أربع ساعات، توزع بين تدريس اللغة العربية وحصص التربية الإسلامية. وزيادة على ذلك فهذه الحصص - كما أكد ذلك نسبة ١٥٪ - مبرمجة في الأوقات المخصصة لراحة التلميذ، فالطالب بعد عناء الأسبوع، ينتظر يومي السبت والأحد ليرتاح ويستمتع باللعب، ليجد أمامه حصصا مثقلة من الدروس في انتظاره. فكيف ستكون نفسية هذا التلميذ؟ وكيف سيحب هذه اللغة التي تسلبه وقت راحته؟

ومن المعوقات التي تقف حاجزا أمام تعلم اللغة العربية، أن هذه اللغة غير متداولة في الوسط الذي يعيش فيه التلميذ: بمعنى داخل بيته وبين زملائه من أصول عربية، وهذا يعكس إلى حد كبير نجاح السياسة الفرنسية في إدماج الإنسان العربي بصفة عامة في المجتمع الغربي، وسلخه من هويته الأصلية فنسبة ٥٢٪ من الأبناء لا يتحدثون اللغة العربية، ولو في صيغتها العامية الدارجة، مع آبائهم داخل المنزل. ناهيك على أن أكثر من ٨٢٪ لا يتحدثونها مع زملائهم من جنسية عربية خارج المنزل.

كل هذه الأسباب وأخرى كانت عائقا أمام الأبناء لتعلم اللغة العربية. ومن ثم يجب على المهتمين بقضايا الهجرة، والمسؤولين عن الجالية، الانتباه إليها، ومحاولة إيجاد الحلول الناجعة لتخطيها، والمضي قدما نحو ترسيخ عنصر أساسي من عناصر الهوية لدى أبنائنا في ديار المهجر.

الهوامش

١- دفاتر فلسفية، إعداد وترجمة: محمد سيبلا، وعبدالسلام العالي، ص: ٧٤.

٢- الجالية المغربية بالخارج بين التعايش وبين تعلم اللغة الأصيلة والثقافة المغربية، أحمد نور الدين سوباتي، طوب بريس، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص١١١. انظر أيضا تحديات تواجه الأسرة المسلمة في الغرب، د. الطاهر مهدي، المجلة العلمية التي يصدرها المجلس الأوروبي للإفتاء، العدد ٨-٩.

٣- استمارات خاصة بالأبناء، وأخرى بالآباء، والثالثة خصصتها للجمعيات.

لما رأيت الفجر

محمد عباس
كاتب صحفي

لما رأيت الفجر يهمس راجيا قم للصلاة مسبِّحا وطهورا
عاهدت نفسي أن أهبَّ ملبِّيا ربَّ العباد وأرتجيه غفورا
أحيا الحياة كما يليق بعيشها عبد تفرغ للهدى مسرورا
وأهيم شوقا للقاء بخالقي عند الصلاة مَناسكا وشعورا
يارب يارحمن جئتك خاشعا وقصدت بابك ساجد النبضات
أدنو وعفوك لا يغادر سائلا أرجو القبول بواحة الرحمات
لا شيء يعدل ذكر ربك خاشعا فهو العليم بصادق الدعوات
سبحان ربي قد دنوت فراقني نور أهل فأيقظ النواما
ظمآن أنهل من بديع صفائه حيران أسأل ألتقيه سلاما
وريـاض حب بالأريج تزفني بين الملائك راضيا بسَّاما
سبحان ربك لا شريك لملكه فهو الكريم يجود بالإحسان
تنأى وتبحر لاهيا عن بابه بين الدروب وصولة الشيطان
فإذا انتبهت وعدت تطلب بابه فاضت يداه بوافر الغفران
الآن أسجد حامدا لا أبتغي إلا الرضاء من الإله وحسبي
عند الحساب أقول حبك ثروتي نوري وتذكرتي وكسبي
ولقد عبدتك مخلصا وشهادتي يوم الحساب الله ربي

من الإعجاز اللغوي القرآني

أ.د. مصطفى رجب
أستاذ أصول التربية - جامعة سوهاج - مصر

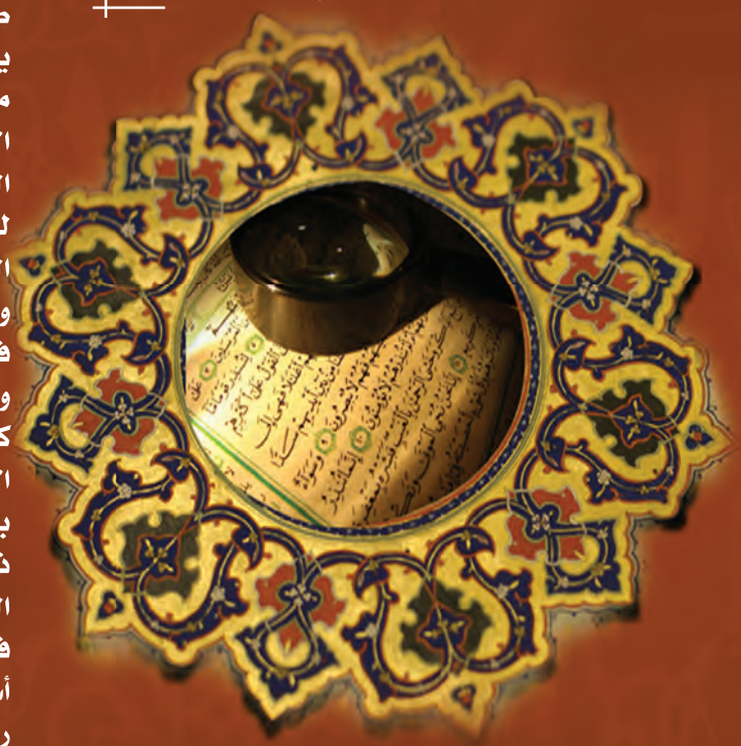

تثير آيات القرآن الكريم المتشابهة لغطا كثيرا بين طلاب العلم، لاسيما الذين يهجمون على الإفتاء - منهم - بغير علم. كما أن تلك الآيات المتشابهة تستوقف القارئ أو السامع العادي الذي لم يؤت حظا من العلم بعلوم القرآن الكريم، فيفكر فيها، وربما قاده تفكيره إلى إساءة فهم المراد بتلك الآيات.

والسطور القادمة تسعى إلى كشف ما قد يكون بين بعض الآيات من تشابه، وبيان ما بينها من فروق لغوية دقيقة، ذكرها العلماء ممن رزقهم الله تعالى البصر والبصيرة فتدبروا آيات الله، ووقفوا على أسرارها، وأوضحوا ما بينها من روابط تجعل التعبير القرآني خير قدوة للقارئين والكاتبين.

● يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (المائدة:١٣)..

ثم قال في السورة نفسها: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ (المائدة:٤١).

فما سبب الاختلاف بين الآيتين، أو بالأحرى بين الجملتين اللتين تتحدثان عن تحريف الكلم؟ لم قال مرة: «عن مواضعه» ومرة: «من بعد مواضعه» والسورة واحدة؟.

في مثل هذه الحالات التي يبدو فيها التشابه بين الآيات قويا ملحوظا يحسن بنا أن نعود إلى السياق العام الذي وردت فيه كل من الآيتين: وسنرى أن الآية الأولى نزلت في شأن اليهود الذين حرفوا كلام الله، ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به، كما دلت عليه الآية السابقة للآية التي بين أيدينا، إذ تقول الآية السابقة لها:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ (المائدة: ١٢).

ومن المعلوم أنهم بعد هذا الميثاق تطاول بهم العهد وهم ينقضون الميثاق يوما بعد يوم، فلا عبدوا الله، ولا وقروا رسله، بل قتلوهم، ولا أقرضوا الله قرضا حسنا.. فجاءت الآية التالية مصدرة بالفاء التي تفيد التعقيب، وبالباء التي تدل على السببية في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم حلت عليهم اللعنة.

وهنا كان لا بد للسياق القرآني أن يستخدم «عن» في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾. لأن «عن» في اللغة العربية موضوعة «لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقا زمنه لزمنه»، أي أن تحريفهم لكلام الله ونقضهم لميثاقه لم ينتظروا به طويلا، بل حدث هذا منهم قريبا من نزول هذه التعاليم إليهم. فمجاورة زمن التحريف لزمن التكليف وقربه منه جاء بالحرف «عن» للدلالة على تجاور الزمنين.

أما الآية الثانية: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ فقد وردت في سياق آخر يوضحه نص الآية كاملا.

إذ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (المائدة: ٤١).

فالسياق الكامل للآية يدل على أنها نزلت في قوم مخصوصين من اليهود على زمن نبينا محمد ﷺ تحالفوا مع قوم من المنافقين ممن قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وقد أرسل هؤلاء وفدا للنبي ﷺ يسألونه عن حكم زان محصن، وقالوا للوفد: إن أفتاكم محمد بالجلد فأقيموا الحد، وإن أفتاكم بالرجم فلا ترجموا الزاني.

فجملة ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾، وهي مقول قولهم لوفدهم - كما يظهر من الآية - جملة تفسيرية للجملة السابقة عليها: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ لأنهم فعلوا هذا وعندهم التوراة، فيها حكم الله معروف لهم في الجلد والرجم، فأنكروه ونصحوا وفد المستفتين نصحا يخالف ما استقر عندهم من شرع الله. فهنا جاءت «بعد» لتدل على استقرار كلام الله عندهم: أي من بعد طول عهد بهذا الكلام الذي يحرفونه عمدا. لأن «بعد» تفيد استقرار حكم ما بعدها.

● ويقول الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأعراف:١٠٧).

وقال في موضع آخر: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ (النمل:١٠)

قد يتوهم بعض طلاب العلم أن بين الآيتين تناقضا، وحاشا لله تعالى، فكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لكن سياق الآيتين مختلف. فالآية الأولى جاءت في سياق حوار برزت فيه قمة التحدي بين رسول الله موسى عليه السلام من جهة، وفرعون وسحرته وجنوده من جهة أخرى. وكان سحرة فرعون يسترهبون الناس بتحويل عصيهم إلى ثعابين وحيات تسعى. فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقي عصاه وهي - بقدرة الله تعالى - ستتحول إلى ثعبان عظيم، يلقف في جوفه كل ثعابينهم المزعومة. لتكون آيته التي سأله عنها فرعون - في السياق - من جنس آيات سحرة فرعون.

أما الآية الأولى فقد وردت في سياق أول حوار وقع بين رب العزة جل شأنه وبين موسى عليه السلام، حين ناداه ربه بالوادي المقدس - للمرة الأولى - فكان اهتزاز العصا شديد الوقع على نفس موسى عليه السلام، حتى بدت له كما لو كانت جنا يهتز. وحين نقرأ الآيات كاملة، ندرك مدى الرعب الذي حاق بهذا النبي عليه السلام حين توالت عليه المفاجآت، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠﴾ (النمل:٨-١٠).

● يقول الله تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ (النجم: ٢)

وقال الله في موضع آخر مخاطبا رسوله الكريم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ (الضحى:٧)

فكيف نوفق بينهما؟

والجواب أن الضلال المراد في سورة النجم هو الضلال في الدين، وفي أمور العبادة والنبوة والإخبار عما في الغيب. والغواية بمعنى اتباع الهوى. فالنفي هنا لتأكيد أمانة النبي ﷺ في التبليغ عن ربه، وصدقه المطلق في كل ما يأتي به قومه من أمور الدين الموحاة إليه من ربه.

أما الضلال الوارد في سورة الضحى فالمراد به الضلال في شؤون الدنيا المضطربة آنذاك - قبل المبعث - فقد كان محمد ﷺ يرى قومه - قبل المبعث - على غوايتهم يعبدون الأوثان ويعظمون شأنها. فيحار بين ولائه لقومه، وبين ما تأباه فطرته السليمة من أمور عبادتهم. فتصيبه من ذلك حيرة طال عهدها به، حتى كان يلجأ إلى الغار يتأمل السماء والنجوم، ويدرك أن لهذا الكون خالقا أعظم. فعبر عن فترة القلق والحيرة تلك بالضلال تشبيها لحاله - ﷺ - أثناءها بحال السائر في الصحراء على غير هدى لا يعلم طريقه. فالضلال هنا غير الضلال هناك.

● قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞۖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ (آل عمران:١٤٤).

فكيف يقول: «مات أو قتل» مع أنه أخبر في آية أخرى أنه لن يقتل، وذلك حيث يقول سبحانه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ (الزمر:٣٠)

وحيث قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)

والجواب عن ذلك أن صدق القضية الشرطية لا يتطلب صدق جزأيها، فحين يقول الله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ (الأنبياء:٢٢).

القضية في أصلها صادقة: أي لو وجدت آلهة أخرى لعم الفساد، لكن جزأيها كاذبان، فلا آلهة ثم ولا فساد. فليس معنى الآية أن الارتداد على الأعقاب مرتبط بحالتي الموت أو القتل فقط. بل هو واقع لا محالة.

وقال الألوسي في هذا المضمار قولا شافيا حين قال: إن كلمة «إن» لا تجري في كلام الله تعالى على ظاهرها بإيراد الشك في علمه تعالى بالوقوع وعدم الوقوع. بل يحمل الشك على اعتبار حال السامع، أو ما يناسب المقام، وقد وردت «إن» هنا - أي في هذه الآية - لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لعظم ما ذكر لهم. (روح المعاني: ٤:٧٧).

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ﴾ (آل عمران:١٢٦).

وقال في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ (الأنفال:١٠) قد يتوقف القارئ أو السامع أمام هاتين الآيتين، فيلاحظ أن الجار والمجرور «لكم» جاءت بعد البشرى في آل عمران، ولم ترد في الأنفال. وإن الجار والمجرور «به» قد جاءت بعد القلوب في آل عمران، وجاءت قبلها في الأنفال. فما السر؟

إن تأمل السياق الذي وردت فيه كل آية من الآيتين يدل على سر ورودها على هذا النحو. فآية آل عمران جاءت إخبارا للمؤمنين بما تحقق لهم من عون من عنده سبحانه في غزوة بدر، على نحو ما يظهر من الآيات السابقة على هذه الآية ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾.

أما آية الأنفال فقد وردت في سياق يدل على أن المؤمنين استغاثوا وطلبوا العون من الله. حيث يقول تعالى:

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ فلما جاءت «لكم» ملتصقة بالاستجابة الفورية لاستغاثتهم. أغنى ذلك عن مجيئها مع البشرى.

وأما تأخير «به» بعد «قلوبكم» فلأنه لما أخر الجار والمجرور في الكلام الأول (بشرى لكم)، وعطف الكلام الثاني عليه، أخر الجار والمجرور في الثاني كما أخره في الأول.

وأما تقديم «به» في الآية الثانية فلأن نفوس المؤمنين - وهم في حال كرب واستغاثة - أحوج ما تكون إلى التثبيت والطمأنينة.

والضمير في «به» عائد على إنزال الملائكة الذي هو موضوع البشرى. فتقديم الجار والمجرور هنا - وهو ساد مسد المفعول به - أدعى لتهدئة تلك النفوس المتطلعة إلى نصره وعونه.

والله تعالى أعلم.

القلوب الثلاثة

الحسن ملواني
كاتب مغربي

دخل متهالكا شاحب الوجه فاتر الأطراف، سأله الطبيب، فلم يعرف كيف يرد عليه، فهو لا يحس بأي ألم في جسده. وبعد لحظة من التردد، قال مجيبا: أيها الطبيب، أصارحك بأني لا أشكو من ألم ولا وجع، الوساوس تهاجمني بين فينة وأخرى، تارة أخال نفسي شريرا مغتصبا تحققت فيه كل صفات التوحش والنذالة بامتياز، وتارة يتبين لي استعدادي الفطري للبذل في سبيل إشاعة المودة والوئام والاحترام بين الناس، أرى قدرتي على أن أكون مرشدا بحلمي وحكمتي ونبل أخلاقي.

كان الطبيب يحدق فيه مركزا عله يعثر بين أقواله على شيء يفيده في العلاج، وحيث لم يجد شيئا قاطعه قائلا: علتك يا أخي بسيطة، لا تحتاج إلى دواء، بعد أيام سيزول عنك ما تعانيه.

نهض المريض خائبا، كان حزين القسمات مضطرب الأفكار، فالطبيب لم يقنعه بما يمكن أن يزيل عنه ما يقاسي.. كان حائرا يتساءل عن الدور الحقيقي للأطباء، فقد زار هذا وذاك، منذ خمس سنوات ولم يسمع منهم سوى الجواب نفسه، فهل الدواء ممنوع عليه وحده؟ أم أن علته لم يوجد لشفائها دواء بعد؟

انحرف بعيدا عن الشارع الرئيسي قاصدا شجرة وارفة الظل، أسند ظهره إلى جذعها، كان جاف الحلق مغرورق العينين، كان يحس أنه وحيد في زنزانة مظلمة سيختنق فيها بعد لحظة، أغلق عينيه المترهلتين ينشد سنة من النوم تخفف من الضيق الذي يطبق عليه.. فتح عينيه وإذا بشيخ وقور يربت على كتفه، فاستغرب استغرابا، واختلط لديه الحلم بالواقع.. حياه فرد عليه التحية بشفتين مرتعدتين، ابتسم الشيخ في وجهه، ثم رفع عينيه نحو الأفق وكأن شيئا لاح له من بعيد. ثم قال: اسمع يا بني، إني أتوسم في وجهك الخير والسداد، وأعرف أنك تعاني، وربما زرت أكثر من طبيب بلا جدوى.. تعجب المريض، فمن أين له أن يعرف ذلك كله؟

قال الشيخ وهو يربت على ركبته: مرضك ليس من بدنك، مرضك من قلبك، فقلبك مريض بعد أن كان سليما، وأعلم كما تعلم أنك عشت سنوات بقلب سليم يقبل الحق من صاحب الحق، كنت منيبا إلى الله متوكلا عليه، كانت حركاتك وسكناتك منقادة لأمر العبودية وطلب التقرب إليه سبحانه وتعالى.

وحين هاجرت من بلدتك الجميلة بأناسها البسطاء الطيبين حللت بتلك المدن الغريبة، فتلوثت أفكارك وتغيرت رؤيتك الصافية للعالم، ويوما بعد يوم صار قلبك مريضا، والقلب المريض حين يشتد عليه المرض يصبح بابه سهل الانفتاح لاستقبال الشبه والشكوك ووساوس الشيطان، فإن خف مرضه رجع بصاحبه إلى التفكير في الحق والعتاب على التقصير.. وبتقلب القلب المريض، يعيش المرء متاعب نفسية تفوق الوصف.

كان المريض يصغي إلى الشيخ فشعر بالطمأنينة تسري في أعماقه شيئا فشيئا، كان يقول في نفسه: الآن فقط وجدت الطبيب المعالج، الآن جاء الشفاء.

تهيأ الشيخ للانصراف ثم عاد فقال للمريض: لقد نسيت أن أخبرك أنك محظوظ لأن قلبك لم يمت بعد، فالقلب الميت أسوأ حالا من المريض، القلب الميت مرتع للشهوات بكل الأنواع، لا يردع صاحبه عنها لا العبد ولا المعبود، يتصرف وفق هواه ولا يفكر في مولاه.

أشاع قول الشيخ مزيدا من السكينة والفرح في قلبه، وشعر أنه وجد بابا نحو طريق الشفاء.. وحين هم الشيخ بالمغادرة، سأله المريض: أيها الشيخ الطيب الفاضل الحكيم، لم تصف لي دواء! قال: عليك بالرجوع إلى سيرتك الأولى، حين كنت في بلدتك تؤمن بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٨-٨٩)، كان قلبك آنذاك خاليا من كل شهوة تبعدك عن نور الله، تبحث عن الحسنات وتخاف السقوط في الزلات.

يا بني، عليك بتقوى الله وكفى.

انصرف الشيخ.. لم يعد المريض يراه، وكان يفكر في أمر القلوب الثلاثة: سليم يطمئن صاحبه، ومريض يعذب صاحبه، وميت يميت همة وأخلاق صاحبه.

قصة قصيرة

إلى أين؟

محفوظ أمين غريب
أديب وتربوي

همهمت وهي تمرق من باب المحكمة إلى الشارع: شكرا لك يا ربي، فقد فرجت كربي. وغامت عيناها بدموع، فتثاقلت خطواتها، وعندما مدت يدها لتلتقط منديلا من حقيبتها المعلقة على كتفها، آنست من وراء دموعها من سايرت خطواته خطواتها وهو يهمس إليها برقة وحياء: إلى أين؟ بوغتت به، فرنت إليه ثم رنت وهي تكفكف دموعها لتوقن أنه هو، فلما أيقنت أجهشت ببكاء هزها هزا.. رفرف قلبه مذبوحا بدموعها، وهمس إليها مرة أخرى: إلى أين بعد أن شاء الله لك اليوم ميلادا جديدا على يد القاضي؟ لا تحسبي أني بسؤالي هذا أعبر عن مجرد عطف عليك، فأمري معك أسمى من ذلك على الإطلاق، وأنت كما عهدتك تقدرين الأمور حق قدرها. أسرعت تقول شارقة بدموعها: سؤالك الذي يأسو قلبي المكلوم مكرمة منك لا أستحقها، فلقد غدرت بك من قبل.. وعاقها سيل دموعها عن مواصلة الكلام.. همس إليها: لا أملك يا عزيزتي إلا أن أدعك تبكين لعل ذلك يريحك. وآثر أن يجنح في تهاديه بسيارته محاذيا شاطئ النيل؛ أملا في مزيد من الراحة لها. ثم راح يسترجع ذكرياته معها: لقد خفق قلبه لها حين التقيا في بداية دراستهما بكلية الحقوق، ولاتزال جنبات نفسه تشرق بما حببها إليه.. إنه لا ينسى يوم أن قالت له وهي تنظر بإجلال إلى قبة جامعة القاهرة: الدراسة الجامعية إن لم يكتسب منها الدارس أسلوبا كليا قيما في التفكير يسير حياته كلها، فحاله يوافق دعاء: اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع. عرف معها بقلبه وعقله الحب الحقيقي، لم يكن ذلك الحب نابعا من هوى خلب العين وأملته عليه رغباته، بل جاءه من شخصية يزينها الحياء والاحتشام، وتجل العلم والعلماء، ويعمر قلبها حب أهلها.. وتعاهدا على تتويج حبهما بالنهاية المشرقة التي شرعها الله، ولكن.. آه.. توجع بلسان الحال، ثم ازداد بلهيب الذكريات توجعه: آه ممن لا يستفتون قلوبهم ويستسلمون، ولفتوى من يروجون إفكا شاع في مجتمعنا أخيرا، وهو أن عواطف القلب إذا لم توافق ما يحكم به العقل من ماديات فلتذهب العواطف إلى الجحيم؛ لأنها لا تبني بيوتا ولا تشبع بطونا، وهو لا يزعم أن جارته الباكية استسلمت طوعا لإفك ماديات العقل، ولكنها اضطرت إلى الاستسلام غير باغية ولا عادية، فلا إثم عليها، وهذا ما تيقنه حينذاك. فلقد خرج هو وهي بعد إتمام الدراسة الجامعية إلى الحياة العملية.. أما هو فقد لمس فيه أحد كبار المحامين بالقاهرة ولعا بمهنة المحاماة واستعدادا طيبا لها، فألحقه بمكتبه براتب شهري زهيد، رضي به كل الرضا عازما على تنميته بإتقان عمله والجد فيه. وأما هي فكانت تعلل نفسها بأمل ترقبه لتكون عضوا قانونيا في ديوان حكومي أو مؤسسة خاصة بالقاهرة، فتدلي بدلوها في الفصل في قضايا العاملين. وكأن إفك ماديات العقل قد أصدر حكمه بالتفريق بين قلبيهما، فبينما هو يسعى حثيثا ليخطبها إلى أهلها، داهمه في يوم عصيب نبأ إقدام شاب من جيران أسرتها بحي الحسين ليتزوجها ثم يطير بها إلى دولة خليجية، حيث يعمل مدرسا للرياضيات، فأسرع ملهوفا زائغ البصر حتى كاد أن يضيع من قدمه الطريق من مسكن أسرته بحي الأزهر إلى مسكن أسرتها، ولما حدث أباها، سارع، رغم ما بدا عليه من حنو بالغ، إلى ما يراه لب الموضوع قائلا: يا بني، العواطف تحلق بنا في آفاق الخيال، ولكن علينا أن نسمح للعقل أن يهبط بنا إلى أرض واقعنا، فواقعك يخبر بأن راتبك الشهري متواضع، وأنك ابن أسرة كادحة مثل أسرتنا، فلن تستطيع تأجير شقة الزواج أو شراء أثاث الزواج وغير ذلك من مطالب الزواج، وواقع أسرتي الكادحة يخبر أيضا بأن ابنتي تعضها البطالة بنابها، فلا راتب لها يدعم راتبك، وبأن ابنتي يسبقها في الميلاد شقيق يحمل مؤهلا جامعيا، ويصارع هو أيضا البطالة، وقلبي شفيق عليه وعلى أمثاله من الشباب الذين يصارعون البطالة وتحاصرهم في مجتمعنا مغريات الانحراف.. وابنتي يا بني، يتلوها أيضا ثلاث شقيقات طالبات علم وعبؤهن في التعليم ينوء بنا. ولما حاول - مطأطئ الرأس- الرد على أبيها بادره خالها ليوضح بغلظة قلب تجلت في كلماته: إن كان عندك حد أدنى من الفهم

فافهم ما سمعته الآن من ولي أمرها، ولا تكن مناعا لخير عاجل من غيرك انتظارا لوهم آجل منك، أنت الذي ما برحت تهيئ نفسك لخطبة لا نعرف مداها، بينما تقدم إلينا من أعد العدة كاملة ليتزوجها لا ليخطبها، ثم يطير بها إلى الخليج لتشاركه في تحصيل مال كثير.. وإن أردت مزيدا عن قدره، فالناس في حينا وأحياء مجاورة يلقبونه بالملك، يعنون ملك الدروس الخصوصية. التاع فؤاده بقذائف لسان خالها فهمهم: وهل ضمنت الأمن لابنة أختك مع ملك الدروس الخصوصية، الذي أفسد هو وأمثاله مجال التربية والتعليم، وأبوا أن يكونوا الرعاة المسؤولين عن رعيتهم التلاميذ والطلاب، وجعلوا أهليهم أذلة بخوف دائم على مستقبل أبنائهم وباغتصاب أموالهم قوام معيشتهم؟! وهم أن يجهر بهمهمته هذه لولا أن رأى نظرات خالها النارية مصوبة إليه في تحد قاتل زاده شعورا بفقره وبأسه، فلم يجد لسانه ليجهر، وشرق بدموع كادت تنفجر من عينيه، لكنه كظمها؛ ليبقي على كرامته ورجولته أمام الرجلين، ثم قام مستأذنا بالانصراف لا يكاد يرى طريقه من حجرة الاستقبال إلى باب الشقة فاصطدمت قدمه بقائم مائدة الطعام فتوقف لحظات ثم مرق من الباب ليهبط على السلم، ولما بلغ باب البيت أسند إليه ظهره وقد تفجر نهر دموعه، وبعد دقائق حزم أمره فتماسك ودلف إلى الطريق هائما على وجهه، حتى احتضنه مسكن أسرته، وهناك بات ليلة أفزعه فيها ما أفزعه من كوابيس وأضغاث أحلام، فكانت ليلة لن ينساها ما دام حيا، ولكنه في صباحها جمع شتات نفسه عازما العزوف عن الزواج وتجنيد ذاته بكل طاقتها للتفوق في عمله وتنمية قدراته المالية ما استطاع إلى ذلك سبيلا حلالا... وهاجته ذكرياته أكثر وهو يتذكر أنه مضى بعد زواجها حين من الدهر ما انقطع طيفها عن مشاغلته ليل نهار، حتى جاء يوم هلع فيه قلبه أشد الهلع، إذ رآها من دون أن تراه في المحكمة تحادث أحد زملائه المحامين، فأسرع إلى زميله يتساءل عن أمرها، فأنبأه أنها وكلته من قبل في قضية، والحكم يصدر في الجلسة المقبلة. وبلباقة طلب من زميله توضيح وقائع قضيتها، فأطرق الزميل لحظات ثم قال: إنها ابتليت بزوج له شخصيتان، بدت الأولى قبيل الزواج: شخصية تتجمل في القول والفعل، فتخدع المتعامل معها دون مخالطة. وتجلت الشخصية الثانية حين اقترنت به وشاركته الحياة اليومية تحت سقف واحد، إذ غلب طبعه تطبعه، فتبين لها أنه ما اقترن بها إلا لميل شهواني، وأنه من ذلك النوع من الرجال الذي لم يوق شح نفسه، وبدافع من بخله وحبه المال حبا جما، سامها سوء العذاب، النفسي والبدني، ولم يرحمها في غربتها بعيدة عن أهلها ووطنها، فعيرها بفقر أهلها وأضناها بتقتير عليها في المعيشة، رغم دخله الوافر من راتبه ودروسه الخصوصية، واغتصب منها مالا رزقت به من عمل زاولته في ذلك البلد الخليجي، ولما عادت معه إلى الوطن فاجأها بأنها وقعت على «شيك» يدخلها السجن، فدهشت وتحيرت وسألت نفسها عما إذا كانت قد وقعت بخدعة منه وهي ذاهلة بتأثير نوبة من نوبات عذابه في الغربة؟ ثم واصل هذا الزوج إرسال تهديداته ومساوماته المادية إليها لتتنازل عن حقوقها الشرعية فيطلقها، ولكنها أصرت على اللجوء إلى القضاء للحصول على الطلاق.

رجز ذكر الطلاق البغيض مشاعره رجا انتشله من ذكرياته، فجنح بسيارته إلى منعطف يلفه الهدوء وتوقف، ثم استشعر أن قلبه يداعبه قائلا: ها هي بجانبك بعد أن حرصت أنت اليوم حرصا على حضور جلسة المحكمة التي حكم فيها القاضي بالطلاق، فهل تكرر إليها سؤالك إلى أين؟ فلما هم بالسؤال أمسك عن الكلام إشفاقا عليها، فقد رأى علامات معاناة وأسى بالغ تغمر وجهها، ثم عاوده قلبه يحثه على انتشالها من الأسى والمعاناة، فاتجه إليها قائلا: يا عزيزتي، أنا وأنت من ضحايا حقبة سوداء استحوذت فيها على سير أمورنا في مجتمعنا نزعة مادية جائرة، احترقت بنارها قلوب الكادحين أمثالنا، ولسوف يظل أولو القلوب السليمة في مجتمعنا يتساءلون حائرين: إلى أين نمضي مع تلك النزعة المادية وقد ظهر الفساد في برنا وبحرنا بما كسبت أيدي أنصارها؟ وها أنا يا عزيزتي أسألك بالله أن تنقذيني وتنقذي نفسك بالإجابة عن سؤالي: إلى أين أنت وأنا بعد أن أصابنا ما كتب الله لنا لحكمة شاءها؟

واسمحي لي قبل أن تجيبي عن سؤالي أن أقول: لا سبيل لنا إلى برد وسلام بعد النار التي اكتوينا بها إلا أن تقبلي إشهار زواجنا في الوقت المناسب في رحاب الله بالمسجد.

أشرقت نفسها بلطف كلماته الطيبة ونبل سؤاله، فأطرقت وهي تهمهم: أهكذا أنت بعد أن لوعت ولوع أهلي فؤادك؟ سبقك من تزوجني بهواه المادي فأهانني، وها أنت بقلبك السليم تتمنى أن تتزوجني لتكرمني، فما أعظم الفرق بينكما، وما أعظم قدرك بين الرجال، وغمرها شعور بأن رأسها يلامس السماء وهي تجهر له بالإجابة عن سؤاله: إلى رحاب الله بالمسجد.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٣٠)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

في البداءة لهذه الحلقة اللغوية أؤكد بما لا مرية فيه، أنه قبل الإقدام على الكتابة في هذا الموضوع لم أكن على بصيرة وافية على ما ستسلمني إليه مباديه من محطات ليست لها حدود، لذا كان من حظ هذه الحلقات الاستمرار؛ كل حلقة تولد أخرى، من دون أن يلوح في الأفق أنها ستلقي عصاها التي تهش بها على العبارات الكسولة التي تنتشر في أجواء العروبة، مثل قولهم: «خطأ شائع أحسن من صواب مهجور»، أو ترديدهم لعبارة: «اللغة عبارة المتكلم عن مقصوده» من دون اشتراط الصحة والسلامة في أثناء الاتصال والتواصل. وبما أن الكتابة عن اللغة رحلة دائمة تسعى إلى تصحيح رؤية الأناسي لما يجب أن يكون عليه المشهد اللغوي العربي، رغبة في الارتقاء بتلك النظرة نحو الأفضل والأجود؛ الذي لا نعثر فيه على شائنة تجعلهم يخرجون من الفصحى أفواجا وزرافات نحو لغات الواقع، من دون أن يدركوا مبلغ زلتهم التي تجعلهم يتساوون مع الهوامل والغوغاء، لأن الواقع من الوقوع والسقوط والنزول بعد البزول. فهل نرضى للغتنا الفصحى التي يتعبد بتلاوة قرآنها أن تنحط وتنزل من مساكنها الفارهة التي أسكنها فيها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر العربي البليغ، إلى الواقع، حيث الغثاثة والفهاهة والإسفاف والجهل والتحريف والتصحيف الذي انتشر بوغاؤه في أجواء العروبة، مشرقا ومغربا؟

الحق أن التصحيف والتحريف

اصطلاحان متقاربان قد عرفتهما الفصحى مذ كانت الكتابة العربية، من خلال تغيير الكلم عن مواضعه وتحريفه عن معناه الصحيح، إما بتبديل الأحرف المتشابهة الأشكال ورسمها، أو بالالتباس في نقط الأحرف مثل: «التاء والثاء والسين والشين والعين والغين والجيم والخاء والحاء والراء والزاي والصاد والضاد...»، فإذا كان التغيير يخص النقط، فذلك هو التصحيف، وإن كان التغيير يمس حركات المباني فذلك هو التحريف الذي يجعل الكلمة تنطق بغير ما قصد صاحبها. وقد تنبه علماء اللغة القدامى إلى هذه الظاهرة فألفوا فيها كتبا مثل: أخبار المصحفين لأبي الحسن بن عبدالله العسكري، والمؤتلف والمختلف للآمدي، كما عقد ابن جني بابا في الجزء الثالث من كتاب الخصائص بعنوان: «في سقطات العلماء» أشار فيه إلى تصحيفات الأصمعي والفراء وأبي عمرو الشيباني وغيرهم، ومما جاء فيه من السقطات التي أخذها خلف الأحمر على المفضل الضبي قوله عن امرئ القيس:

نمس بأعراف الجياد أكفنا

إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

فقلت له: عافاك الله! إنما هو نمش أي: نمسح، ومنه سمي منديل الغمر مشوشا (١). وكذلك فعل السيوطي في «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» حيث قال: صحف حماد بن الزبرقان ثلاثة ألفاظ في القرآن، لو قرئ بها لكان صوابا؛ وذلك أنه حفظ القرآن من مصحف ولم يقرأه على أحد: اللفظ الأول «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها» أباه، يريد إياه. والثاني: «بل الذين كفروا في غرة وشقاق» يريد في عزة. والثالث: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن» يعنيه، يريد يغنيه (٢). وقد كان حماد الراوية يصحف آيات قرآنية كثيرة كما ذكر العسكري في «أخبار المصحفين» منها: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾ (النحل:٦٨) قرأها: ومما يغرسون. وفي قوله تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ (البقرة:١٣٨) قرأها: صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة، وفي رواية أخرى: صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ (القصص:١٥) قرأها: فاستعانه الذي من شيعته، وغيرها مما يرهق تتبعه. ولذلك، قال عنه الثقات: «وسمعت يونس يقول: العجب ممن يأخذ عن حماد، وكان يكذب ويلحن ويكسر» (٣). وقد كان الأوائل يحترسون من هذه الظاهرة كما يحترسون من أشنع المعايب، لمعرفتهم أن اللفظ المصحف أو المحرف قد يبنى عليه رأي في اللغة أو في الفكر أو في العقيدة، كما وقع للنصارى؛ حيث ذكر السيوطي أن النصارى كفروا بتصحيف لفظة «نبي» عندما قال تعالى لعيسى في الإنجيل: «أنت نبي ولدتك من البتول» فصحفوها وقالوا: أنت بني ولدتك من البتول. هذا هو حال العرب ساعتئذ، وقد كانت العربية عاطلا عن الشكل والإعجام إلا قليلا، فما بال المجتمع اللغوي اليوم الذي انتشرت فيه وسائل النشر والطباعة، لا يتورع عن التقادع في هذه الظاهرة كما يتقادع الفراش في النار؟ وآية ذلك التصحيفات الآتية التي تكررت على ألسنة الصحافيين وبعض الكتبة المنشئين حتى تكرجت، مثل قولهم: * يجمع في كلامه بين الغث والثمين. وقولهم: * البت الفضائي المباشر للأخبار. وقولهم: * الدرة من اللبن، بكسر الدال. وهي تصحيفات خرجت عن مهيع الصحة والسداد، لم تبصر بضروب الإصابة لما تريد الصدع به، ولم تتنبه للموضع الذي تصلح فيه كل لفظة مع أختها، لأن لفظة «الغث» لا يعارضها إلا لفظة «السمين». قال الشاعر المثقب العبدي مخاطبا عمرو بن هند بعد أن أعرض عنه مخيرا له بين المحافظة على الود أو الهجر والقطيعة:

فإما أن تكون أخي بحق

فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطرحني واتخذني

عدوا أتقيك وتتقيني

كما أن البث الفضائي بالثاء، أما البت بنقطتين فهو الحسم. أما الدِّرة فتعني: السوط يضرب به، ومن معانيها الرواج، ولذلك يقال: للسوق درة. أما الدرة بفتح الدال فهي المقصودة باللبن، والدرة هي اللؤلؤة أو الببغاء الصغيرة.

الهوامش

(١) الخصائص: أبوالفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الجزء الثالث، ص٢٨٧، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، شرح وضبط: محمد جاد المولى بك، محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الجزء الثاني، ص٣٦٨و٣٦٩، ط١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م، المكتبة العصرية. صيدا، بيروت.

(٣) طبقات فحول الشعراء، محمد ابن سلام الجمحي، قراءة وشرح: محمود محمد شاكر، السفر الأول، ص٤٩، مطبعة المدني، القاهرة.

للحافظ ابن حجر العسقلاني

الإصابة في تمييز الصحابة

التحرير

أصل كتاب الإصابة أن ابن حجر لما طالع كتاب ابن الأثير (أسد الغابة) رأى أن فيه فوتا كثيرا، وخلطا لبعض الصحابة ببعض، وكذلك وقع في (التجريد) للذهبي، فجمع هذا الكتاب، وله قيمة كبيرة، حيث ألفه ابن حجر في مدة تقارب الأربعين سنة. بداية من (٨٠٩)، وحتى (٨٤٧هـ)، كما نص عليه قبيل شروعه في باب الكنى، ألفه في قمة نضوجه العلمي، حيث كان إتمامه لاحقا لكثير من كتبه الكبيرة: كفتح الباري، وتهذيب التهذيب، وتقريبه، ولسان الميزان، وتغليق التعليق.

وللكتاب ترتيب ابتكره الحافظ، وهو مع جدته صعّب الاستفادة من الكتاب، بحيث يضطر الباحث عن اسم رجل إلى استعراض الأقسام الأربعة أحيانا، ولو أن الكتاب ترك على الترتيب المعروف، ونبه الحافظ في مقدمة كل ترجمة إلى وصف الرجل بكونه بالغا أو طفلا أو مخضرما، أو ذكر خطأ، لكان أسهل في الوصول إلى المراد فيما يبدو، والله أعلم.

وكتاب الإصابة يكشف عن اطلاع واسع مدهش لابن حجر، ويقضي له بالرسوخ والنبوغ، وفيه من الفوائد شيء عظيم، فمن أهم ذلك - سوى تمييز الصحابة -: التنبيه على أوهام من سبقه في هذا الفن، كابن عبدالبر، وابن قانع، وابن شاهين وأبي موسى، وابن الأثير والذهبي، وابن منده، وأبي نعيم، وعلى ذكر الأخيرين، فإن الكتاب حافل بالمحاكمة بينهما، وقد عقب ابن حجر مرة بتعليق مهم حين قال: (٦٢١/١٢): «أبونعيم لا يزال ينسب ابن منده إلى الغلط، فيصيب في ذلك تارة، ويخطئ تارة، ولو سلم من التحامل عليه لكان غالب ما يتعقبه به صوابا». ومن فوائده: بيان أغلاط من غلط في الصحابة، من شراح الحديث والفقهاء. ومن فوائده: جمع طرق بعض الأحاديث، والبحث عن متابعات لها - خصوصا من كتب تراجم الصحابة -، والحكم على بعض الأحاديث والقصص، وإيراد بعض أشعار الصحابة، وهو مقل في هذا، مقارنة بمن سبقه. ومن فوائده: النقل عن كتب مفقودة، وهذا كثير. ومن فوائده: بيانه لمصادر المؤلفين قبله أو عاداتهم، كقوله: «جرت عادة ابن منده إذا لم يسم والد الصحابي يكنيه باسم ولده»، كعمرو بن أبي عمرو والأسود بن أبي الأسود، وكتنصيصه على أن من عادة ابن عبدالبر متابعة ابن شاهين (٤٢٨/٩)، ومن عادة أبي موسى المديني اتباع أبي نعيم في ذكر كل ما زاد على ابن منده (٥٢٤/٩).

ومن فوائده: ضبط كثير من الأعلام ضبط حرف، وهذا كثير أيضا، على عادة ابن حجر في مصنفاته.

ومن فوائده: إظهار القرابات بين الصحابة، من جهة آبائهم أو أمهاتهم.

ومن المهم معرفة أن ابن حجر لم يكمل كتابه، بحيث ترك المبهمات ولم يصلها، والظاهر أنه لم يكمل الكنى أيضا، فهو يحيل إلى مواضع ستأتي، ثم لا يجدها القارئ، وقد كان ينوي تبييض الكتاب مرة أخرى (٢٨٩/١٣).

قطوف من مقدمة الإصابة في تمييز الصحابة من كلام ابن حجر:

(تسمية من ألف في جمع الصحابة): أول من عرفته صنف في ذلك أبو عبدالله البخاري، أفرد في ذلك تصنيفا، وجمع أسماء الصحابة مضموما إلى من بعدهم جماعة من طبقة مشايخه، كخليفة بن خياط، ومحمد بن سعد، ومن قرنائه كيعقوب

ابن سفيان، وأبي بكر بن (أبي) خيثمة، وصنف في ذلك جمع بعدهم كأبي القاسم البغوي، وأبي بكر بن أبي داود، وعبدان، ومن قبلهم بقليل كمطين، ثم كأبي علي بن السكن، وأبي حفص ابن شاهين، وأبي منصور الماوردي، وأبي حاتم ابن حبان، وكالطبراني ضمن معجمه الكبير، ثم كأبي عبد الله ابن منده، وأبي نعيم، ثم كأبي عمر ابن عبد البر، وسمى كتابه «الاستيعاب»، لظنه أنه استوعب ما في كتب من قبله، ومع ذلك ففاته شيء كثير، فذيل عليه أبو بكر ابن فتحون ذيلا حافلا، وذيل عليه جماعة في تصانيف لطيفة، وذيل أبو موسى المديني على ابن منده ذيلا كبيرا...، إلى أن كان في أوائل القرن السابع، فجمع عز الدين بن الأثير كتابا حافلا سماه: «أسد الغابة»، جمع فيه كثيرا من التصانيف المتقدمة، إلا أنه تبع من قبله، فخلط من ليس صحابيا بهم، وأغفل كثيرا من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم، ثم جرد الأسماء التي في كتابه مع زيادات عليها للحافظ أبي عبدالله الذهبي، وعلّم لمن ذكر غلطا، ولمن لا تصح صحبته، ولم يستوعب ذلك ولا قارب.

وقد وقع لي بالتتبع كثير من الأسماء التي ليست في كتابه، ولا أصله على شرطهما، فجمعت كتابا كبيرا في ذلك ميزت فيه الصحابة من غيرهم،

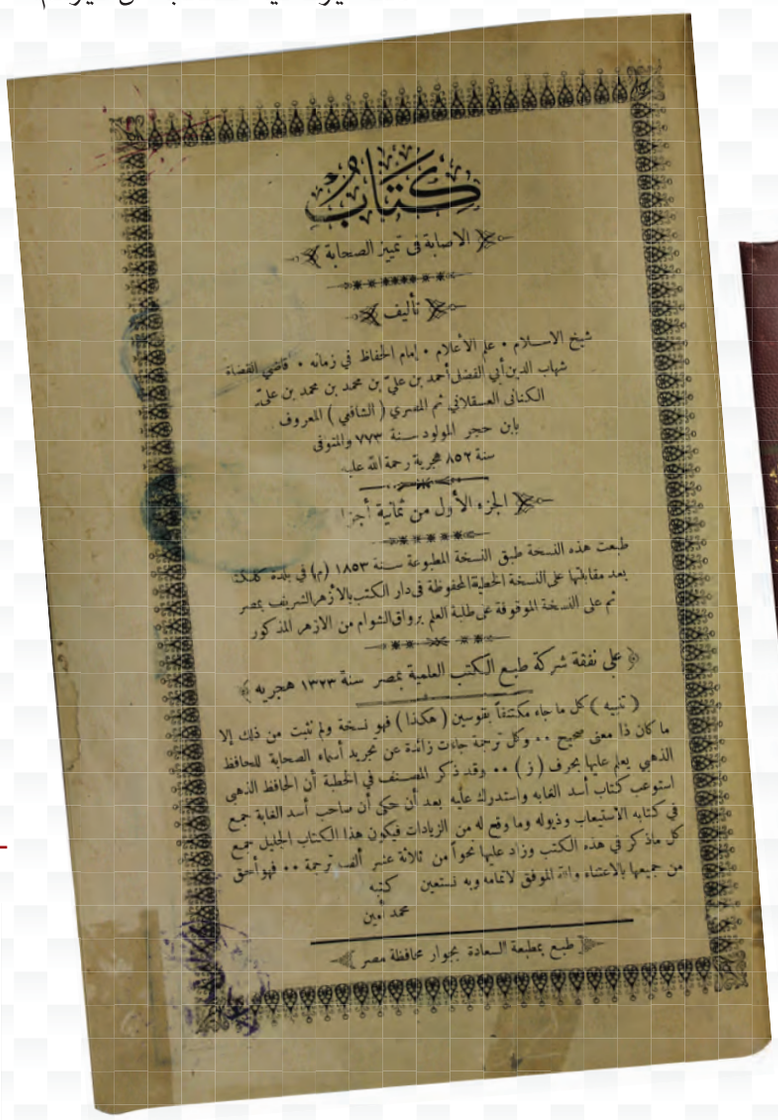
كتاب
الاصابة في تمييز الصحابة
تأليف
شيخ الاسلام • علم الأعلام • إمام الحفاظ في زمانه • قاضي القضاة
شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي
الكناني العسقلاني ثم المصري (الشافعي) المعروف
بابن حجر المولود سنة ٧٧٣ والمتوفى
سنة ٨٥٢ هجرية رحمة الله عليه
الجزء الأول من ثمانية أجزاء
طبعت هذه النسخة طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣ (م) في بلده كلكتا
بعد مقابلتها على النسخة الخطية المحفوظة في دار الكتب بالأزهر الشريف بمصر
ثم على النسخة الموقوفة على طلبة العلم برواق الشوام من الأزهر المذكور
على نفقة شركة طبع الكتب العلمية بمصر سنة ١٣٢٣ هجريه
(تنبيه) كل ما جاء مكتنفاً بقوسين (هكذا) فهو نسخة ولم تثبت من ذلك إلا
ما كان ذا معنى صحيح .. وكل ترجمة جاءت زائدة عن تجريد أسماء الصحابة للحافظ
الذهبي يعلم عليها بحرف (ز) .. وقد ذكر المصنف في الخطبة أن الحافظ الذهبي
استوعب كتاب أسد الغابه واستدرك عليه بعد أن حكى أن صاحب أسد الغابة جمع
في كتابه الاستيعاب وذيوله وما وقع له من الزيادات فيكون هذا الكتاب الجليل جمع
كل ما ذكر في هذه الكتب وزاد عليها نحواً من ثلاثة عشر ألف ترجمة .. فهو أحق
من جميعها بالاعتناء والله الموفق لاتمامه وبه نستعين كتبه
محمد امين
طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

ومع ذلك فلم يحصل لنا من ذلك جميعا الوقوف على العشر من أسامي الصحابة.

(طريقة ترتيب الكتاب):

ورتبته على أربعة أقسام، في كل حرف منه: فالقسم الأول: فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، سواء كانت الطريق صحيحة أو حسنة أو ضعيفة، أو وقع ذكره بما يدل على الصحبة بأي طريق كان.

القسم الثاني: من ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبي ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات ﷺ وهو في دون سن التمييز.

القسم الثالث: فيمن ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ، ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق أهل العلم بالحديث، وإن كان البعض منهم قد ذكر بعضهم في كتب معرفة الصحابة، فقد أفصحوا بأنهم لم يذكروهم إلا بمقاربتهم لتلك الطبقة، لا أنهم من أهلها.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط البين، وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني إليه، ولا من حام طائر فكره عليه، وهو الضالة المطلوبة في هذا الباب الزاهر، وزبدة ما يمخضه (من هذا) الفن اللبيب الماهر.

الفصل الأول: في تعريف الصحابي أصح ما وقفت عليه من ذلك (أن) الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمنا به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى.

الفصل الثاني: في الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابيا

وذلك بأشياء: أولها أن يثبت بطريق التواتر أنه صحابي، ثم بالاستفاضة والشهرة، ثم بأن يروى عن آحاد من الصحابة أن فلانا له صحبة مثلا، وكذا عن آحاد التابعين، بناء على قبول التزكية من واحد، وهو الراجح، ثم بأن يقول هو إذا كان ثابت العدالة والمعاصرة: أنا صحابي.

الفصل الثالث: في بيان حال الصحابة من العدالة

اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة، وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلا نفيسا في ذلك، فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره، عن طهارتهم، واختياره لهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠)، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة: ١٤٣)، وقوله:﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾(الفتح:١٨). وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنفال: ٦٤)، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ٨-١٠). في آيات كثيرة يطول ذكرها، وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له إلى تعديل أحد من الخلق، على أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد، ونصرة الإسلام، وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأبناء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على تعديلهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع الخالفين بعدهم، والمعدلين الذين يجيئون من بعدهم. هذا مذهب كافة العلماء، ومن يعتمد قوله.

فائدة: أكثر الصحابة فتوى مطلقا سبعة: عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعائشة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين.

قال ابن حزم: ويليهم عشرون، وهم: أبو بكر، وعثمان، وأبو موسى، ومعاذ،

وسعد بن أبي وقاص، وأبوهريرة، وأنس، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وسلمان، وجابر، وأبوسعيد، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وعمران بن حصين، وأبوبكرة، وعبادة بن الصامت، ومعاوية، وابن الزبير، وأم سلمة.

قال: وفي الصحابة نحو من مئة وعشرين نفسا مقلّون في الفتيا جدا، لا يروى عن الواحد منهم إلا المسألة والمسألتان والثلاث، كأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وأبي طلحة، والمقداد وغيرهم (وسرد الباقين).

قلت: وسأذكر في ترجمة كل من ذكره من هذا القسم أن ابن حزم ذكر أنه من فقهاء الصحابة، فإن ذلك من جملة المناقب.

أهمية الكتاب ومزاياه (١):

هذا الكتاب من أهم ما ألف في تراجم الصحابة، ولا يستغني عنه طالب علم أو باحث، وقد تميز بمزايا كثيرة، قلّ أن تجتمع في غيره، ومنها:

١- مكانة مؤلفه العلمية المرموقة.

٢- مما يؤكد أهمية هذا الكتاب: أهمية الموضوع الذي يتحدث عنه، فهو يشتمل على تراجم لصحابة رسول الله ﷺ، والبحث عن أحوالهم، وتمييزهم من غيرهم، ومعرفة من ذكر معهم وليس منهم.

٣- يعتبر هذا الكتاب أجمع الكتب المؤلفة في أسماء الصحابة وأشملها وأوسعها، فقد حوى أكثر من اثني عشرة ألف ترجمة.

٤- يعد أيضا من أهم الكتب المؤلفة في تراجم الصحابة، وأكثرها انتشارا، وتحريرا وتدقيقا، وقد اطلع مؤلفه على كتب من تقدمه في هذا النوع من التصنيف، واستفاد منها، فهذبها ورتبها، وتجنب ما فيها من أوهام، وزاد عليها زيادات رآها في بعض طرق الحديث أو المصنفات الأخرى، فجاء كتابا حافلا نافعا، ليس له نظير في بابه.

٥- هذه المقدمة النفيسة التي قدم المؤلف بها للكتاب، وما ذكر فيها من فصول مهمة يحتاج إليها من أراد معرفة الصحابة، وما ذكر في ذلك من ضوابط لمعرفة الصحابة.

٦- من أهم ميزات الكتاب أن الحافظ ابن حجر استدرك على من قبله، وبين إذا كان ذكرهم للمترجم في الصحابة صوابا أو خطأ، ومثال ذلك ترجمة (حنش بن المعتمر).

٧- إن المؤلف قد بذل في هذا الكتاب جهدا كبيرا، ومكث في تصنيفه أربعين سنة، فقد قال في آخر الكتاب: انتهت كتابتي مع ما في الهوامش في ثالث ذي الحجة، عام سبعة وأربعين، وكان الابتداء في جمعه في سنة تسع وثمانمائة، فقارب الأربعين، لكن كانت الكتابة فيه بالتراخي، وكتبته في المسودات ثلاث مرات، من أجل الترتيب الذي اخترعته، وهذه المرة الثالثة، وقد خرجت النسخة مسودة أيضا لكثرة الإلحاق، ولم يحصل اليأس من إلحاق أسماء أخرى، والله المستعان «الإصابة» (٧٢٨/٦)، فهي مدة طويلة جدا، ولذلك فإن هذا الكتاب صار خلاصة آراء وأحكام الحافظ ابن حجر فيما يتعلق بالصحابة، كما أن المؤلف قد وقف على أناس وصفوا بالصحبة في غير المظان المعروفة.

٨- يمكن أن يقال: إن هذا الكتاب يمثل خلاصة ما كتبه العلماء والأئمة في معرفة الصحابة قبل الحافظ ابن حجر، فالمطالع لهذا الكتاب يظهر له أن المؤلف قد اطلع على كتب من قبله، ومحصها، وأخذ منها وترك، بحسب ما رآه مناسبا.

٩- احتوى هذا الكتاب على قدر كبير من الأحاديث، مع بيان طرقها والحكم عليها، مما يزيد في قيمة الكتاب العلمية.

١٠- إن هذا الكتاب قد حفظ لنا نقولا كثيرة من مصادر، صارت تعتبر في عداد المفقود، مثل: «معرفة الصحابة» لابن السكن، وكتاب «الصحابة» للعقيلي، و«الصحابة» لمطين، ولابن شاهين، وغيرهم.

١١- ثناء العلماء عليه: قال السخاوي في «فتح المغيث» (٩٣/٣): انتدب شيخنا لجمع ما تفرق من ذلك، وانتصب لدفع المغلق منه على السالك، مع تحقيق غوامض، وتوفيق بين ما هو بحسب الظاهر كالمتناقض، وزيادات جمة، وتتمات مهمة، في كتاب سماه «الإصابة» جعل كل حرف منه غالبا على أربعة أقسام.

الهوامش

١- دراسة مختصرة عن كتاب «الإصابة في تمييز الصحابة»، موقع: الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها.

د. أشرف صالح

باحث دراسات إسلامية

ابن أبي الربيع.. نموذجا

الإدارة الحكومية عند الرواد المسلمين

وجود قوة تسمى «الحكومة»، التي يقع على عاتقها إقامة النظام الاجتماعي وبناؤه، أمر ضروري أقرته جميع الشرائع والأمم. كما أن النظام الإداري، كغيره من الأنظمة، لا يتصور وجوده ونشأته في فراغ، بل لابد من وجود دولة تحتويه، فالنظام الاجتماعي الشامل للدولة يشتمل على النظم الاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من النظم. والحقيقة أن المخطوطات الإسلامية تحفل بدراسات متخصصة في مختلف مجالات الإدارة، وسوف نعرض فيما يلي لأشهر رواد هذه الدراسات في موضوع الإدارة الحكومية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ألا وهو ابن أبي الربيع.

شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، تاريخ ولادته ووفاته غير معروف، والراجح أنه عاش خلال فترة حكم الخليفة المعتصم بالله، العباسي الثامن (١٧٩ – ٢٢٧هـ)، ابن الخليفة هارون الرشيد، والذي خلف أخاه المأمون على كرسي الحكم. كما لم يعرف لابن أبي الربيع إلا كتاب واحد باسم «سلوك المالك في تدبير الممالك»، والذي طبع في القاهرة سنة ١٢٨٦هـ. ويجمع الباحثون على أنه من أفضل نصوص الفلسفة السياسية العربية الإسلامية. وفيما يلي نماذج من موضوعات الإدارة الحكومية في هذا الكتاب، والتي تعكس الفكر الإداري الإسلامي في هذا الخصوص.

أركان الدولة

أوضح ابن أبي الربيع أربعة أركان رئيسية تقوم عليها الدولة هي: الملك (الرئيس) – الرعية (الشعب) – العدل (أجهزة العدالة) – التدبير (السلطة التنفيذية). وحدد العناصر اللازم توافرها في الملك، والسياسات التي يتبعها تجاه الدولة ونفسه وخاصته وتجاه جمهور رعيته وفي الحروب، وذكر الأقسام المكونة للرعية، وتكلم عن العدل وأقسامه وبيان شرف منزلته.

المدينة والسكان

بين ابن أبي الربيع الشروط الأساسية الستة لإقامة المدينة وهي: «سعة المياه المستعذبة – إمكان الميرة (الطعام) المستمدة – اعتدال المكان وجودة الهواء – القرب من المراعي والاحتطاب – تحصين منازلها من الأعداء – أن يحيط بها سواد يعين أهلها». كما ذكر العناصر الثمانية اللازم توافرها بعد قيام المدينة، والتي على الحاكم القيام بها نحو سكان المدينة، وهي: «سوق الماء العذب إليها ليشرب ويتناول من غير عسف – تقدير طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق – بناء جامع للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها – تقدير أسواقها بحسب

كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب - تمييز قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادا مختلفة متباينة - أن يسكن (الحاكم) أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كفالة من سائر جهاته - إحاطة المدينة بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة - نقل أهل العلم والصنائع إليها بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها».

ومن الملاحظ؛ أن هذه العناصر تشير إلى مبدأ الاستدامة في بناء المدن، وإلى الرؤية البيئية الإسلامية لاختيار مواقع المدن ومتطلباتها، خصوصا في المياه، والحماية من العوامل البيئية السيئة، وطيب الهواء، والمناطق الخضراء. ومن جهة أخرى، أوضح ابن أبي الربيع أن المزارع من الضروريات لعمارة المدينة؛ لأن الزراعة هي أصول المواد التي يقوم بها أود الخلق، وذلك من خلال القيام بمصالح المياه، وكف الأذى عن المزارعين، وتقدير ما يؤخذ منهم بحكم الشرع والعدل، وألا ينالهم خوف ولا عسف.

القيادة المثالية

حدد ابن أبي الربيع الأسس التي تقوم عليها القيادة المثالية التي تدفع عن الناس الأذى الواقع على بعضهم، وأن يكون القائد من أفضل الناس. ولذلك، فهو يميل إلى القيادة المثالية، وأن يحكم الناس أحكم الناس، قائلا: «فقد تبين... أن الناس مضطرون إلى تدبير وسياسة وأمر ونهي، وإن المتولين لذلك ينبغي أن يكونوا أفاضلهم». وقد أكد على مبدأ وحدة القيادة لاعتقاده «بأن كثرة الرؤساء تفسد السياسة وتوقع التشبث؛ لهذا احتاجت المدينة أو المدن الكثيرة أن يكون رئيسها واحدا». كما حدد واجبات القائد في: إقامة العدل، ورفع الظلم، وقيادة الدولة إلى تحقيق أهدافها العليا، وأن يعمل كل فرد في مجال اختصاصه لمصلحته ومصلحة مجتمعه.

مؤسسات الدولة

وقد اهتم ابن أبي الربيع بالتدبير (الإدارة)، واعتبره رباطا وواسطة قوية بين الحاكم والمحكوم، أو بين الملك والرعية، فالملك يحتاج إلى من يعاونه في إدارة شؤون حكمه، وإذا لم يكونوا صالحين فسدت الدولة وساء تدبيرها. وقد حذر الملك من ستة أشياء عليه الانتباه إليها وتجنبها وهي: «من استوزر غير كاف، خاطر بملكه - من استشار غير أمين، أعان على هلكه - من أسر إلى غير ثقة، ضيع سره - من استعان بغير مستقل، أفسد أمره - من ضيع عاملا، دل على ضعف عقله - من اصطنع جاهلا، أعرب عن فرط جهله».

وقد حدد ابن أبي الربيع الأتباع والأعوان الذين يساعدون الملك في تدبير شؤون نفسه وحكمه ورعيته وهم: وزير عالم (رئيس الوزراء) - كاتب عارف (الوزير أو المدير العام) - حاجب عاقل (ديوان الرئاسة) - قاض ورع (الجهاز القضائي) - عامل جلد (المحافظ) - مال متوافر - رب شرطة (السلطة التنفيذية) - جند أقوياء (الجيش) - حكيم مجرب - جليس صادق - صاحب الطعام والشراب».

ميزانية الدولة

بين ابن أبي الربيع أحوالا ثلاثة من مقارنة الإيرادات بالنفقات هي:

- أن يفضل الدخل (الإيرادات) عن الخرج (النفقات)، وذلك هو الملك المستقيم والتدبير السليم؛ ليكون الفائض معدا لوجوه النوائب.
- أن يقصر الدخل عن الخرج، وذلك هو الملك المختل والتدبير المعتل، فتدعوه الحاجة إلى العدول عن لوازم الشرع، ويؤول إلى العطب والفساد.
- أن يتكافأ الدخل والخرج حتى يعتدل، ويكون ذلك في زمن السلامة مستقلا، وعند الحوادث معتلا، فإن تحركت به النوائب كده الاجتهاد وانفض من حوله الإخوان.

ويتضح من ذلك أن ابن أبي الربيع يفضل الموازنة الفائضة التي تزيد إيراداتها على نفقاتها؛ لكي يتوافر لديها فائض في الأموال لتواجه به الكوارث والنوائب غير المتوقعة.

في الحقيقة؛ إن لكتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» قيمة فلسفية وسياسية كبيرة، فهو يبحث في السياسة والفلسفة والأخلاق والإدارة والشريعة، بل وحتى في تخطيط المدن. والجدير بالملاحظة هنا، أنه في الوقت الذي نشر فيه ابن أبي الربيع آراءه ووجهات نظره، التي تعتبر مرجعا أساسيا في عدد من العلوم، فإن أوروبا كانت تعيش في الوقت ذاته في ظلام دامس، إذ إن مجتمعاتها كانت تعيش على تراكمات من التخلف والجهل، وفي ظل أنظمة إقطاعية غاية في الإجحاف وعدم المسؤولية تجاه شعوبها.

المراجع

- ابن أبي الربيع، «سلوك المالك في تدبير الممالك»، تحقيق: حامد عبدالله ربيع، القاهرة، دار الشعب، ١٩٨٠م.
- خالد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧م.
- محمد زاهد جول، «المدينة والدولة في الاجتهاد الفقهي»، ندوة تطور العلوم الفقهية: «الفقه الحضاري، فقه العمران»، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ٣ - ٦ أبريل ٢٠١٠م.
- موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، القاهرة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، ٢٠٠٤م، (المجلد الثاني).

مثلثات أسرية

محمد شعطيط - المغرب
باحث مغربي

يعتبر الإسلام دين الحنيفية السمحة. فهو الدين الذي تساير مبادئه الفطرة وتتماشى مع طبيعة الإنسان. وقد جاءت أحكامه وسطية من دون إفراط ولا تفريط. ففي مجال العبادة لم يدع الإسلام إلى الرهبانية والانقطاع في الصوامع والمساجد، كما أنه لم يترك الأمر سبهللا، بحيث يأتي العبد إلى ربه متى شاء حيثما تيسر له الأمر. وقد لا يتفرغ العبد لطاعة ربه أبدا وسط مشاغل الدنيا التي لا تنقطع بالليل أو النهار، بل شرع الله لعباده عبادات متنوعة؛ لتبقى صلة العبد بربه دائمة متصلة.

والناظر في هذه العبادات بمختلف أنواعها يجدها من حيث الأغلبية بعد استقراء مجموعة من النصوص - حسب الإمكان والجهد وما يسمح به الوقت - لا تتعدى من حيث القدر الثلث في أغلبها؛ تخفيفا على العباد، ولينال نصيبه من العاجلة تطبيقا لمبدأ الآية الكريمة: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (القصص:٧٧). ومن خلال هذا الاستقراء لبعض هذه الأحكام يمكن القول: إن الإسلام هو عبادة الثلث بامتياز. يأخذ الله منك الثلث لمعادك ويترك لك الثلثين لمعاشك. وما ترك لك يعود أجره إليك، إذا خلصت النية وابتغي بها وجه الله عزوجل ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣). وما لم تتم الإشارة فيه تصريحا إلى نسبة الثلث فهو، من حيث العموم، الأصل فيه التيسير والتخفيف اللذان هما مقصد من مقاصد البعثة، ومن أهم مرامي التشريع وغاياته، كما قال عزوجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ (الأعراف:١٥٧).

والآن إلى بعض هذه المثلثات:

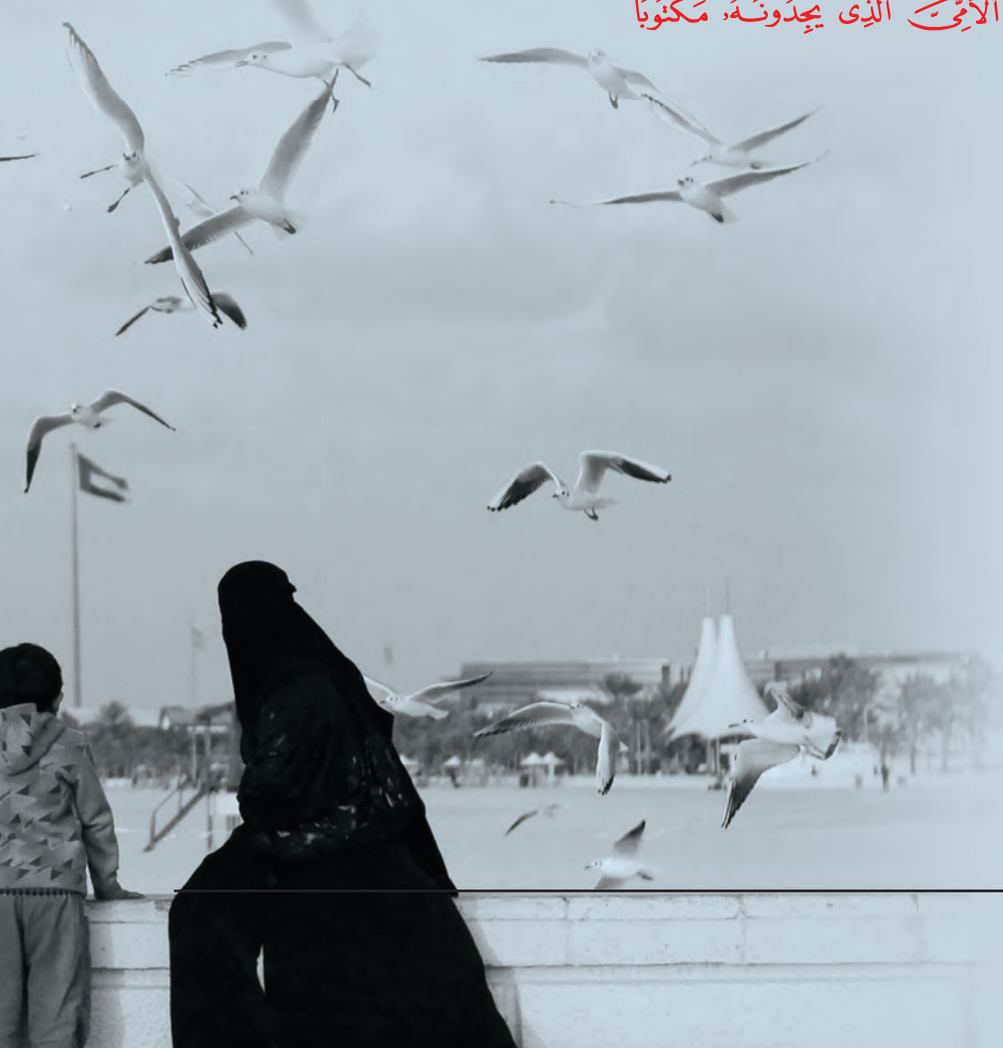

الثلث الأخير من الليل

يبدأ ثلث الأسرة الأول في الثلث الأخير من الليل، حيث تتعرض للنفحات الربانية في هذا الوقت الشريف من الليل، حين ينزل ربنا عزوجل إلى السماء الدنيا، كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وينادي سبحانه: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» (متفق عليه).

فهذا الخالق عزوجل يعرف حاجة عباده إلى الراحة في أول الليل، فيترك لهم الفرصة لأخذ نصيبهم منها، ثم إذا هدأت العيون وأخذت حظها من السكن دعاها سبحانه في مشهد مهيب: «من يدعوني فأستجيب له؟»، سبحانه من إله رحيم. جعل لعباده وقتا هو مظنة الإجابة، وهو ثلث الليل الأخير.

وهذا السلوك هو دأب الرسول ﷺ وصحبه الكرام. يمر المسلم على دور الصحابة فيجد الأسر المسلمة قد نفضت عنها غبار الكسل والخمول واصطفت جماعات ووحدانا تسأل ربا كريما لتأخذ نصيبها من قول الله عزوجل: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الذاريات:١٧-١٨). ومن قول الله عزوجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمل:٢٠). نعم طائفة من الأسر المؤمنة المخبتة الخاشعة المنيبة، بل دأب الأنبياء قبلنا، فهذا نبي الله داود عليه السلام يقول عنه الحبيب ﷺ: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه» (متفق عليه). فأين نصيبك من هذا الثلث أخي المسلم، أختي المسلمة، حتى تتربى أسرتك في هذه المدرسة الربانية فتكتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات؟ ففي الحديث: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين، كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات» (أخرجه أبوداود). وحتى توافقوا ساعة الإجابة التي قال عنها الرسول ﷺ: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة» (رواه مسلم).

قام طفل صغير للصلاة مع والده في ليلة باردة، فقال له الوالد بلسان الشفيق الرحيم: عد يا بني في هذه الليلة إلى فراشك، فالجو بارد وأنت صغير. فأجابه الابن بكلام لا يصدر إلا عن حكيم خبر تجارب الحياة، وكيف لا يكون كذلك ومدرسة الليل أعظم المدارس وأشدها وطئا: يا أبت، لقد رأيت أمي إذا أرادت أن توقد النار تستعين بأعواد الحطب الصغيرة، فأخشى أن أكون أنا ذلك الحطب الصغير الذي يوقد الله به النار يوم القيامة، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦).

أيتها الأسرة المسلمة، نامي ثلثي الليل واغتنمي فضل الثلث الأخير، ولا يغلبنك عليه اشتغالك بالمسلسلات والأفلام، فيوشك أن ينادي المنادي بالرحيل. فالزاد الزاد قبل يوم المعاد.

الصيام

نمر إلى ثلث آخر من مثلثات الأسر المسلمة، وهو ثلث الصيام. الأسرة المسلمة أسرة موصولة بربها، ذاكرة لله، صوامة، قوامة، تصوم الأيام البيض (وهي ثلاثة أيام من كل شهر)، فإذا أضافت إليها صيام الاثنين والخميس (وهي تتكرر أربع مرات في الشهر لكل منهما)، حصلت في المجموع على أحد عشر يوما، وهو بالتقريب ثلث الشهر. فالأسرة المسلمة تقضي ثلث دهرها في الصيام، قربة لله عزوجل، وهي تعلم فضل ما أعده الله عزوجل للصائمين، قال الحبيب ﷺ: «إن في الجنة بابا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة،

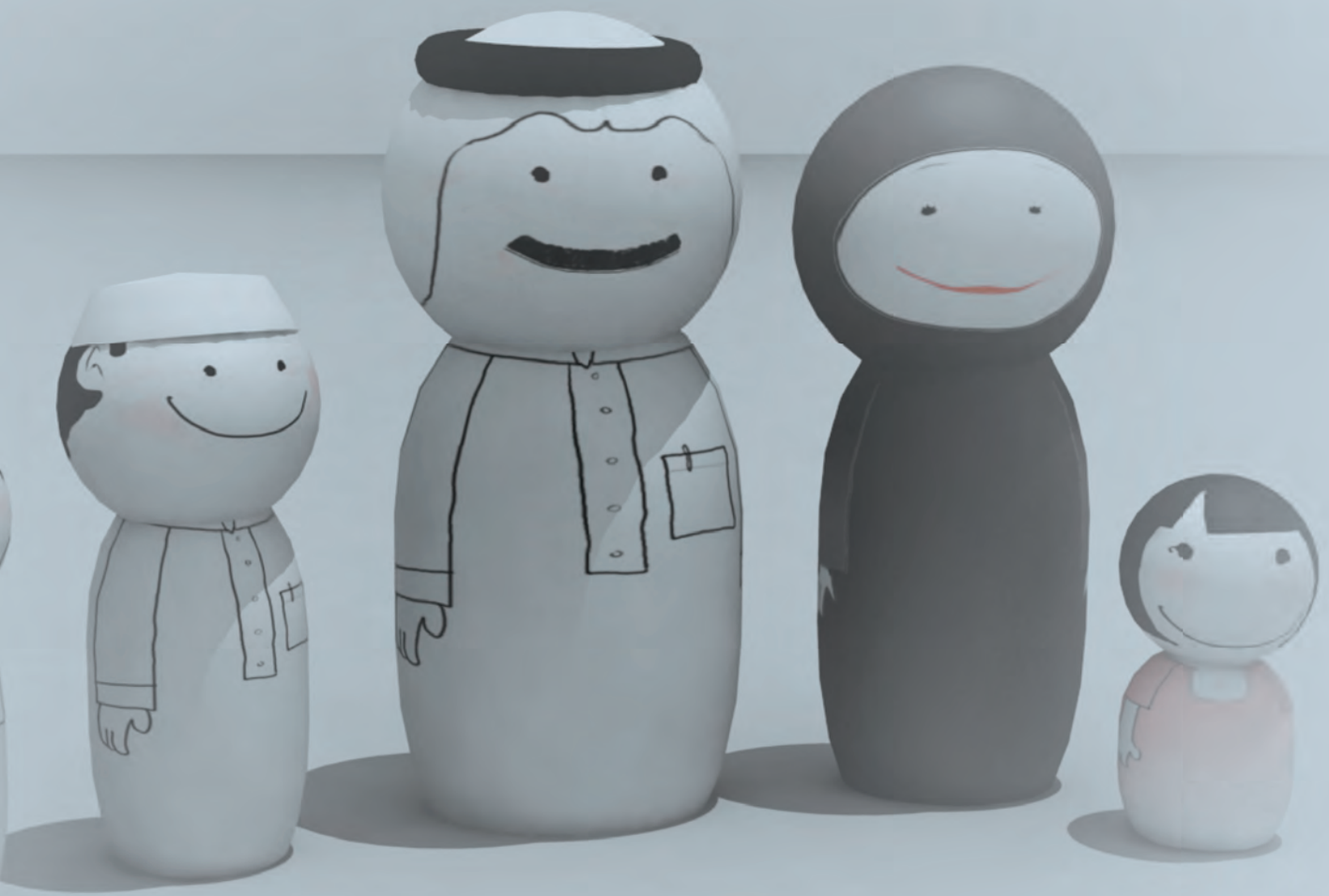

لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون فيدخلون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد» (متفق عليه).

فتخيل معي أخي المسلم، فرحة أسرة كاملة تدخل من باب الريان، اجتمعت على مائدة الإفطار في الدنيا فجمعها الله في هذا الموكب العظيم في الآخرة. وهو أيضا نجاة ووقاية لشباب الأسرة وتحصين لهم من الوقوع في الرذيلة حتى يغنيهم الله من فضله، قال ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (متفق عليه).

الوصية

ثم يأتي ثلث الوصية، الذي جعله الله عزوجل تحت تصرف ذوي المال الراشدين من الأسرة، يجعلونه في من يشاءون من ذويهم أو قرابتهم أو غيرهم؛ تقربا إلى الله عزوجل. وتحديد الثلث هنا ظاهر، وهو معلل في حديث رسول الله ﷺ حين دخل على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال له سعد: قلت: يا رسول الله، أنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: «لا». قلت: أفأتصدق بثلثه؟ قال: «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة

يتكففون الناس» (متفق عليه).

ثلث الطعام والشراب والنفس

فإذا حل وقت الطعام عاشت الأسرة المسلمة في ظل ثلث آخر، يذكرها بوصايا الحبيب ﷺ، الذي ما ترك خيرا إلا ودل أمته عليه. وهذا الخير هذه المرة يتعلق بصحة الإنسان. فصلاح الأديان في صلاح الأبدان، كما قيل، و«المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير» (رواه مسلم). وهذا الإرشاد النبوي يدل الأسرة المسلمة على باب واسع من باب العافية، وهو الاقتصار على الضروري من الغذاء، وعدم الإسراف في الأكل. يقول الرسول ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (١).

وهذا الاقتصار على الثلث في الأكل هو الذي يعين، بفضل الله، على الاستيقاظ في الثلث الأخير من الليل، فالأمر بعضه مفتول في بعض، وأحكام الدين، بحمد الله، لا تتجزأ. ولذلك، من يحاول إصلاح المجتمعات الإسلامية بأخذ بعض الكتاب وترك بعض إنما يخط في رمل أو يرسم في سحاب. وفي الأثر عن بعض الحكماء أنه كان يقول لتلامذته: يا معشر المريدين، لا تأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا، فتناموا كثيرا، فتتحسروا عند الموت كثيرا.

ثلث الأضحية

ثم إذا حل العيد حلت معه البهجة والمسرات، وشاركت الأسرة فقراء المسلمين في أفراحهم بالتصدق عليهم بثلث أضحيتها، وهو المختار عند غالبية الفقهاء. وهو استجابة لنداء الرسول الكريم الرؤوف الرحيم، الذي علم أمته كيف تنال الأجر مع الانتفاع من الأضحية بالأكل. فعن عائشة، رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال في شأن أضحية العيد: «كلوا وادخروا وتصدقوا» (رواه مسلم).

الثلث الأخير من رمضان

فإذا أتى شهر رمضان شهر الرحمة والغفران، تأهبت الأسرة المسلمة لصيامه، وتشمرت لقيامة. فإذا دخل الثلث الأخير منه رفعت من وتيرة العبادة؛ اقتداء بسيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ. فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر، أحيا ليله، وأيقظ أهله، وجد، وشد المئزر. وعن عائشة، رضي الله عنها، أيضا قالت: «كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره» (رواه مسلم). وقد كان عليه الصلاة والسلام يعتكف فيها ويتحرى ليلة القدر.

الثلث الأول من ذي الحجة

ثم تنتقل الأسرة إلى ثلث آخر من أثلاث الشهر، وهذه المرة مع شهر ذي الحجة، الذي أقسم الله بلياليه العشر فقال سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ (الفجر:١-٢)، وقال الرسول ﷺ عن أيامه: «أفضل أيام الدنيا أيام العشر» (٢). والأحاديث في فضلها معلومة.

لو تتبعنا المثلثات الشرعية لطال بنا المقام، وحسبنا أن أشرنا إلى فضل هذا الدين ورحمة الله بعباده وما وضع عنهم من الإصر والأغلال التي كانت عليهم؛ حتى يقبلوا على الله إقبال المحبين المخبتين، وحتى يعلموا أن دين الإسلام دين السماحة واليسر، من غير مشقة ولا عنت. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الهوامش

١- أخرجه الإمام أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو في «الصحيحة»، (٢٢٦٥)، وقد ضعفه غير واحد، وأبحاث العلم تشهد له، والله تعالى أعلم.

٢- أخرجه البزار، وهو في ص ج ص، ١١٣٣.

١٢ سببا تدعو إليها:

علموا أبناءكم الزراعة

د. آندي حجازي/ أستاذة علوم تربوية

شيء ممتع، كذلك الخروج مع ابنك أو ابنتك من أجل زراعة نبتة في حديقة البيت أو حديقة عامة، أو أرض قاحلة، الاهتمام معه بما زرعت ومتابعتها بالرعاية والسقاية والتقليم، فمن الجميل والمميز أن تعلم ابنك أهمية الزراعة وكيفية الزراعة، خاصة في زمن عم به الاهتمام بالأجهزة التكنولوجية والإلكترونية بشكل لافت فائق، وفقد الاهتمام بالنشاطات الخارجية والحركية وخارج البيوت.. فمن الممتع فعلا أن تغرس مع ابنك بذورا أو شتلات صغيرة وتسقيها دوما وترعاها وتراقبها مع طفلك وهي تنمو أمامه يوما بعد يوم، فهو سيشعر بسعادة كبيرة حينما يرى أن نبتته كبرت وأينعت وترعرعت وأصبحت تؤتي ثمارا طيبة، أو نتاجا مميزا يؤكل منه.

إن الزراعة مهنة الإنسان منذ القدم، ومارسها بعض الأنبياء، وحتى الرعي يعتمد على الزراعة.. والعمل بالزراعة ليس عيبا كما هي الصورة النمطية السائدة اليوم، بل إنها مهنة عظيمة مهمة لا تقوم الحياة بدونها، ولا يمكن للإنسان العيش بلا نتاج هذه المهنة، والأمن الغذائي والاقتصادي اليوم يعتمد على الزراعة.

في كل بلد تزرع نباتات مختلفة وفقا لمناخها، فبعضها تناسبها النباتات الموسمية، وبعضها النخيل، وبعضها الحمضيات أو الزيتون كالمناطق الجبلية، وبعضها النباتات البعلية كما في السهول.. فعلى الأب أو الأم تشجيع أبنائهم وبناتهم على زراعة النباتات المختلفة في أماكن متاحة، ولو في أحواض صغيرة داخل البيت أو خارجه، مع مراعاة طبيعة بلادهم وبما يمكن أن ينتج بها.

فكرة

ومن الجميل جدا أن تخصص الدولة أياما معينة من العام تنظمها وتشجع بها جميع المواطنين على الخروج لأماكن عامة جرداء من أجل زراعتها بنباتات متنوعة، كنباتات حرجية أو زينة أو مثمرة، فعندما تنمو تلك الأشجار بعد عدة سنوات ستصبح لدينا مزارع وحدائق وبساتين وغابات.. وهذا ليس خيالا، بل حقيقة كما يحدث في الدول المتقدمة ذات الطبيعة الخلابة، فلا تأتي من فراغ، بل من اهتمام سكانها وحكوماتها بالزراعة والتشجير. ومن الجميل أن تساهم الأسر والمدارس في الزراعة، وتخصص أيام من العام الدراسي من أجل زراعة المدرسة وحولها، أو زراعة أراض عامة يسمح بزراعتها، مع تعاهدها بالسقاية.

لماذا الزراعة؟

- **أولا**: تعليم الأبناء أن الزراعة هي من طرق عمارة الأرض التي حث عليها الدين الإسلامي، فإعمار الأرض هدف أساسي لوجوده على هذه الأرض بعد عبادة الله وحده، وإعمار الأرض لا يكون بالعمران والبناء والصناعة فقط، بل بالزراعة والإنتاج أيضا.
- **ثانيا**: تعليم الأبناء الاهتمام بالزراعة والنباتات معناه الاهتمام بالطبيعة وبجمالها وبمخلوقات الله تعالى الكثيرة والمتعددة، مما يزيد من إيمان الإنسان

وتفكره في الكون، وحمد الله تعالى على نعمه الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى في سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس٣٣-٣٥).

● **ثالثا**: تعليم الأبناء الزراعة هو تطبيق للسنة النبوية، حيث حث رسول الله ﷺ على ذلك بقوله: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر» (رواه البخاري، والإمام احمد). والفسيلة: النخلة الصغيرة، وكأنه ﷺ يقصد: ليس عليكم ثمرة الجهد، ولكن عليكم الجهد وحده، ابذلوه ولا تتطلعوا إلى نتائجه. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يزرع مسلم زرعا ولا يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» رواه البخاري ومسلم، وفي حديث آخر: «ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس». فأي حث أعظم من ذلك! وهناك أحاديث أخرى تشجع على الزراعة وإحياء الأرض غير الصالحة، من ذلك قوله ﷺ: «من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يستطع وعجز عنها فليمنحها آخاه المسلم ولايؤاجرها إياه». (أخرجه مسلم)

● **رابعا**: تعليم الأبناء الزراعة ينمي لديهم الحس الوطني والقومي للاهتمام بالجمال في بيوتهم وبلادهم، وبزراعتها وبالحفاظ عليها خضراء منعشة جميلة.

● **خامسا**: تعريف الأبناء أن الزراعة مصدر دخل قومي مهم وأساسي للكثير من البلاد، سابقا واليوم ومستقبلا، وقد يعمل الطفل الذي تعوّد الزراعة وأحبّها مشروعا اقتصاديا في المستقبل قائما على الزراعة، فيسهم في تقدّم بلاده وإعالة نفسه وأهله.

● **سادسا**: توجيه الأبناء إلى أن الزراعة تسهم في حل الكثير من المشكلات اليوم كالاحتباس الحراري، لأن الأشجار تنتج الأكسجين وتمتص ثاني أكسيد الكربون، وحل مشكلة المجاعات والفقر والبطالة والتزايد في عدد البشر مع نقص الغذاء، وحل مشكلات اقتصادية قومية كثيرة لو تم التركيز على المشروعات الزراعية.

● **سابعا**: مزاولة الزراعة تعلم الأبناء الصبر، فالمزروعات لا تكبر بين يوم وليلة، بل إنها من النشاطات التي تتطلب الصبر والمتابعة والاهتمام بالآخر.

● **ثامنا**: الزراعة مع الأبناء تعلمهم أن نأكل مما نزرع، ونلبس مما نصنع، لا أن نعتمد على الآخر وعلى استيراد كل شيء، فانظر اليوم إلى التحكم الغربي والأجنبي في البلدان العربية نتيجة إهمالها في الصناعات والاختراعات والمشروعات الزراعية، فأصبحت أمة مستهلكة لا منتجة، تقع تحت رحمة الأمم الأخرى بل وتحت أطماع الدول ذات الطموحات التوسعية والاستعمارية.

● **تاسعا**: ممارسة الزراعة مع الأبناء تورث السعادة والمتعة لقيامهما بنشاط مشترك مفيد وممتع، ويجعل بينهما اهتمامات مشتركة، وهذا الاهتمام يبدأ منذ الصغر، فلا ينتظر الأب ابنه كي يكبر ليشاركه في الزراعة، فجميع الأبناء قادرون عليه، صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا.

● **عاشرا**: تشجيع الأبناء على الزراعة في البيت يعني أن نأكل منتجات نباتية صحية من الفواكه والخضار، خاصة مع انتشار الهرمونات في المزروعات التجارية اليوم، ما جعلنا نأكل الكثير من الثمار المهجنة والممتلئة بالهرمونات والكيماويات التي تسبب عبر الزمن الكثير من الأمراض في الجهاز الهضمي والعصبي، والتي لا يعرف سببها.

● **الحادي عشر**: تعليم الأبناء الاهتمام بالزراعة معناه تشجيعهم الاهتمام بالثروة الحيوانية، لأن جميع الحيوانات تعتمد على النباتات في استمرار حياتها، والثروة الحيوانية مهمة لبقاء الإنسان على قيد الحياة، فهي سلسلة مستمرة.

● **الثاني عشر**: تشجيع الأبناء على الزراعة هو تشجيع لهم على العطاء وعلى محبة الآخرين، ومساعدتهم والبعد عن الأنانية، لأنه ليس من الضرورة أن ما نزرعه اليوم سوف نأكل منه غدا، فقد نأكل منه نحن أو غيرنا، وقديما قالوا: «زرعوا فأكلنا، ونزرع فيأكلون»، فهذه ضمن دورة الأجيال.

الأسرة ومقصد التدبير المؤسسي للمجتمع

د. محمد طونيو
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - المغرب

أفتتح بسؤال مركزي عليه مدار هذه المقالة وصيغته:

كيف تسهم مؤسسة الأسرة في تفعيل البعد المؤسساتي في التنظيم الاجتماعي؟

يرتقي التشريع الإسلامي بالأسرة إلى مستوى المؤسسة التي تخضع لضوابط وقواعد واضحة وتنظيم محكم للعلاقة بين أعضائها، «إذ مقتضى المؤسسة أن تنتظمها مجموعة أحكام ومعايير تحدد كيفيات العمل من أجل تلبية حاجات معينة جلبا للمنفعة ودفعا للمضرة» (١). وبخصوص مؤسسة الأسرة، فقد ورد التفصيل في أحكامها وبيان سبل تنزيلها بما يضمن تماسكها ويحيطها بالرعاية الكافية. «فإذا كانت أحكام الشريعة قد جاء فيها توجيه عام إلى ثقافة المؤسسة الاجتماعية، ووردت فيها مبادرة كلية عامة من شأنها التأطير المبدئي للكثير من مؤسسات المجتمع، فإنها قد خصت واحدة من تلك المؤسسات الاجتماعية ببيان تفصيلي شامل، وهو بيان ورد على وجه الطلب؛ يبين الأصول العامة لتلك المؤسسة، ويملأ تلك الأصول العامة بأحكام تفصيلية لا يدانيها في التفصيل من بين كل البيان الديني سوى أحكام العبادات، وتلك المؤسسة هي مؤسسة الأسرة» (٢).

ولعل من أسباب ذلك أنها لا تقوم على التأقيت المحدد، وإنما على

الدوام والاستمرار، ذلك لأن عقد الزواج يشار فيه إلى تاريخ بدايته ولا يذكر فيه تاريخ نهايته.

وقد منع الإسلام زواج المتعة، لأنه يخالف خاصية الدوام التي تميز عقد الزواج. «لأنه أبديٌ شُرع للبقاء والاستمرار» (٣). إذ تنتج عنه حقوق وواجبات ملزمة لأطرافه، حيث يسود نظام القوامة الشرعية المبنية على التشاور والتعاون على البر والتقوى، وليس على التسلط والعدوان. وبهذا فإن النظام الأسري في التشريع الإسلامي يحقق – بما لا يدع مجالا للشك – زواجا ناجحا بسبب ما يوفره من مشاعر المودة والرحمة والسكينة، لأن العلاقة الشخصية بين الزوجين قائمة على حسن التعاشر والتغافر، وعلى الوصل وليس الفصل.

وعلى الرغم من ذلك، يبقى احتمال التنافر في حالات نادرة واردا وله مخرجه الشرعي من غير انتقام، وإنما تسريح بإحسان، بعد فشل الوساطة الأسرية الهادفة إلى إصلاح ذات البين، ومحاولة رأب الصدع لحل الخلاف من خلال التركيز على منهج احتواء المشكلات الزوجية، وتعرف فوائدها، وتحويلها من محنة إلى منحة، وفي حالة تعذر الصلح يتم فك الارتباط بعد ضمان الحقوق الكاملة لأصحابها، سواء حقوق الزوجين أو الأطفال. «إن ما جاء في الشريعة من أحكام تفصيلية لمؤسسة الأسرة من مؤسسات المجتمع. وما أحيطت به تلك الأحكام من عناية بالتنفيذ والإلزام، إنما يعكس ما لهذه المؤسسة الاجتماعية من أثر بالغ في حفظ المجتمع. إذ هي اللبنة الأولى في بنيانه. ولعل هذا التفصيل في أحكام الأسرة يعتبر أيضا تعليما للمسلمين كيفية بناء سائر المؤسسات التي لم يرد فيها تفصيل؛ استيحاء من هذا التفصيل الوارد في الأسرة. والمؤسسات الاجتماعية وإن كانت مختلفة في طبيعتها إلا أنها موحدة في الثقافة التي تحدثها، وفي الغايات التي تهدف إليها، وهي حفظ المجتمع بقوة اللبنات التي يتكون منها، وبتماسك اللحمة بينها» (٤).

وها هنا سؤال ملح يتبادر إلى الذهن مفاده: لماذا كانت مؤسسة الأسرة هي الحافظة للكيان الاجتماعي؟

جدير بالذكر، قبل الإجابة عن هذا السؤال، أن قيام البنية الاجتماعية على المؤسسة هو مقصد الشريعة الذي يفضي إلى تحقيق مقصد أعلى جامع هو حفظ نظام المجتمع.

وفي الجواب عن السؤال الآنف الذكر، يمكن القول إن ثمة ثلاثة اعتبارات جعلت الأسرة هي مؤسسة حافظة للمجتمع من حيث تماسكه واستمراره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ونلخص الاعتبارات الثلاثة في الآتي:

١- التشريع التفصيلي لأحكام الأسرة بما فيه من دلالة على أهميتها في بناء المجتمع، لذلك كان شأنها في المفهوم الإسلامي ليس شخصيا يهم أفرادها فحسب، وإنما هي شأن اجتماعي، فينبغي إذن أن تبنى الأحكام الشرعية المنظمة لها على ما يؤدي إلى مقاصدها في المجتمع، بالإضافة إلى ما يؤدي إلى مقاصدها في ذاتها. ومن أبرز ما يدل على المقصد الاجتماعي من الأسرة أن الدين قد اعتبرها في أحكامها شأنا اجتماعيا وليس شخصيا، وأوكل شطرا كبيرا من شؤونها إلى المجتمع يرى فيه رأيه، ويعالجه بمعرفته، ولا أدل على ذلك من أن الخطاب في هذه الشؤون جاء خطابا جماعيا، على الرغم مما تبدو عليه هذه الشؤون من صبغة شخصية لا تتعلق إلا بذات الأسرة، وذلك مثل قوله عزوجل: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ (البقرة:٢٢١). وقوله عزوجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ (النساء:٣٥). فهذا الخطاب القرآني المطرد في شؤون الأسرة لجماعة المسلمين، وليس لأفراد الأسرة، مما يدل على أن في أحكام الأسرة مقصدا اجتماعيا أساسيا.. وشواهد ذلك كثيرة، منها أن الزواج الذي يشرف عليه الأهل من الطرفين بالولاية وتقديم المشورة، ويشارك فيه المجتمع بإعلانه والترحيب به، فإذا ما شابته نزاعات وبدت بوادر الشقاق، فإن المجتمع يشرف على الصلح ببعث الحكمين لتحرير كل نزاع واقتراح سبل تجاوز الخلاف، تجنبا لكل

أثر سلبي. ذلك لأن العلاقات سبق أن توطدت بالمصاهرة. فإما أن تكون معاشرة بالمعروف أو تسريحا بإحسان، وليس فراقا بانتقام.

وحاصل الكلام في هذا المقام أن استهلال البناء الأسري بإشراف المجتمع وتعهده بالرعاية الحسنة للأسرة، يجعل غايتها الاستقرار والاستمرار والاستثمار الذي ينتج عنه حفظ المجتمع، حيث ينشأ إنسان الأسرة ليقوم بمهمة الاستخلاف، باعتبارها أعلى الغايات التي تنتهي إليها أحكام الأسرة بصفة ظاهرة أو خفية. وبذلك تتحقق مصالح عديدة، منها الديني ومنها الدنيوي. يقول صاحب المبسوط: «يتعلق بهذا العقد - يعني عقد النكاح - أنواع من المصالح الدينية والدنيوية، من ذلك حفظ النساء والقيام عليهن والإنفاق، ومن ذلك صيانة النفس عن الزنا، ومن ذلك تكثير عباد الله وأمة الرسول ﷺ» (٥).

يضاف إلى ذلك ما يتعلمه الفرد من واجباته الأسرية والاجتماعية وما له من حقوق، مما يقوي لديه روح التآلف والأخوة، يشهد لذلك قول الإمام أبي زهرة «فالوحدة الأولى لهذا المجتمع هي الأسرة، فهي الخلية التي تتربى فيها أنواع النزوع الاجتماعي في الإنسان عند أول استقباله للدنيا، ففيها يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات، وفيها تتكون مشاعر الألفة والأخوة الإنسانية وتبذر بذرة الإيثار» (٦).

٢- وأما ثاني الاعتبارات فهو أن الأسرة هي المحضن، الذي ينشأ فيه الأفراد على تربية اجتماعية تؤهلهم نفسيا للاندماج في المجتمع، والاعتزاز بالانتماء إليه، والعمل للمصلحة العامة. لذلك، ترسخ مؤسسة الأسرة في نفوس أبنائها أن حب الأوطان من الإيمان، خلافا لمن ينشأ خارج إطار أسرة حاضنة له، فإنه يتوجس من المجتمع، ويشعر أنه لا تربطه به آصرة دم أو إيمان، وقد يلحق الأذى بالأحياء والأشياء كلما شعر بغربته؛ لكونه غير محاط بأسرة تحتضنه.

ومن أجل تفادي هذه النتائج المحققة للمفاسد النفسية والاجتماعية حرص الإسلام على أن تكون الأسرة عامل وحدة اجتماعية، ينمو فيها التآلف وصلات الود بسبب ما يربط علاقاتها من قيم أخلاقية تنظم الشأن الاجتماعي. لذلك، لا غرابة في أن تكون توجيهات الشرع لتفعيل الرعاية المتبادلة والتعاون المشترك في تنزيل الحقوق والواجبات في ظل القرآن الكريم الذي يدعو إلى التساكن والتراحم والتواد، وبهذا تكون الأسرة «محضنا تدريبيا يهيئ للحياة في المجتمع، حياة التضامن والتكافل والوحدة والتعاون» (٧).

٣- أما ثالث الاعتبارات فهو أن الأسرة هي منطلق الامتدادات التي تشكل أواصر اجتماعية متقاربة تبدأ بعلاقة الزواج، حيث إن الأصل الأصيل في تشريع أمر العائلة هو إحكام آصرة النكاح، ثم ما يتبعها من روابط النسب والمصاهرة، مما يوسع دائرة الصلات إلى العشيرة ثم القبيلة، وبعد ذلك الأمة. وفي كل دائرة مظنة للتماسك وتقوية للكيان الاجتماعي، لأن «انتظام أمر العائلات في الأمة أساس حضارتها وانتظام جامعتها. فلذلك، كان الاعتناء بضبط نظام العائلة من مقصد الشرائع البشرية كلها، ولم تزل الشرائع تعنى بضبط أصل نظام تكوين العائلة، الذي هو اقتران الذكر بالأنثى المعبر عنه بالزواج أو النكاح، فإنه أصل تكوين النسل وتفريع القرابة بفروعها وأصولها. وجاءت شريعة الإسلام مهيمنة على شرائع الحق، فكانت الأحكام التي شرعتها للعائلة أعدل الأحكام وأوثقها وأجلها» (٨).

حاصل القول من كل ما تقدم بخصوص اعتبارات جعل مؤسسة الأسرة حافظة للكيان الاجتماعي، أنه لما كان لهذه المؤسسة شأنها العظيم، من حيث البناء والامتداد، فإن مقاصد أحكامها جديرة بأن تؤول إلى تفعيل وحفظ البعد المؤسساتي في المجتمع. والله أعلم وأحكم.

الهوامش

(١) سؤال الأخلاق، الفيلسوف المجدد طه عبدالرحمن، ص٤٤، ط الثالثة ٢٠٠٦م، المركز الثقافي العربي.

(٢) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبدالمجيد النجار، ص ١٦٢، ط الثانية ٢٠٠٨م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٣) ولا تنسوا الفضل بينكم، أكرم رضا، ص ٧، ط أولى ٢٠٠٨م، دار الأندلس الجديدة، مصر.

(٤) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبدالمجيد النجار، ص١٦٢، ط الثامنة ٢٠٠٨م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٥) المبسوط، للإمام السرخسي، ١٩٣/٤، طبعة ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، لبنان.

(٦) الأحوال الشخصية، الشيخ أبو زهرة، ص ١٩، ط أولى ١٩٥٧م، دار الفكر العربي، الظاهرة.

(٧) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٨) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص١٥١-١٥٢، ط الثانية ٢٠٠٨م، دار سحنون للنشر، تونس.

ضوابط النشر

حرصًا من إدارة مجلة «الوعي الإسلامي» على إشاعة الثقافة الواعية والمعلومة الصحيحة المنضبطة، فقد رأت المجلة التذكير بضوابط النشر على صفحاتها وفقا لما يلي:

ما يتعلق بالكاتب

- يكون الكاتب متخصصًا في مجال كتابته.
- إرسال صورة شخصية رقمية حديثة لشخصه الكريم بالإضافة إلى سيرته الذاتية.
- ترسل المشاركات باسم رئيس التحرير.
- يذكر العنوان كاملاً، مع كتابة رقم الهاتف، والفاكس، و البريد الإلكتروني.

ما يتعلق بالمادة العلمية

- يعالج الموضوع فكرة متميزة أو ملمحًا فريدًا يخدم المعنى العام للوعي الإسلامي، والثقافة النيرة والعلم الشرعي.
- يكتب المقال بلغة واضحة سليمة تناسب أكبر شريحة من القراء.
- تكون الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مخرجة.
- تذكر المراجع في هوامش المقال مشارًا إليها بأرقام تشتمل على اسم الكاتب واسم المؤلف ودار النشر وسنة الطبع.
- الالتزام التام بالأمانة العلمية عند الاقتباس أو الإستعانة بمصادر ومراجع.
- لا يزيد المقال على ثلاث صفحات A4، ويبتعد الكاتب عن المقالات المتسلسلة ما أمكن.
- تقرن الحوارات والتحقيقات والاستطلاعات بالصور الفوتوغرافية الملونة.
- ألا يكون المقال قد سبق نشره في الصحف والمجلات المطبوعة و الإلكترونية.
- في حال تأخر النشر، يفيدنا الكاتب برغبته في نشر مقالته بمكان آخر حتى يتم استبعادها من خطة النشر مستقبلا.

ملاحظة:

-المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة في حال عدم نشرها.

-المجلة لن تستقبل أي مادة ورقية ترسل عبر العنوان البريدي.

البريد الإلكتروني: info@alwaei.com

المحراب الإسلامي

لوحة فنية

خلف أحمد أبوزيد
باحث في التراث

كانت المساجد، وستظل، محور الحياة الدينية في العالم الإسلامي. ولقد أقيم أول مسجد في الإسلام من قبل النبي ﷺ في المدينة المنورة، وكان من البساطة بحيث لم يتجاوز في بدايته حجم قاعة لإقامة الصلاة، ومكانا يجتمع فيه النبي الكريم بأصحابه. وعلى هذا النمط البسيط أقيمت مساجد كثيرة في مختلف المدن والبلدان، التي أشع عليها نور الإسلام بعد ذلك. ولكي يتعرف المسلمون على الجهة الصحيحة للقبلة أثناء الصلاة وضع المحراب؛ ليكون وجهتهم الصحيحة للصلاة نحو الكعبة المشرفة. هذا المحراب الذي أمسى رمزا للصلاة، وموقعا جوهريا يذكر الناس بعبادة الله عزوجل. وتبارى الناس في تفخيمه، والتركيز على شكله، حتى صار تحفة معمارية تنطق بالجمال والإبداع، وتعبر في الوقت نفسه عن الروح المبدعة، التي تحلى بها المعماري والفنان والمسلم.

تعريف المحراب

والمحراب عنصر معماري، أكثر ما يوجد في المساجد والجوامع والزوايا والمدارس. وهو التجويف أو الحنية الموجودة في حائط القبلة. وقد قيل أيضا إنه «الغرفة، الموضع العالي، صدر البيت، أرفع مكان في المسجد، أشرف الأماكن، أشرف المجالس، وقد أطلق عليه أيضا القبلة» (١). والمحراب لا يتسع إلا لشخص واحد هو الإمام، يؤدي فيه الصلاة خلال وقت الذروة، وفي الأعياد والمواسم، وازدياد عدد المصلين، فيكون وجود الإمام داخل تجويف المحراب متيحا فرصة لتكوين صف كامل من المصلين، مما يوفر في المكان. أما في الأحوال العادية، فإن الإمام غالبا يقف بعيدا عنه، وذلك يعطي انطباعا بأن عمل المحراب لا يزيد على كونه علامة بارزة لتحديد اتجاه القبلة، وبذلك يعتبر هذا العمل الرئيسي للمحراب.

المحراب في القرآن الكريم

ورد ذكر المحراب في أكثر من موضع من آيات القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم:١١). ونلحظ هنا أن التوجه بالتسبيح صباحا ومساء كان لوجوده في المحراب، أي إن المحراب هو موضع لائق لذكر الله والتسبيح والتبتل إليه سبحانه، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:٣٧). والمحراب هنا «غرفة عبادتها في بيت المقدس» (٢). ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران:٣٩)، أي إن المحراب للصلاة ومناجاة الله وذكره سبحانه. كما وردت كلمة المحراب في القرآن الكريم بمعنى المكان العالي المكرم في المنزل، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ (ص:٢١)، «أي اعتلوا سور مصلاه ونزلوا إليه» (٣). كما جاءت لفظة محراب في القرآن الكريم بصيغة الجمع «محاريب»، في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ (سبأ:١٣)، وفسرت محاريب في هذه الآية الكريمة بالقصور والمساجد يتعبد فيها.

ومحاريب المساجد في الإسلام تنقسم إلى نوعين: محاريب مسطحة، ومحاريب مجوفة.

المحاريب المسطحة

هي مجرد رمز يعين اتجاه بيت الله الحرام على هيئة رسم مسطح أو غائر أو بارز. وتذكر المصادر التاريخية أنه «لم يكن المحراب في مسجد النبي ﷺ مجوفا، بل مسطحا تسطح الجدار نفسه، ولكنه كان محددا أو معلما، وظل في مكانه بعد توسعة المسجد في حياة النبي ﷺ، في السنة السابعة بعد الهجرة، وكان جراء ذلك أنه صار أقرب إلى الجدار الشرقي منه إلى الجدار الغربي، ذلك لأن توسعة المسجد نحو الغرب كانت أطول من توسعته نحو الشرق. وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقل جدار القبلة نحو الجنوب بمقدار خمسة أمتار تقريبا، ومن ثم نقل مكان المحراب نحو الجدار الجديد، ولكن على نفس المحور، وحدث الشيء نفسه في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث نقل جدار القبلة إلى الجنوب خمسة أمتار أخرى، وبذلك صار في موضعه الحالي» (٤). وقد ظل المحراب في العهد الإسلامي الأول مسطحا. أما عن المادة التي صنعت منها المحاريب المسطحة، فكانت من الجص على حائط القبلة. ومن أمثلة المحاريب المسطحة الباقية إلى اليوم محراب قبة الصخرة المسطح في المغارة تحت الأرض، كما يوجد في مسجد ابن طولون في القاهرة خمسة من المحاريب الجصية المسطحة، التي يعود بعضها إلى العصر الفاطمي، والبعض الآخر صنع في العصر المملوكي.

المحاريب المجوفة

تتخذ المحاريب المجوفة هيئة بنائية، وكيانا معماريا فريدا، ولا يعرف على وجه التحديد مكان أول محراب مجوف في المساجد الإسلامية، غير أن بعض

المصادر ترجع إنشاء أول محراب مجوف إلى توسعة المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبدالملك، زمن ولاية عمر بن عبدالعزيز على المدينة، «الذي جعل للمسجد محرابا مجوفا، وموقعه في الروضة الشريفة، أمام مصلى النبي ﷺ، فكان هذا أول محراب مجوف في المسجد» (٥). وقد انقسمت المحاريب المجوفة إلى نوعين: المحاريب المجوفة ذات المسقط المتعامد الأضلاع، والتي ترجع إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، خصوصا في شرق العالم الإسلامي، خلال العصر العباسي كما في «محراب قصر الإخيصر، ومحراب أقدم مسجد باق على أرض فارس، ويعرف باسم طريق خانه» (٦). أما خلال النصف الأخير من القرن الثاني الهجري، فقد كانت الغلبة للمحراب المجوف ذي المسقط نصف الدائري، والذي نجده بكثرة في العمائر الأموية، كما في المسجد الأموي بدمشق، وجامع قصر الحلايات، ومسجد خان الزبيب، ومسجد أبو الوليد، والمحراب الصغير في قصر المشتى وقصر الطوبة، وجميعها في منطقة الشام. وسرعان ما انتشر هذا النوع من المحاريب المجوفة في بناء المساجد في شرق العالم الإسلامي وغربه على حد سواء. وقد قيل الكثير من الآراء بشأن الحكمة من المحراب المجوف، منها أنه يفيد في تعيين اتجاه القبلة، وفي تحديد مكان الإمام عند الصلاة، وفي توسيع المسجد بما يقرب من صف من المصلين في الصلاة الجامعة، ويساعد على تجميع صوت الإمام وتكبيره وإيصاله إلى المصلين، الذين يوليهم ظهره أثناء الصلاة، لاسيما قبل اختراع مكبرات الصوت.

مواد المحاريب

لقد نال المحراب المجوف عناية كبيرة من مؤسسي المساجد من حيث الاهتمام بعمارته وزخرفته، ونوعية المواد التي يغشى بها تجويفه. ونتوقف هنا مع أهم المواد التي صنع منها تجويف المحاريب.

الجص

يعد الجص من أقدم المواد التي صنع منها تجويف المحاريب في المساجد الإسلامية. ويعد المحراب القديم في جامع أحمد ابن طولون، في مدينة القاهرة، أقدم مثل في مصر على استخدام الجص في تشييد المحاريب، حيث استخدم الجص في تشييد محراب المسجد، وذلك من ناحية جداره المجوف وعقود واجهته، وما حولها من زخارف جصية كلها تعود إلى فترة ابن طولون «ما عدا الكسوة (الطاقية) التي من الخشب، والتي زخرفت بالألوان، فهي من أعمال السلطان لاجين المملوكي، وكذلك الشريط المزخرف بالفسيفساء والكسوة من الحشوات والأشرطة الرخامية، التي تغطي سطح تجويف المحراب» (٧).

الرخام

كان الرخام من المواد المفضلة في تغشية محاريب المساجد. ومن أشهر المحاريب الرخامية القديمة المحراب الذي عثر عليه في جامع الخاصكي ببغداد، ويعتقد أنه كان في الأصل قد عمل لجامع المنصور، الذي بناه لقصره في وسط بغداد، وهو عبارة عن قطعة من الرخام، وهناك أيضا محراب جامع عقبة ابن نافع في القيروان، والذي زود على أيدي حكام إفريقيا من الأغالبة، وهو من حشوات رخامية من المرمر المزخرف، ومحراب مسجد الناصر قلاوون في مدينة القاهرة، والذي يعد من أكبر المحاريب في مصر وأفخمها، «يكتنفه ثلاثة أعمدة

رخامية ذات تيجان كأسية، وفي تجويف المحراب فسيفساء من الرخام، والصدف متعددة الألوان» (٨). وأيضا في محراب مسجد السلطان حسن «المكسو بالرخام الملون المحلى بنقوش ذهبية، والذي يكتنفه أربعة أعمدة من الرخام، وعلى يمين المحراب المنبر، وهو من الرخام الأبيض، وبابه من الخشب المصفح بالنحاس المنقوش»(٩). كما زاوج المسلمون في المغرب والأندلس في عمل المحاريب وزخرفتها بين استخدام الجص والرخام في عبقرية فنية فريدة، تفصح عن نفسها في محراب جامع قرطبة الكبير، ومحراب مدرسة يوسف في غرناطة.

الخزف

وإلى جانب الجص والرخام، برع الفنان المسلم في استخدام مختلف أنواع البلاطات الخزفية، لتغشية المحاريب، وكان أول ظهور لبلاطات الخزف ذات البريق المعدني، في صنع المحاريب، في سامراء بالعراق، ثم أرسلت ليزدان بها محراب مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وهي باقية إلى يومنا هذا (١٠). وقد تنافس الغرب الإسلامي مع المشرق الإسلامي، من حيث الشغف باستخدام الخزف لزخرفة المحاريب، ففي بلاد المغرب والأندلس، خصوصا في عصر دولة الموحدين، استخدم الزليج بزخارفه الهندسية الدقيقة والمتعددة الألوان على نطاق واسع، حتى بات من مميزات الفن الإسلامي الرئيسية هناك، كما أثبت الخزافون في المشرق الإسلامي جدارتهم بريادة هذا الفن، من خلال استخدام بلاطات الخزف ذي البريق المعدني، والخزف ذي اللون الأزرق الفيروزي، لتغشية وزخرفة حنايا المحاريب، وذلك بتجميل محاريب البلاطات الخزفية بالكتابات النسخية، التي تحوي آيات من القرآن الكريم، إلى جانب الزخارف النباتية المعروفة بالتوريق أو الأرابسك، واستخدمت المقرنصات الخزفية أيضا لتزيين طواقي المحاريب، مثلما نرى في محراب جامع يزد، ومحراب جامع قلبان في بخارى. وقد لحق الأتراك العثمانيون بركب المحاريب الخزفية، فنراهم يستخدمون بلاطات الخزف المنتجة في أزتيك، ليس فقط لتغشية المحاريب، بل لكسوة جدران المساجد من الداخل بها.

المحاريب المتنقلة

عرف المسلمون المحاريب المتنقلة، أو غير الثابتة، وهي محاريب يمكن نقلها من مكان إلى آخر عند الضرورة، وكانت هذه المحاريب تصنع من الخشب، وكان يعنى بزخرفتها، حيث كان يستخدم بعضها لإقامة الصلاة في القصور الخاصة بالخلفاء والأمراء. وقد عرفت هذه المحاريب المتنقلة أيضا في منطقة الموصل بالعراق، وما وقع شمالها من أرض الأكراد، وذلك بغرض استخدامها في المصلى الصيفي للمساجد التي تقع في المناطق القارية، التي يتسم مناخها بالبرودة الشديدة شتاء، والحرارة الشديدة صيفا، الأمر الذي دفع بالمسلمين في هذه المناطق إلى تقسيم المسجد إلى قسمين، أحدهما مغلق للصلاة في أوقات الشتاء، والآخر مفتوح لاستخدامه في فصل الصيف. ولما كان المحراب الرئيسي يشيد في الجزء المغلق، فقد كان الاحتياج شديدا لاستخدام المحاريب المتنقلة في المصليات الصيفية. ومن أمثلة هذه المحاريب المتنقلة الباقية إلى اليوم «محراب السيدة رقية، بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، والذي يعود تاريخه إلى عام ٥٣٣م» (١١).

وفي النهاية نقول: رغم اختلاف العلماء بين مؤيد ومعارض للمحراب المجوف، فإنه يمثل عنصرا فنيا ومعماريا مهما، يؤكد على الطراز الفريد للعمارة الإسلامية، ويمثل في الوقت نفسه أحد الملامح المعبرة عن جماليات الفن الإسلامي.

الهوامش

١ - مختار الصحاح، مادة «م ح ب»، ص ١٢٨.
٢ - كلمات القرآن.. تفسير وبيان، للشيخ حسنين محمد مخلوف، ص ٣٧.
٣ - المصدر السابق، ص ٢٦٢.
٤ - موسوعة المفاهيم الإسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وزارة الأوقاف المصرية، الفصل الخاص بالمحاريب (نسخة إلكترونية).
٥ - وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي، محاريب المساجد.
٦ - الفن الإسلامي، أبوصالح الألفي، ص ١٦٨.
٧ - المصدر السابق، ص ١٦٩.
٨ - المصدر السابق، ص ١٩٨.
٩ - جامع السلطان حسن وما حوله، د. حسن عبدالوهاب، ص ١٨.
١٠ - الفن الإسلامي، مصدر سابق، ص ١٧٥.
١١ - موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، د. حسن الباشا، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (نسخة إلكترونية).

الأمراض الوراثية.. والعلاج الجيني

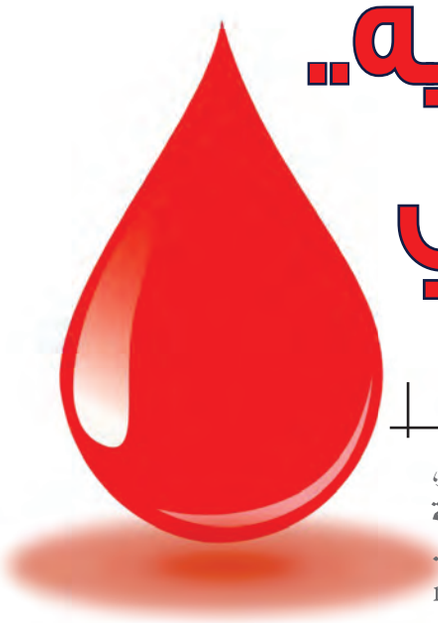

د. محمد مصطفى إبراهيم
المركز القومي للبحوث بمصر - قسم الوراثة والسيتولوجي

لقد حدثت ثورة في الطب خلال القرون الماضية، بداية من استخدام المجهر، ثم البنج والتخدير والتطعيم والمضادات الحيوية، وانتهاء بزراعة الأنسجة والأعضاء البشرية، وكذلك تقدمت وسائل التشخيص والتحليل والعلاج. ويتهيأ الطب الآن ليدخل عصرا جديدا يسمى الطب الجزيئي molecular medicine، **للتعرف على مسببات الأمراض بالتفصيل، على المستوى الفيزيائي والجزيئي. ولاتزال الاكتشافات والبحوث الطبية في مجال الطب الجزيئي تشهد تطورا مستمرا.**

وفي مايو عام ٢٠١٢م، تمكن فريق طبي سعودي من عمل أول تحليل جيني لفيروس الإيدز، أو نقص المناعة، باستخدام جهاز تحليل الجينوم الجزيئي، الذي يتعرف على الفيروس، ويكشف نوع سلالته، ويحددها.

يولد الإنسان بمجموعة من الصفات الوراثية المسؤولة عن لون الجلد والشعر والطول ولون العينين، والخصائص الوظيفية لأعضاء الجسم اللازمة لاستمرار الحياة وبقاء الجسم سليما، وهذه الصفات محمولة على جينات موجودة على كروموسومات تمثل الجينوم البشري، الذي يشمل من ٢٠ إلى ٢٥ ألف جين، طبقا لما أعلنته النتائج الأخيرة لمشروع الجينوم البشري، وتم عمل الخريطة الوراثية للإنسان لمعرفة جينات كثير من الأمراض الوراثية.

يمكن تقسيم الأمراض إلى أمراض وراثية وغير وراثية: أمراض وراثية بيئية وأمراض بيئية. وقد عرف الإنسان حوالي ٦ آلاف مرض وراثي بشري في شعوب العالم المختلفة. ومعظم الأمراض الوراثية سببها جينات متنحية، أو طفرات تعطل إنتاج البروتينات الطبيعية.

تشكل الأمراض الوراثية والتشوهات الخلقية نسبة عالية من أمراض المواليد الجدد، ويتوقع إحصائيا أن يصاب طفل واحد من كل ٢٥ طفلا بمرض وراثي ناتج عن خلل في الجينات، أو بمرض له عوامل وراثية، مثل: عيب خلقي، وتأخر عقلي. وتسعة من هؤلاء المصابين بهذه الأمراض يتوفون باكرا، أو يحتاجون إلى البقاء في المستشفيات لمدة طويلة.

وفي العالم العربي تمثل الأمراض الوراثية مشكلة كبرى في مجال الصحة العامة، وتسهم عوامل عديدة

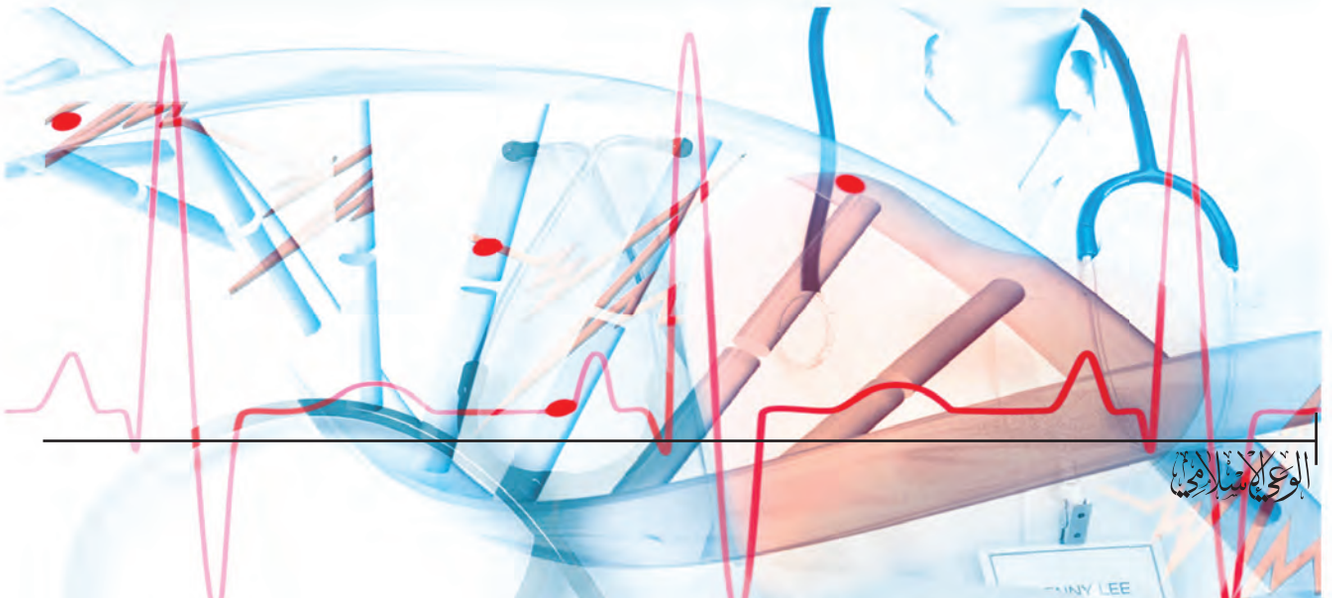

في انتشارها الواسع في المنطقة، منها ارتفاع معدل زواج الأقارب. وقد أنشئ المركز العربي للدراسات الجينية في دولة الإمارات العربية من أجل تشخيص الاضطرابات الوراثية ومنعها، ووضع أسس مستقبلية للرعاية الصحية في المنطقة.

وغني عن الذكر أن المركز العربي للدراسات الجينية قد أطلق مشروعا طموحا في شهر ديسمبر ٢٠٠٤م من أجل وضع «الفهرس الوراثي للعرب» (CTGA)، بهدف تنوير المجتمع العلمي والجمهور وتعريفهم بالأمراض الوراثية عند العرب، واقتراح استراتيجيات للبحث في المستقبل.

وقد عقد المؤتمر العربي الخامس لعلوم الوراثة البشرية في أواخر عام ٢٠١٣م تحت شعار «تطبيقات علوم الوراثة البشرية في الرعاية الصحية» بمشاركة ٦٠٠ طبيب وعالم وراثة من أكثر من ١٥ دولة عربية وأجنبية.

وتضمنت فعاليات المؤتمر العربي جلسة عن تشخيص الاضطرابات الوراثية، وتقنيات تحديد الخصائص الوراثية للأفراد. وقد كشف المؤتمر عن وجود نحو ١٦٠٠ مرض وراثي منتشر في العالم العربي، واصفا هذا العدد بأنه «كبير جدا»، ويساعد على الإصابة بالأمراض العضوية.

وقال رئيس المركز العربي للدراسات الجينية رئيس المؤتمر الدكتور نجيب الخاجة إن: «٨٠ في المئة من الأمراض الموجودة في العالم مشتركة بين الدول، فيما تتوزع الـ ٢٠ في المئة الباقية على الدول العربية، مع وجود خصوصية في كل دولة». وأضاف: «بالنسبة إلى دول الخليج، يبلغ متوسط الأمراض الوراثية المكتشفة ٢٥٠ مرضا وراثيا، حيث يبلغ عدد الأمراض الوراثية في الإمارات ٢٧٠ مرضا، وينخفض العدد في البحرين ليتجاوز ٢٠٠ مرض، بينما يزيد إلى ٣٠٠ مرض في سلطنة عمان، ويصل أقصاه في الكويت بـ ٣٤٠ مرضا وراثيا».

تعريف العلاج الجيني

يعرف العلاج الجيني على أنه استبدال الجين السليم الذي يؤخذ من المريض نفسه أو من إنسان آخر بالجين المرض أو المسبب للمرض الوراثي.

طرق العلاج الجيني

توجد عدة طرق أو بروتوكولات معتمدة للعلاج الجيني في عدة دول، مثل: أميركا ١٣٥ بروتوكولا، و٦٠ في أوروبا، وواحد في الصين، وآخر في اليابان. وكلها تعتمد على الأسس التالية:

١ - التعرف على الموقع الجيني المستهدف للعلاج.

٢ - إحلال أو إضافة الجين السليم مكان الجين المعطوب عن طريق الحقن المباشر، أو استخلاص الخلايا المستهدفة وعلاجها خارج الكائن الحي ثم حقنها ثانية في الجسم بطريقة غير مباشرة.

٣ - نقل الجين السليم عن طريق ناقل إلى الخلايا المستهدفة، ومن أهم النواقل الفيروسات بأنواعها.

٤ - يجب أن يصل الجين إلى عدد كاف من الخلايا المستهدفة؛ ليستقر بها ويعبر عن نفسه.

تقسيمات العلاج الجيني

يمكن تقسيم العلاج الجيني إلى عدة تقسيمات حسب طريقة إدخال الجين إلى خلايا الجسم، أو طبقا للخلايا المستهدفة للعلاج (in vivo داخل الكائن ex vivo/ خارج الكائن الحي أو خلايا جسمية أو جنسية).

استخداماته في علاج الأمراض المختلفة

مازالت المعالجة الجينية للأمراض تحت التجارب على الحيوان، وهناك تجارب محدودة على الإنسان بداية من سنة ١٩٩٥م، حيث بدأ العالم أندرسون في معهد الصحة الأميركي تجاربه على سرطان المخ، وحقق بعض النجاح، ومازالت الأبحاث مستمرة. كما أعلن في الصحف سنة ٢٠٠٧م عن نجاح علاج العمى الوراثي بالعلاج الجيني في أحد مستشفيات لندن لأول مرة على حيوانات التجارب.

ومن أهم الأمراض المرشحة للعلاج: أمراض السرطان والأمراض الوراثية، مثل: أمراض التليف الكيسي، وأمراض الدم، مثل: الهيموفيليا بأنواعها. كذلك يمكن استخدامه في أمراض الأيض، أو التمثيل الغذائي الناتجة عن خلل في وظائف أجهزة الجسم.

أهم الصعوبات التي تواجه تطبيقه

يعتبر العلاج الجيني من التقنيات الحديثة التي تحتاج إلى خبرة وإلمام كامل بطرق العلاج والبروتوكولات المعتمدة والمطبقة في كثير من الدول المتقدمة، كذلك من أهم الصعوبات عدم ثبات الجين المنقول، ومشاكل الجهاز المناعي، والأمراض متعددة الجينات، واحتمال تنشيط الجينات الضارة، مثل: جينات الأورام، نتيجة الدمج الخاطئ للجينات السليمة في غير أماكنها المستهدفة، بالإضافة إلى النواحي اللاخلاقية والدينية. ويمكن في المستقبل التغلب على هذه الصعوبات ونشر تطبيقه في معظم دول العالم. ويتنبأ العلماء أنه بحلول عام ٢٠٢٠م يمكن التعرف على معظم جينات الأمراض الوراثية وعلاج الأمراض الخطيرة، مثل: السرطان والإيدز وغيرهما، ونحن في انتظار الوعود الحالمة لهذه التقنيات الحديثة ومدى إمكانية تطبيقها في البلدان النامية. هذا الذي سوف نراه في المستقبل القريب، إن شاء الله.

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

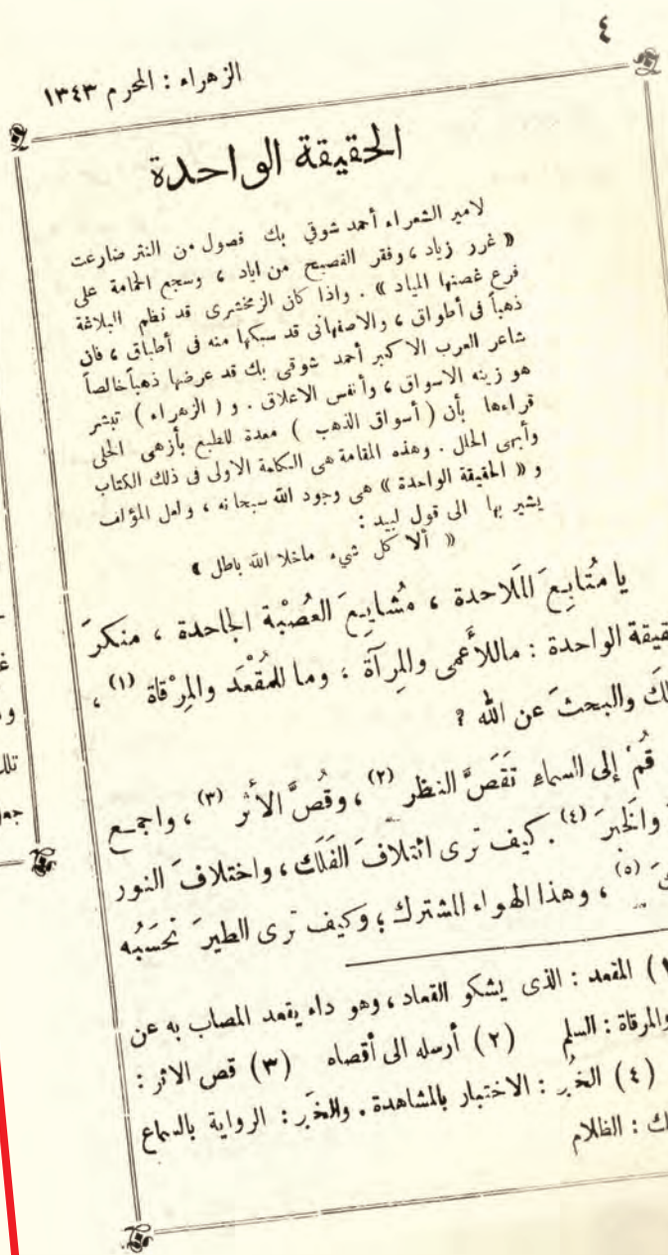

٤

الزهراء : المحرم ١٣٤٣

الحقيقة الواحدة

لامير الشعراء أحمد شوقي بك فصول من النثر ضارعت « غرر زياد ، وفقر الفصيح من اياد ، وسجع الحمامة على فرع غصتها المياد » . واذا كان الزمخشري قد نظم البلاغة ذهباً في أطواق ، والاصفهاني قد سبكها منه في أطباق ، فان شاعر العرب الاكبر أحمد شوقي بك قد عرضها ذهباً خالصاً هو زينه الاسواق ، وأنفس الاعلاق . و (الزهراء) تبشر قراءها بأن (أسواق الذهب) معدة للطبع بأزهى الحلى وأبهى الحلل . وهذه المقامة هي الكلمة الاولى في ذلك الكتاب و « الحقيقة الواحدة » هي وجود الله سبحانه ، ولعل المؤلف يشير بها الى قول لبيد :

« ألا كل شيء ماخلا الله باطل »

يا مُتابِعَ اللاحدة ، مُشايِعَ العُصْبَة الجاحدة ، منكرَ الحقيقة الواحدة : ماللأعمى والمِرآة ، وما للمُقْعَد والمِرْقاة (١) ، ومالكَ والبحثَ عن الله ؟

قُمْ إلى السماء تَقَصَّ النظر (٢) ، وقُصَّ الأثر (٣) ، واجمع الخُبْرَ والخَبَر (٤) . كيف ترى ائتلافَ الفَلَك ، واختلافَ النور والحَلَك (٥) ، وهذا الهواء المشترك ؛ وكيف ترى الطيرَ تحسَبُه

(١) المقعد : الذي يشكو القعاد ، وهو داء يقعد المصاب به عن المشي . والمرقاة : السلم (٢) أرسله الى أقصاه (٣) قص الاثر : اقتفاه (٤) الخبر : الاختبار بالمشاهدة . والخَبَر : الرواية بالسماع (٥) الحلك : الظلام

تَرِك ، وهو في شَرَك (١) ، استهدفَ فما نجا حتى هلَك (٢) ؛ تعالى الله دَلَّ المُلْك على المَلِك !

وقِف بالارض سَلْمى : من زمَّ السحابَ وأجراها (٣) ، ورحلَ الرياحَ وعرَّاها (٤) ، ومن أقعد الجبالَ وأنهض ذُراها (٥) ، ومن الذي يحلُّ حُباها (٦) ، فتخرُجُ له في غدٍ جِباها ؟ أليس الذي بدأها غبَرات (٧) ، ثم جمعها صَخَرات ، ثم فرَّقها مُشْمَخِرَّات (٨) ؟ ثم سَلَ النملَ مَنْ أدقَّها خَلْقا (٩) ، ومَلأها خُلُقا (١٠) ، وسلَكها طُرُقا (١١) ، تبتغي رزقا ؟

(١) تظنه حراً طليقاً ، وهو أينما حلّ في متناول قبضة الصياد (٢) استهدف : أصبح غرض السهام . والمراد انه لايكاد ينجو من سهم مصوب اليه حتى يدركه الموت من سهم آخر (٣) زم الناقة : خطمها (٤) رحل البعير : شد على ظهره الرحل تمهيداً للسير . عراها : جردها مما فيها من أمطار (٥) أقعد الجبال : ثبت قواعدها في الارض . وأنهض ذراها : أي رفع عاليها شامخة في السماء (٦) يحل حباها : أي يفككها من حبوتها وينهضها من ربضتها (٧) غبرات جمع غبرة (بتسكين الباء) وهي ذرة الغبار (٨) فرقها في الارض ، ومشمخرات أي باذخات (٩) أدقها : صيرها دقيقة (١٠) خلق النمل : تلك النظم المتسقة التي يوحي لها بها الالهام (١١) سلكها طرقا : جعل لها طرقا تسلكها

أحمد شوقي:

هو أحمد شوقي علي أحمد شوقي بك، ولد في: (١٦ أكتوبر ١٨٦٨م)، وتوفي في: (١٤ أكتوبر ١٩٣٢م)، شاعر مصريّ، يُعدّ من أشهر شعراء العربية في العصر الحديث، يلقب بـ "أمير الشعراء".

وسَلِ النحلَ مَنْ أَلْبَسَها الحِبَرَ (١) ، وقلَّدها الإبرَ (٢) ، وأَطْعَمَها صَفوَ الزَّهر ، وسخَّرها طاهيةً للبشر (٣) ؟

لقد نبذتَ الذَّلولَ المُسْعِفَةَ (٤) ، وأَخذت فى معامي الفَلْسَفَة (٥) ، على عَشواءَ من الضلال مُسْعِفَة (٦) . أَوْلاَ فَخبِّرْنى : الطبيعةُ مَنْ طبَعَها (٧) ، والنظُمُ المتقادمةُ مَنْ وضَعَها ، والحياة الصانِعَة مَنْ صَنَعَها ، والحركةُ الدافعةُ مَنِ الذى دَفَعَها (٨) ؟!

(١) الحبر : جمع حبرة كعنبة وهى برود يمنية ملونة . وقد شبه بها المؤلف تلك الالوان الزاهية التى يتخايل بها النحل تحت أشعة الشمس

(٢) قلده السيف : وضع حمالته في عنقه (٣) طاهية : طابخة ، تطبخ للناس في بطونها عسلا (٤) الذلول من الدواب : ما كانت سهلة القيادة ، والمراد بها هنا الشريعة السمحة . والمسعفة : التى تسعف أبناءها باليقين والايمان

(٥) المعامى : المجاهل

(٦) العشواء : العمياء . وأعسف : خبط في السير

(٧) طبعها : خلقها . وهنا يبدأ المؤلف فى تعجيز الملحدين

(٨) النظم المتقادمة ، والحياة الصانعة ، والقوة الدافعة : كل هذه قوى يظن الملحدون كفراً انها هى الاصل فى الكائنات

عرَفْنا كما عرفت المادَّة ، ولٰكنْ هُدِينا وضَلَلْتَ الجادَّة (١) ، وقُلْنا مِيلَكَ بالهَيولَى (٢) ولٰكنْ لَمْ نَجْحَدِ اليدَ الطُّولَى (٣) ، ولا أَنكرْنا الحقيقة الأُولى (٤)

أَتينا العناصرَ مِنْ عُنْصُرِها (٥) ، وَرَدَدْنا الجواهرَ إلى جوهرها (٦) ، اطَّرَحنا فاسترَحْنا (٧) ، وسلَّمْنا فَسَلِمْنا ، وآمنا فأَمِنَّا ؛ وما الفَرقُ بيْنَنا وبينَك إلا أَنكَ قد عَجَزْتَ فقلتَ : سرٌّ مِنَ الأَسرار . وعَجَزْنا نحن فقلنا : اللهُ وراء كلِّ ستار !

شوقى

(١) الجادة : الطريق القويم

(٢) الهيولى : مادة ، وشبه الاوائل طينة العالم بها (٣) اليد الطولى : يد الله التى أبدعت هذه الطينة ونفخت فيها الروح (٤) الحقيقة الاولى : وجود الله (٥) العناصر جمع عنصر وهو أولا بمعنى المادة البسيطة ، وثانياً بمعنى الاصل . وأتيناها نى بحثنا فيها

(٦) الجواهر : جمع جوهر : وهو الحجر يستخرج منه شيء يقتفع به ، والجوهر ثانيا بمعنى الاصل والجبلة

(٧) اطرح الحمل : ألقاه عن عاتقه . والمقصود من هذه الجملة وما بعدها : آمنا بالله وتركنا ما دون هذا من التفكير العقيم الذى لانهاية له ، والبحث الضال الذى لا يؤمن فيه العثار ...

مجلة الزهراء

مجلة أدبية اجتماعية شهرية ذات اتجاه عربي إسلامي، أسسها الشيخ محب الدين الخطيب قاومت التغريب ورموزه؛ صدرت لمدة خمس سنوات من عام ١٣٤٣ - ١٣٤٩ هـ الموافق ١٩٢٤ - ١٩٣٠ م، كتب فيها كوكبة من أدباء العرب والمسلمين في العصر الحديث؛ مثل: مصطفى صادق الرافعي، وشكيب أرسلان، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد تيمور باشا. وغرد على صفحاتها من الشعراء أمثال: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وغيرهم من أعلام الشعر والنثر في العالم العربي والإسلامي.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

حكم استعمال مياه المجاري بعد تنقيتها

- عنوان النازلة: حكم استعمال مياه المجاري بعد استحالتها، وزوال أعراض النجاسة منها.

- الخلاصة الحكمية: يجوز استعمال المياه التي كانت نجسة (كالمجاري، والعطورات التي تحتوي على الكحول، وسائر المائعات النجسة) بعد تطهيرها، وإزالة النجاسة منها. وذلك في الشرب، والتطهير، ورفع الحدث، وإزالة الحدث، إلا إذا نشأ عنها ضرر صحي، فلا يجوز إذن.

وتحفظ عضو المجمع الفقهي الإسلامي بمكة: د. بكر أبو زيد على قرار المجمع، وقضى بتحريم استعمال هذه المياه، لعلل سيأتي ذكرها.

- **القرارات، والتوصيات، والبحوث الصادرة من المجامع واللجان الفقهية، والهيئات الشرعية بخصوص هذا الموضوع:**

- أولا: ملخص بحث اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

وفيه: أن الماء الكثير المتغير بنجاسة يطهر إذا زال تغيره بصب ماء طهور فيه باتفاق، أو بطول مكث، أو تأثير الشمس، ومرور الرياح عليه، أو برمي تراب ونحوه فيه، على الراجح عند الفقهاء، لزوال الحكم بزوال علته.

وعلى هذا: فإذا كانت مياه المجاري المتنجسة - وهي بلا شك كثيرة - تتخلص بالطرق الفنية الحديثة مما طرأ عليها من النجاسات، فإنه يمكن حينئذ أن يحكم بطهارتها، لزوال علة تنجسها، وهي تغير لونها، أو طعمها، أو ريحها بالنجاسة، والحكم يدور مع علته وجودا وعدما.

وبذلك تعود هذه المياه إلى أصلها، وهو الطهورية، ويجوز استعماله في الشرب ونحوه، وفي إزالة الأحداث والأخباث، وتحصل بها الطهارة من الأحداث والأخباث، إلا إذا كانت هناك أضرار صحية تنشأ عن استعمالها، فيمتنع استعمالها فيما ذكر محافظة على النفس، وتفاديا للضرر، لا لنجاستها، ولكن لو استعملها في إزالة الأحداث، أو الأخباث صحت الطهارة.

وينبغي للمسلمين أن يستغنوا عن ذلك ويجتنبوه، اكتفاء بالمياه الأخرى، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، احتياطا للصحة، واتقاء للضرر، وتنزها عما تستقذره النفوس، وتنفر منه الطباع والفطر السليمة. انتهى الملخص.

- ثم صدر بعد ذلك قرار هيئة كبار العلماء رقم: (٦٤)، في (١٣٩٨/١٠/٢٥هـ)، والذي جاء فيه: بناء على ما ذكره أهل العلم من أن الماء الكثير المتغير بنجاسة يطهر إذا زال تغيره بنفسه، أو بإضافة ماء طهور إليه، أو زال تغيره بطول مكث، أو تأثير الشمس، ومرور الرياح عليه، أو نحو ذلك، لزوال الحكم بزوال علته.

وحيث إن المياه المتنجسة يمكن التخلص من نجاستها بعدة وسائل، وحيث إن تنقيتها وتخليصها مما طرأ عليها من النجاسات، بواسطة الطرق الفنية الحديثة لأعمال التنقية يعتبر من أحسن وسائل الترشيح والتطهير، حيث يبذل الكثير من الأسباب المادية لتخليص هذه المياه من النجاسات، كما يشهد بذلك ويقرره الخبراء المختصون بذلك، ممن لا يتطرق الشك إليهم في عملهم وخبرتهم وتجاربهم.

لذلك، فإن المجلس يرى طهارتها بعد تنقيتها التنقية الكاملة، بحيث تعود إلى خلقتها الأولى، لا يرى فيها تغير بنجاسة من طعم، ولا لون، ولا ريح، ويجوز استعمالها في إزالة الأحداث والأخباث، وتحصل الطهارة بها منها، كما يجوز شربها، إلا إذا كانت هناك أضرار صحية تنشأ عن استعمالها، فيمتنع ذلك، محافظة على النفس، وتفاديا للضرر لا لنجاستها.

والمجلس إذ يقرر ذلك: يَستحسن الاستغناء عنها في استعمالها للشرب متى وجد إلى ذلك سبيل، احتياطا للصحة، واتقاء للضرر، وتنزها عما تستقذره النفوس، وتنفر منه الطباع.

والله الموفق. وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهى القرار.

- **التعليق:**

في القرارين السابقين تعلق واضح ببعضهما، فإن اللجنة الدائمة

قد أعدت بحثا حول هذه النازلة، وهو الملخص الذي عرضناه، ثم تبنته هيئة كبار العلماء بعد اطلاع مجلسها عليه، وعلى خطاب معالي وزير الزراعة والمياه المتعلق بالمياه المتنجسة بعد تطهيرها، وقد خلصا إلى جواز شرب هذه المياه، واستعمالها في التطهير، ورفع الحدث وإزالة الخبث، بشرط ألا يترتب على ذلك ضرر صحي.

إلا أن كلا القرارين استحسنا الاستغناء عن هذه المياه في استعمالها للشرب متى وجد إلى ذلك سبيل، احتياطا للصحة، واتقاء للضرر، وتنزها عما تستقذره النفوس، وتنفر منه الطباع.

- وفي عام (١٩٨٩م) اجتمع مجلس (المجمع الفقهي الإسلامي) لرابطة العالم الإسلامي في دورته الحادية عشرة المنعقدة بمكة المكرمة، في الفترة من يوم الأحد (١٣ رجب ١٤٠٩هـ - الموافق ١٩ فبراير ١٩٨٩م)، إلى يوم الأحد (٢٠ رجب ١٤٠٩هـ - الموافق ٢٦ فبراير١٩٨٩م)، ونظر في السؤال عن حكم ماء المجاري بعد تنقيته، هل يجوز رفع الحدث بالوضوء والغسل به؟ وهل تجوز إزالة النجاسة به؟

وبعد مراجعة المختصين بالتنقية بالطرق الكيماوية، وما قرروه من أن التنقية تتم بإزالة النجاسة منه على مراحل أربعة:

وهي الترسيب، والتهوية، وقتل الجراثيم، وتعقيمه بالكلور، بحيث لا يبقى للنجاسة أثر في طعمه ولونه وريحه، وهم مسلمون عدول موثوق بصدقهم وأمانتهم.

قرر المجمع ما يأتي:

إن ماء المجاري إذا نقي بالطرق المذكورة، أو ما يماثلها، ولم يبق للنجاسة أثر في طعمه، ولا في لونه، ولا في ريحه، صار طهورا، يجوز رفع الحدث وإزالة النجاسة به. بناء على القاعدة الفقهية التي تقرر: (أن الماء الكثير الذي وقعت فيه نجاسة يطهر بزوال هذه النجاسة منه، إذا لم يبق لها أثر فيه). والله أعلم.

انتهى القرار.

(وجهة نظر في الاستعمالات الشرعية والمباحة لمياه المجاري المنقاة)

عضو المجمع الفقهي الإسلامي بمكة: بكر أبو زيد

الحمد لله، وبعد... فإن المجاري معدة، في الأصل، لصرف ما يضر الناس، في الدين والبدن، طلبا للطهارة، ودفعا لتلوث البيئة. وبحكم الوسائل الحديثة لاستصلاح ومعالجة مشمولها، لتحويله إلى مياه عذبة، منقاة، صالحة للاستعمالات المشروعة، والمباحة مثل: التطهر بها، وشربها، وسقي الحرث منها، بحكم ذلك، صار السبر للعلل، والأوصاف القاضية بالمنع، في كل أو بعض الاستعمالات، فتحصل أن مياه المجاري قبل التنقية معلة بأمور:

الأول: الفضلات النجسة بالطعم واللون والرائحة.

الثاني: فضلات الأمراض المعدية، وكثافة الأدواء والجراثيم (البكتريا).

الثالث: علة الاستخباث والاستقذار، لما تتحول إليه باعتبار أصلها، ولما يتولد عنها في ذات المجاري، من الدواب والحشرات المستقذرة طبعا وشرعا.

ولذا صار النظر بعد التنقية في مدى زوال تلكم العلل، وعليه: فإن استحالتها من النجاسة - بزوال طعمها ولونها وريحها - لا يعني ذلك زوال ما فيها من العلل والجراثيم الضارة. والجهات الزراعية توالي الإعلام بعدم سقي ما يؤكل نتاجه من الخضار، بدون طبخ، فكيف بشربها مباشرة؟ ومن مقاصد الإسلام: المحافظة على الأجسام، ولذا لا يورد ممرض على مصح، والمنع لاستصلاح الأبدان واجب، كالمنع لاستصلاح الأديان. ولو زالت هذه العلل، لبقيت علة الاستخباث والاستقذار، باعتبار الأصل، والماء يعتصر من البول والغائط، فيستعمل في الشرعيات والعادات على قدم التساوي.

وقد علم من مذهب الشافعية، والمعتمد لدى الحنبلية، أن الاستحالة هنا لا تؤول إلى الطهارة، مستدلين بحديث النهي عن ركوب الجلالة وحليبها، رواه أصحاب السنن وغيرهم، ولعلل أخرى.

مع العلم: أن الخلاف الجاري بين متقدمي العلماء، في التحول من نجس إلى طاهر، هو في قضايا أعيان، وعلى سبيل القطع، لم يفرعوا حكم التحول على ما هو موجود حاليا في المجاري، من ذلك الزخم الهائل من النجاسات، والقاذورات، وفضلات المصحات، والمستشفيات، وحال المسلمين لم تصل بهم إلى هذا الحد من الاضطرار، لتنقية الرجيع، للتطهر به، وشربه، ولا عبرة بتسويغه في البلاد الكافرة، لفساد طبائعهم بالكفر.

وهناك البديل، بتنقية مياه البحار، وتغطية أكبر قدر ممكن من التكاليف، وذلك بزيادة سعر الاستهلاك للماء، بما لا ضرر فيه، وينتج إعمال قاعدة الشريعة في النهي عن الإسراف في الماء. والله أعلم.

انتهت وجهة النظر.

إعداد: تركي محمد النصر

إشاعة العيوب

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «إن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها، ولذلك فإنه ينبغي أن تكون سرا بين الآمر والمأمور، وأما الإشاعة وإظهار العيوب فهو مما حرمه الله ورسوله، ومن حب إشاعة الفاحشة في المؤمنين». **(موسوعة أقوال الحكماء)**.

الإفراط في إظهار النعم

مازال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء، لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، وإنها لأشد من كل نائبة، كان فقيرهم يظهر الغنى، ومريضهم يظهر العافية.

ثم نكتة ينبغي التفطن لها، ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم، فأصابه عدوه بالعين، فلا يفي ما تبجح به بما يلاقي من انعكاس النعمة.

والعين لا تصيب إلا ما يستحسن، ولا يكفي الاستحسان في إصابة العين حتى يكون من حاسد، ولا يكفي ذلك حتى يكون من شرير الطبع.

فليكن الإنسان مظهرا للتجمل، مقدار ما يأمن إصابة العين، ويعلم أنه في خير، وليحذر الإفراط في إظهار النعم، فإن العين هناك محذورة.

(صيد الخاطر لابن الجوزي).

الأيادي ثلاث

الأيادي ثلاث: بيضاء، وخضراء، وسوداء.

فاليد البيضاء: الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء: المكافأة على المعروف، واليد السوداء: المن بالمعروف.

(إحياء التراث في ما جاء في عدد السبع والثلاث، ص ٣١).

ما رأى ظلمة منذ سنين

في ترجمة محمد بن إسماعيل، أبوعبدالله المغربي... قال العلامة ابن كثير رحمه الله: حج على قدميه سبعا وتسعين حجة، وكان يمشي في الليل المظلم حافيا، كما يمشي الرجل في ضوء النهار، وكان المشاة يأتمون به فيرشدهم إلى الطريق، وقال: ما رأيت ظلمة منذ سنين كثيرة. وكانت قدماه مع كثرة مشيه كأنهما قدما عروس مترفة.

(البداية والنهاية، ١٤/ ٧٧٦).

الناس أربع طبقات

قال أبو منصور: كان المأمون يقول: الناس أربع طبقات: بين إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة. فمن لم يكن بينهم كان كَلا عليهم.

(آداب الملوك، ص ٦٨).

وعظ بليغ

قال ابن خيرة – وكان من أصحاب علي رضي الله عنه –: جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة.

قيل: وما التعسر في اللذة؟

قال: لا يصادف لذة حلالا، إلا جاء من ينغصه إياها.

(تفسير ابن كثير، ٣/ ٥٣٣).

السياحة

قال العلامة المودودي رحمه الله تعالى: اهتم الإسلام اهتماما بالغا بأن ينشئ في المسلمين الميل إلى إكرام المسافر وإحسان قراه، ومع ذلك جعل له نصيبا في الزكاة والصدقات والغنائم؛ مما قد سهل للناس التجارة والسياحة والتعليم ودرس الأحوال، ورؤية المشاهد العلمية والتاريخية.

(أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم، ص ١٤٣).

أي رجل أفسدوا

قال ابن المبارك رحمه الله: بقي بالعراق رجلان: شريك وشعبة، فلما بلغ سفيان أن شريكا استقضى، قال: أي رجل أفسدوا.

(أخبار القضاة، ٣/ ١٦٣).

خلط العلوم

قال العلامة ابن خلدون رحمه الله: من المذاهب الجميلة، والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا؛ فإنه قل أن يظفر بواحد منهما، لما فيه من تقسيم البال، وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر؛ فيستغلقان معا، ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة.
(المقدمة، ص٤٥٩)

(القول العلي للسفاريني).

وصية غالية لطالب العلم

قال علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله: «... وإذا قال الأستاذ للطالب فهمت؟ فلا يقل: نعم، حتى يتضح له المقصود إيضاحا جليا؛ لئلا يكذب ويفوته الفهم، ولا يستحي من قوله: «لم أفهم»؛ لأن استيثاقه يحصل له مصالح عاجلة وآجلة. فمن العاجلة: حفظ المسألة، وسلامته من كذب ونفاق، بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه منها، ومنها وثوق الأستاذ باعتنائه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه، وعدم نفاقه. ومن الآجلة: ثبوت الصواب في قلبه دائما، واعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية».
وعن الخليل بن أحمد: «منزلة الجهل بين الحياء والأنفة».
(آداب الدارس والمدرس للقاسمي، والمجموع للنووي).

كبر وذل

قال الجاحظ: لم أر ذا كبر قط على من دونه، إلا وهو يذل لمن فوقه، بمقدار ذلك ووزنه.

(الحيوان، ٣٨٣/٢).

حياء

قال علي بن الحسين رضي الله عنه: «إني لأستحي من الله أن أرى الأخ من إخواني، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا»

(تهذيب التهذيب، ٣٠٦/٧).

إن الكريم لا تحنكه التجارب

قال داود بن عبد الله: سمعت مالكا يقول: كان ابن شهاب من أسخى الناس، فلما أصاب تلك الأموال، قال له مولى له وهو يعظه: قد رأيت ما مر عليك من الضيق، فانظر كيف تكون، أمسك عليك مالك.
قال: إن الكريم لا تحنكه التجارب.

(سير أعلام النبلاء، ١١/٦).

نصيحة غالية

قال العلامة الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - ناصحا الشباب: فاحذر على نفسك أمرين:
١. أن تنزع إلى البروز قبل استكمال المؤهلات المطلوبة.
٢. وأن تستكمل هذه المؤهلات، لتلفت بها أنظار الناس إليك.
فليصنع المرء أولا نفسه في عزلة، وفي صمت، وفي تؤدة، كالشجرة التي يختفي أصلها في ظلمة التراب أمدا تتكون فيه التكون الصحيح، ثم تبدأ تشق طريقها إلى الهواء والضوء.
ما ضر الشباب أن يتواروا قليلا أو كثيرا، فلا يطلعوا على الناس إلا بعد أن تكتمل ملكاتهم، ثم من الإيمان - إذا استويت - أن تقوم بما عليه لله، لا للظهور.

(الجانب العاطفي في الإسلام، ص ١٤٥).

حفظ الله لعبده

قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ العبد المؤمن في ولده، وولد ولده، ويحفظه في دويرته، ودويرات حوله، فما يزالون في حفظ، أو في عافية، ما كان بين أظهرهم.

(المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة، ص ٢٤٨).

المبادرة

روى ابن المبارك عن الحارث بن قيس قال: إذا أردت أمرا من الخير فلا تؤخره لغد، وإذا كنت في أمر الدنيا فتوخ، وإذا كنت في أمر الصلاة، فقال لك الشيطان: إنك ترائي، فزدها طولا.

(الزهد، ٩٤/١).

من مواعظ الحسن بن علي رضي الله عنه

- الوعد مرض في الجود، والإنجاز دواؤه.
- المسؤول حر حتى يعد، ومسترقّ حتى ينجز.

(مواعظ الصحابة، ص ٣٢٣).

اللفظ والمعنى

قال الجاحظ: المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير، وقد قيل للخليل بن أحمد: مالك لا تقول الشعر صناعة؟ فقال: الذي يجيئني لا أرضاه، والذي أرضاه لا يجيئني. فأنا أستحسن هذا الكلام.

(الحيوان، ٤٠٨/١).

بريد القراء

مع الله

كان ذلك في أحد أيام الجمع، قبل الفجر بدقائق معدودات، ألقيت ببصري في السماء، وكانت صافية وكان القمر ساطعا، فاسترعى انتباهي سرب من الطيور البيضاء الكبيرة الحجم وهي تحلق في الأفق مصحوبة بأصوات شجية عذبة مثيرة، والقرية نائمة على عروشها.

تأملت هذا المشهد الرائع النادر وقرأت هذه الآيات ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (النحل:٧٩)، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (الإسراء:٤٤)، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ (النور:٤١).

تدبرت معاني هذه الآيات البينات، واستحضرت في قلبي وعقلي عظمة الرحمن الذي خلق الكون وما فيه من عجائب المخلوقات من الرسل والملائكة والناس والطيور والحيوان.. دارت هذه الطيور دورات عديدة بنظام عجيب وفي مكان واحد، بأصوات شجية عذبة لم أسمع مثلها قط.. راق لي هذا المشهد العجيب النادر وهذه اللوحة الفنية الرائعة، وفجأة.. رفع المؤذن صوته بالنداء، فألفيت نفسي في حيرة: سأواصل التأمل في هذا المشهد أم سأنصرف إلى المسجد لأداء فريضة الصباح؟! وبينما أنا غارق في هذا المشهد المؤثر، انتهى الأذان، وانصرفت الطيور، وظل هذا المشهد منقوشا في ذاكرتي.. تفكروا في ملكوت الله.. وذهبت إلى الصلاة.

• عبدالسلام أحمد سومع

الأراضي الزراعية أيام العثمانيين

بانتصار السلطان العثماني سليم الأول على السلطان المملوكي طومان باي في معركة الريدانية سنة ٩٢٣ هجرية، أصبحت مصر ولاية عثمانية. وبناء عليه، شرع السلطان سليم الأول في تنظيم شؤون مصر الداخلية قبل عودته إلى إسطنبول، فأنعم على خاير بك بحكم مصر، وكان الهدف من اختيار خاير بك، وهو من الحكام المحليين الموالين للعثمانيين، ضمان ولاء مصر لحكمهم من ناحية، وتوطيد السلطة العثمانية في مصر بالتدريج بعد ذلك. وتطبيقا لهذه السياسة، قرر السلطان سليم الأول حصر الأراضي الزراعية التي يرويها النيل لتقدير الضرائب والأموال الأميرية عليها، وكيفية توزيعها على الحكام والأمراء والعسكر والفلاحين على نحو يصدر بقانون. ومما هو جدير بالذكر أن الأراضي الزراعية في مصر في زمن العثمانيين توزعت على عدة أنواع، من بينها الأراضي الديوانية، وتشمل نوعين هما: أرض الفلاحة وأرض الأوسية، وهما معا يمثلان الأراضي الخراجية أو أرض الالتزام. وتشير الوثائق العثمانية التي وصلتنا إلى تقسيم أراضي الفلاحة في الأغلب إلى ثلاثة أنواع: عال – وسط – دون. وهذا التقسيم يعتمد على جودة التربة وخصوبتها ووفرة المحاصيل. كما لا تفوتنا الإشارة إلى ثبات مساحات أراضي الفلاحة، بينما تميزت مساحات أراضي الأوسية بالتعديل والتغيير سنويا؛ لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية. ويتضح مما سبق ذكره أن أراضي الفلاحة والأوسية يجوز بيعها أو التنازل عنها. وقد وجد إلى جانب أراضي الفلاحة والأوسية الأراضي الزراعية التي عرفت باسم أراضي الرزق، وهي أراض لا يجوز بيعها أو التنازل عنها لرصدها على بعض الأفراد والمؤسسات الدينية (الأوقاف). وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة وجدت أراضي الأوتلاق، وهي مساحات من الأراضي في بعض القرى كانت مخصصة لتوفير العليق اللازم لخيول الباشا والبكوات والمماليك، أو كانت مخصصة للجسور، أي لتوفير العليق لثيران الجرافة التي تقوم بتطهير الترع والقنوات في فصل الجفاف. وأراضي الأوتلاق محدودة المساحة، وبمرور الزمن سمح الباشوات للملتزمين الذين تقع هذه الأراضي في حصص التزامهم بضمها إلى أواسيهم والانتفاع بها نظير مبلغ من المال يدفع إلى الباشا. وإلى جانب أراضي الأوتلاق وجدت أراضي المناجزة، وهي من النوع الضعيف القليل الخصوبة، وتشكل الدرجة الرابعة بالنسبة إلى الأراضي الزراعية، أي إنها تلي الفلاحة الدون.

• محمد فؤاد علي

القراء الأعزاء: نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

فرحة مثقف

فرحت كثيرا بوصول العدد ٥٩٥ من مجلتنا الغراء إلى منطقتنا النائية بالجنوب التونسي. وازدادت فرحتي بعودة الوصال بيني وبين مجلة تربيت على مائدة فكرها الإسلامي الوسطي منذ الصغر.

امتدت علاقتي بهذه المجلة لأكثر من ربع قرن (منذ الصغر)، ولا تستغربوا ذلك؛ فأنا مغرم بالمجلات الإسلامية، ثم كانت قطيعة فرضت على المجتمع الإسلامي، حيث كانت حيازة المجلة تعتبر جريمة، ويشهد الله كم عانينا في إخفائها، وحافظنا على البقية الباقية من أعدادها الرائعة.

وفي إحدى زياراتي للعاصمة رأيت المجلة تباع في الأكشاك.. ربما أخرى؛ لتغيير شكلها.. فرحت بعودة المجلة إلى تونس.

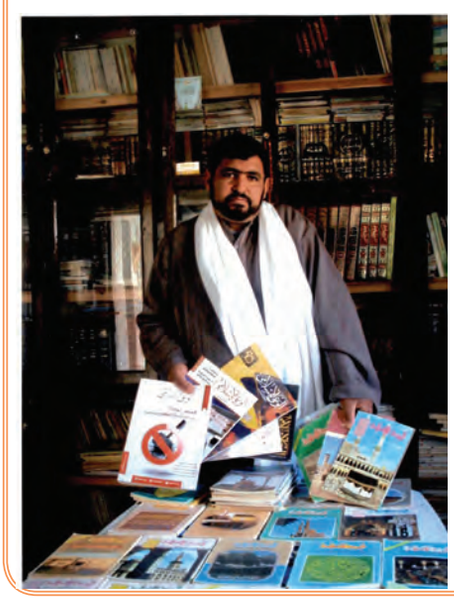

تحصلت - بعد جهد - على بعض الأعداد، وكانت معاناة، حتى شرفتموني بإرسال العدد الأخير.

ليس لي شيء سوى قولي لكم:

بارك الله فيكم.

بارك جهودكم.

شكرا لكم من كل قلبي.

حفظ الله مجلتنا.

حفظ الله شعب الكويت.

عبدالرحمن بنسعيد

مودة

كم تغمرني السعادة بالتواصل معكم، قراءة لموضوعات المجلة، وكتابة لها، واستمتاعا بتفوق موضوعاتها وتنوعها وتميزها. ولذلك، أرى أنها أثبتت جدارتها بمواصلة الصدور، والمحافظة على مواعيده، وكذلك الملحق الممتاز «براعم الإيمان».

زادكم الله توفيقا ونجاحا، استمروا فكم نفع الله بالمجلة، وأنار بها عقولا وأفئدة.

عبدالعزيز بن صالح العسكر

اعطونا روادا

بلسان الجراح، التي أعيد فتحها بالنكسة من بعد النكبة.

بلسان قلب شهد العذاب على جسر الدموع والآلام فوق مياه الأردن الحريب.

بمنطق مسلم يعاف كأس الذل ولا يجديه أن يصد عنها مرة بعد مرة، وليست الكأس بمبعدة، ولا هو بمستسلم.

ومن ضياء الألم.. ألم الحنين إلى الديار الأسيرة.

من هديل ضمير ملتاع كلما ادكر النسيم العليل يطوف مباركا في الأصائل من حول الأقصى والصخرة.

من حكمة الليالي الطويلة المتفكرة.. ليالي الهموم الثقال، والنجوم الراسيات، والآهات، والتحسر، والزفرات.

من حماسة يقين يؤمن بسنن الله، وصواب الأقدار، ويسر العسر، ومزايا الشقاوة، ونعمة التحدي الشديد المستمر الرهيب.

ومن تقليب الفكر في عبر التاريخ، ومصائب الأمم، ودراسة الخطأ الكبير الذي ترتطم على صخراته الصلدة سفائن العقيدة العظمى المباركة.

بكل تلك الأدوات، ومن كل تلك الخاطرات.

وبين دخان الأحزان، ووميض الإيمان.

بين رعود القدرة، وبروق القضاء. ينطلق إلى كل المسلمين من صميم القلب هذا النداء:

آن الأوان يا مسلمون، فلقد فهمنا عن روح الدين، وحقيقة اليقين، وجاء تلاحق الأحداث بآيات الضرورة لاستنزال العقائد من علياء الفكر إلى أرض الحقيقة والعمل.

وجاءت فرصة الزمان لتغطية الهوة بين الأفكار والواقع، ووصل المبادئ بالحياة، وإحياء هذا الدين في خطة الدولة، وسعي الفرد، وحياة الأسرة، وكل نشاطات العيش.

فإما أن نكون مسلمين، أو لا نكون، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولا غاية حقق.

● **من مقال قديم للأستاذ أحمد العناني**

الغزوات التدميرية.. للقيم الإسلامية

من المبادئ الأساسية للإسلام غرس القيم الأخلاقية، والفضائل الإنسانية، والخصال الحسنة، والسجايا الحميدة، في الفرد المسلم. وقد نبه إليها، وأمر بها، وحث عليها، وقرر أنها من كمال الإيمان إذا تمسك بها المسلم وحافظ عليها.

وقد سار على هذا النهج السابقون الأولون من السلف الصالح، وظلت هذه القيم تعلن عن نفسها، قولا وفعلا، مادامت تنبع من ضمير حي وقلب يقظ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (آل عمران:١٠١).

إلى أن جاء هذا الزمان الذي وجد فيه من المسلمين من ضل الطريق، وحاد عن الجادة، وجرفهم تيار الحياة المادية و﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر:١٩)، فأصبحوا أرضا خصبة لإنبات الأفكار المسمومة، وغرس الآراء الموصومة، وبذر بذور التشتت والضياع، وعملت فيهم معاول الهدم، فأطاحت بما لدى بعضهم من قيم وعادات؛ لأن عزيمتهم أوهن من بيت العنكبوت. ومع ذلك، ظلت القيم الإسلامية متأصلة راسخة في أعماق كثير من المسلمين؛ لأنها جزء من كيانهم.. هذه القيم أوغرت صدور أعداء الإسلام، فدبروا المكائد ضدها، وجهزوا الغزوات لها، وشنوا الحروب عليها، وظلت روح الشر تدفعهم حتى يومنا هذا.

● عبدالفتاح حسن الزيات

العودة للقدس الجريح

أرحنا عقلنا ردحا
تأخر علمنا حينا
وما عادت سنابل أرضنا الخضراء تكفينا
وقد صارت أيادي الغرب تطعمنا وتسقينا وتنثر سمها فينا
أرحنا خيلنا زمنا
وبعض الخيل وظفناه للأفراح سخرناه للرقص
ألا نبكي على أمس
وكم كنا وكم كانت ريادتنا
● فهل وهنت سواعدنا
وهل خويت عزائمنا
وهل صدئت سيوف الحق.. هل صدئت
وهل تاهت طلائع جيشنا المغوار.. هل تاهت
وهل جفت منابع خير أرضينا
وهل ماتت أمانينا
فما عدنا نداعبها.. تداعبنا وتغرس روحها فينا
● فهل عدنا لماضينا
لننفض كرب أزمتنا
نحقق حلم أمتنا، تفردها، تألقها، تسيدها لكل الكون
ونسرج خيلنا الوثاب. هل عدنا
تجيء الصحوة الكبرى
ونعلن زهو أمتنا، تسيدها، توحدها، تميزها، تزعمها لكل الكون
فهل عدنا لأمجاد أضعناها
ليعلو صوت مئذنتي
ويسمع كل من في الأرض صوت الواحد القهار
وتزدان مساجدنا بآيات من القرآن نتلوها علانية
ونتحاكى أحاديث عن المبعوث بالرحمات للناس
وصوت «بلالنا» المحبوب يغمر كل وادينا
يناديا:
نصلي «الفجر» في «الأقصى»
إن شاء الله تعالى قريبا

● رفعت محمد بروبي حسين

محاولة فتح روما

بعد أن فتح الجيش العثماني في عهد السلطان محمد الفاتح رحمه الله تعالى مدينة أوترانتو الإيطالية عنوة في شهر أغسطس من سنة ١٤٨٠م، كان السلطان محمد رحمه الله تعالى ينوي إكمال فتح جميع إيطاليا. ويقال إنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس في مدينة روما، لكن السلطان محمد رحمه الله تعالى توفي في شهر مايو من العام الذي يليه، وبموت السلطان محمد الفاتح تنفست النصرانية في أوروبا الصعداء، ودقت أجراس الكنائس لمدة ثلاثة أيام، وقيل إن الرسالة التي أرسلت إلى البابا كانت بها جملة واحدة، هي: مات النسر العظيم. ولم يتابع الخلفاء العثمانيون الأمر لانشغالهم بفتح المجر والصراع مع النمسا والحروب مع الصفويين، حيث حاصر السلطان سليمان القانوني فيينا مرتين، ولم يستطع فتحها لرداءة الطقس من جهة والصراع مع الإسبان في غرب البحر المتوسط وشمال إفريقيا.

● **إبراهيم علي أبورمان**

الشيخوخة فرصة

المسنون من حقهم التمتع بأوقاتهم، التي حرموا منها من قبل حين كانوا في زمن تحمل المسؤولية، لكن ما يجعل الإسلام ديننا يتميز بالأصالة في تعامله مع مرحلة الشيخوخة، هو عدم وقوعه في الخطأ الشائع داخل الثقافة الغربية، التي تطلق العنان للمسنين لاستغلال كل دقيقة من حياتهم في التلذذ بمتع الحياة الفانية، من أسفار ورحلات وارتياد للنوادي الرياضية والفنية والترفيهية، إن كل هذه الأنشطة هي حسنة ومحمودة، لكن لا ينبغي أن تكون كل أوقات المسنين منصرفة لتحقيق رغباتهم الدنيوية.

إن الإسلام يخلق توازنا إيجابيا في حياة المسن، بحيث يدعوه لتخصيص جزء من وقته للترفيه والترويح عن نفسه، أما الجزء الأعظم من الوقت فينبغي أن يملأه بالطاعات من الصلوات في المساجد، ومساعدة المحتاجين، وصلة الأرحام، وزيارة الأحباب والأصدقاء. وينبغي لشيوخنا الأجلاء أن يحرصوا على المداومة والاستمرار على ذلك، حتى يلقوا الله تعالى وهو راض عن صنائع الخير التي اجتهدوا في تحصيلها.

أما إن أراد شيوخنا الأجلاء أن يتوجوا كل أعمالهم في الدنيا، فما عليهم إلا أن يلجأوا إلى أرقى العبادات وأجملها على الإطلاق، وهي الرضا بما كتب الله عليهم من مظاهر الضعف في شيخوختهم، وحمده سبحانه وتعالى على هذه الحال. ولا يستطيع بلوغ هذه المرتبة العالية إلا الشخص المسن، الذي أدرك الحكمة من تراجع قدراته العضوية والنفسية في نهاية عمره. فالله ينظر إلى رد فعل عبده المسن، هل سيحمده في حالة ضعفه كما حمده على القوة التي أمده بها في شبابه؟! فلا تدوم القوة إلا لله جل علاه، أما الإنسان فقدراته تخضع لقانون المد والجزر، ولو كان الشيوخ منصفين لنظروا لما زادتهم الشيخوخة من صفات حميدة وما نظروا لما أخذت منهم فقط، فهي تزيدهم وقارا وضياء وهيبة، فكم من مسن إذا شاهدت وجهه المتلألئ يزرع في قلبك حب الشيخوخة، ويثير في نفسك الشوق لتصبح يوما ما شخصا كبير السن، لتتميز أنت أيضا بما يتميزون به من بهاء وسكينة واطمئنان.

إن الشيخوخة إذن هي زهرة العمر، لأنها أكثر مراحل حياة الإنسان اتصافا بالنضج، وامتلاء بالعمل، وتحقيقا للنجاحات الكبرى في الدنيا والآخرة، مما يجعلها تستحق إعجاب الشباب وتنال تقديرهم.

● **رضى الحمراني**

عبودية السعي وعبودية التوكل

العبودية لله تحتم على العباد السعي نحو تحقيق صلاح الدنيا والآخرة، فالمسلم الحق من يمشي في مناكب الأرض بجسده، وروحه معلقة في السماء، يغذي جانبه المادي مما خلق منه وهو الطين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ (ص:٧١)، وجانبه الروحي من الجانب العلوي بنور السماء ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر: ٢٩)، وهذه هي التوازنية والوسطية في التعامل مع غذاء البدن والروح، وبهذا التوازن عبر التاريخ استطاع المسلمون أن يجدوا لهم مكانا في مسار الحضارات، وأجبروا العالم كله أن يقف وقفة المتعلم من الحضارة الإسلامية الباهرة، تلك الحضارة التي انطلقت من ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾(البقرة:٣٠).

ومعنى استخلاف الله للبشر، وخلافتهم عن الله في الأرض يتطلب إطاعة المستخلف إطاعة كاملة، ولأن السيطرة على الأرض بتمكين الله للبشر تقتضي استغلال كل أوجه الخير فيها، من استنبات الزرع، وإحياء الضرع، وتشجير الأشجار، واستخراج المعادن والزيوت، واستثمار المناجم والمحاجر والمقالع، وإقامة المساكن والمصانع والقرى والمدن، حتى يعرف بكل ذلك ونحوه عظمة الله وقدرته، لأنه هو مانح الحياة لكل الموجودات.

فالخلافة الحقيقية هي التي تجمع بين تعمير القلوب والأبدان وتعمير الأكوان، بمنهج الله وفق سننه التي لا تتغير ولا تتبدل، ومن تلك السنن المطردة التي تغافل عنها كثير من الأجيال، أن السعي في الأرض والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، بل إن السعي الباب الأول الذي يدخل منه البشر على التوكل، ولا توكل بدون أخذ بالأسباب عند التمكن منها، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾(المائدة: ٢٣)، وقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾(يونس: ٨٤)، فجعل الله التوكل على الله شرطا في الإيمان، وكلما قوي الإيمان قوي التوكل والعكس، فالتوكل أصل مراتب الدين، لأنه يشمل الإيمان والإسلام والإحسان.

وأما الآثار الظاهرة للتوكل فيأتي في مقدمتها صحة التعامل مع الأسباب دون الاعتماد عليها أو التعلق بها، فهي وسيلة من وسائل الامتثال والطاعة لرب العالمين ؛ وذلك لأن الله قدر مقدورات مربوطة بأسباب، وأمر عباده بتعاطي هذه الأسباب، ولم ينف عنهم التوكل عليه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ١٠)، كما أن الأخذ بالأسباب من قدر الله، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولو نقص هذا الركن من أبجديات الإيمان لنقص مخزون الإيمان، ولو فقد لفقد الإنسان الإيمان كله. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بهذا، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها.

د.خالد راتب
دكتوراه في الشريعة والقانون